عبد العزيز الثعالبي

تاريخ شمال افريقيا

من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبيّة

جمع وتحقيق

الدكتور أحمد بن ميلاد — محمّد ادريس

تقديم ومراجعة

حمّادي السّاحلي



عبد العزيز الثعالبي

تاريخ شمال افريقيا

من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية

جمع وتحقيق

الدكتور أحمد بن ميلاد

محمد ادريس

تقديم ومراجعة

حمادي الساحلي

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الاولى

1407 - 1987

الطبعة الثانية

1410 - 1990

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113

بيروت - لبنان

تـوطئــة

عندما توفّي الشيخ عبد العزيز الثعالبي، رحمه الله، اقتنيت ما تركه من وثائق مخطوطة، وكنت أجهل ما تكتسيه من أهميّة، ولم أتوفّق إلى الاطّلاع عليها والتعرّف على فحواها إلاّ مؤخّراً.

ذلك أني كنت أشتغل بالطبّ في حيّ شعبي من أحياء مدينة تونس، وكنت على ذمّة الحرفاء آناء اللّيل وأطراف النهار، حيث لم يكن يوجد بالمدينة إلا مستشفى إسلامي واحد، أضف إلى ذلك أن الطباعة كانت آنذاك غير ميسورة، مثلما هو الشأن الآن.

ولما زالت العراقيل، توفّقت بالتعاون مع ابني الأستاذ محمد إدريس إلى جمع وترتيب الأوراق المتعلقة بكتاب «تاريخ شمال إفريقيا» الذي ألّفه المغفور له الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وقمنا بتحقيق ما أمكننا تحقيقه من ذلك الكتاب، ثمّ سلّمناه للمكرّم السيد الحبيب اللّمسي، صاحب دار الغرب الإسلامي، ليتولّى طبعه ونشره.

وترجع بي الذاكرة إلى سنة 1921، عندما اطلعت لأوّل مرّة

على كتاب الشيخ عبد العزيز الثعالبي، «تونس الشهيدة»، وقد كان يُقرَأ آنذاك في تونس سرّاً ويُتبادَل خفية. وكنت تلميذاً بالمدرسة الثانوية، فنشرت فصلاً في جريدة «المستقبل الاجتماعي» لسان حال الحزب الشيوعي بتونس، انتقدت فيه الشيخ الثعالبي. فعُرِض ذلك الفصل للنقاش على أعضاء الشبيبة الشيوعيّة، واستقرّ الرأي على تأييد المطالب الذي تقدّم بها الحزب الحر الدستوري التونسي، لما تكتسيه من فائدة بالنسبة إلى الشعب التونسي، لو كُتِب لها النجاح.

وعندما هاجر الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى المشرق في سنة 1923، كاتبته من باريس، كما كاتبه عدد كبير من الأصدقاء التونسيّين والمغاربة، فأجابنا برسالة مفادها التوجيه العلمي والسياسي. قرأناها واستفدنا منها جميعاً.

ولما رجع إلى الوطن في سنة 1937، دُعِيت إلى علاج اثنين من أنصاره، أصيبا بجروح أثناء الاصطدام الذي وقع مع من كان يسمّيهم «بالخوارج»، كما دُعِيت فيما بعد إلى علاجه، هو نفسه، كلّما اقتضى الحال، وانخرطت في حزبه.

لقد كان الرجل بديناً، وكانت تلوح على محياه هيبة تدعو إلى الاحترام، كما كانت ذاكرته تثير الإعجاب. وقد كان يجلس كلّ يوم في نادي الحزب الحر الدستوري التونسي، من الساعة العاشرة صباحاً إلى الغروب بدون انقطاع، ويجيب على جميع الرسائل التي ترد على الحزب يوميّاً. وكان كثير المطالعة، يطالع الكتب على فراشه من بعد العشاء إلى ساعة مبكرة من الصباح.

وكم من مرّة مررت ليلاً بالقرب من منزله لزيارة أحد المرضى، فوجدت غرفته لا تزال مضيئة.

أما يوم الجمعة، فقد كان يجلس في بيته بعد العصر لإلقاء دروس على طلبة جامع الزيتونة المعمور، حول مقاصد الشريعة الإسلامية أو التاريخ أو مشاهداته في البلدان الإسلامية الشرقية، وقد كان الحاضرون يجلسون على السجاد المفروش في قاعة الاستقبال الفسيحة الأرجاء.

* * *

● **المرحلة الأولى من حياة المؤلف:**

لقد ولد عبد العزيز الثعالبي سنة 1876.

وبعدما حفظ القرآن الكريم التحق بجامع الزيتونة لمزاولة التعليم الثانوي والعالي الذي كان مقتصراً آنذاك على العلوم الدينية. ثم أدّى زيارة خاطفة إلى الجزائر، وإثر رجوعه إلى تونس كتب رسالته الشهيرة «روح التحرر في القرآن»، وقد دعا فيها إلى تخليص العقيدة الإسلامية ممّا علق بها من خرافات وأوهام وما اختلطت بها من بدع لا تمتّ إلى القرآن بأية صلة، مثل التوسّل إلى الله بواسطة الأولياء والصالحين وعبادة الزوايا والخضوع لأصحاب الكرامات. فأحدثت هذه الرسالة زوبعة، شارك في إثارتها رجال المجلس الشرعي والباي، وأودع الثعالبي السجن للمرّة الأولى وتعرّض للشتم والثلب من قِبل مدير جريدة «الرشدية»، فقدّم ضدّه قضية عدلية. وقد جرت هذه الأحداث من سنة 1904 إلى سنة 1905.

وممّا لا شك فيه أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قد تأثّر في

تفكيره هذا بآراء الشيخ محمد عبده الذي أدّى زيارة أولى إلى تونس في سنة 1884، وكان الثعالبي آنذاك صغير السن، ثم أصدر في سنة 1896 جريدة «سبيل الرشاد» المماثلة في اتجاهها لمجلة «العروة الوثقى» التي أصدرها الشيخ جمال الدين الأفغاني في تلك الحقبة من الزمن.

ومهما يكن من أمر فإن هذا العمل الجريء يدلّ دليلاً قاطعاً على ما كان يتميّز به صاحبه من تفكير سليم وشجاعة فائقة، وقد حرصت على تحيّته والتنويه بعمله الإصلاحي، في فصل نشرته بجريدة «لاشارت» (الميثاق)، عند عودته إلى الوطن في سنة 1937.

* * *

المرحلة الثانية من حياته: تتمثل في انتمائه إلى «حركة الشباب التونسي»، اعتباراً من سنة 1907، وهي حركة إصلاحية ثقافية واجتماعية وسياسية.

فقد آزر الشيخ الثعالبي طلبة جامع الزيتونة المعمور في نضالهم من أجل تحسين حالتهم المادية وإصلاح التعليم الزيتوني (1910)، وساهم مساهمة فعّالة في تأسيس «جمعية الآداب» الرامية إلى نشر التمثيل باللسان العربي الفصيح، والجمعية العالمية للموسيقى التي كان يشرف عليها بنفسه (1907).

كما أشرف على تحرير النشرة العربية من جريدة «التونسي» التي صدرت سنة 1909 لتعزيز جريدة «التونسي» الفرنسية اللسان التي أسّسها علي باش حانبة في سنة 1907. وقد كانت النشريّتان ترميان إلى غاية واحدة، أي الردّ على الاستعماريّين الذين كانوا

يشنّون الحملات الصحافية لغرس مركّب النقص في أذهان التونسيّين وتشتيت شملهم وإقصائهم عن ميدان التعليم.

وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي من أعضاء اللجنة التونسية التي تأسّست لنجدة المجاهدين الطرابلسيّين في حربهم ضدّ إيطاليا سنة 1911، ومدّهم بالإعانة المالية والغذائية. كما انضمّ إلى اللجنة التي تأسست سنة 1912 لمدّ يد المساعدة إلى عملة «الترامواي» التونسيّين، ماديّاً وأدبيّاً. وقد انجرّ عن هذا النشاط إبعاد الشيخ إلى خارج البلاد التونسية، فارتحل إلى فرنسا ومنها إلى الآستانة، وأوفده «حزب الاتحاد والترقّي» إلى الشرق الأقصى لضمّ الشعوب الإسلامية إلى حضيرة الدولة التركية. ولم يرجع إلى تونس إلا سنة 1914، إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى.

* * *

المرحلة الثالثة: تبتدىء بظهور الحزب الحرّ الدستوري التونسي في سنة 1919، وقد كان باعثه، بدون نزاع، الشيخ عبد العزيز الثعالبي، فهو الذي وضع قانونه الأساسي، وهو الذي كان يجلس يومياً بنادي الحزب، 20 نهج انجلترا بتونس، من الصباح إلى غروب الشمس، يقتبل الوفود ويزوّدها بتعليماته ونصائحه، ويفتح الرسائل ويملي الجواب عليها. ونتيجةً لهذا النشاط الفيّاض، فقد انتشرت الشُعَب الدستوريّة في جميع المدن والقرى والأرياف وسرعان ما تجاوز عددها المائة شُعبة. كما قام الشيخ، ابتداء من سنة 1919، بدعاية واسعة النطاق في فرنسا لفائدة القضية التونسيّة، وألّف كتابه الشهير «تونس الشهيدة» فألقت عليه السلطة الفرنسية القبض وأرجعته إلى تونس مكبّلاً في

الأغلال وزجّت به في السجن العسكري (1920)، بتهمة التآمر على أمن الدولة. ثم أفرج عنه في السنة الموالية، بعدما ثبتت براءته، وخرج من تلك المحنة مرفوع الرأس موفور الكرامة.

ولقد انفصلت عن الحزب الدستوري في أيامه الأولى كتلة من المفكرين، ولكنّ ذلك لم يؤثر قطّ في حيويّتـه. إلاّ أن الخلاف تفاقم بين أعضاء اللجنة التنفيذية نفسها، يوم ضعف الحزب وقلّت موارده، من جرّاء سياسة التعسّف والترهيب التي سلكها الحاكم الفرنسي (المقيم العام) لوسيان سان (Lucien Saint). فقد كان يغض الطرف عن زعماء الحزب[1] ويبطش بالدعاة والأنصار[2]. وكان صاحب الجريدة الاستعمارية «تونس الفرنسية»، المعادية للشعب التـونسي، يسمّي الدعـاة «أعوان الدستور» ويوصي حكومة الحماية بالتنكيل بهم. وممّا زاد في الطّين بلّة مؤازرة الجالس على العرش «محمد الحبيب باي»، للمقيم العام الفرنسي.

---

(1) كان الشيخ الثعالبي يجلس أحياناً بمقهى «السطنبولي» بحيّ الحلفاوين. فقال له صاحب المقهى ذات يوم: يا سيّدي إن الشرطة قد أعلمتني بأن وجودك هنا غير مرغوب فيه، فالرجاء أن لا تتسبّب في غلق المقهى الذي هو مورد رزقي، وأنا ربّ عائلة وأبناء.

وحدثني المرحوم البشير المتهني أن الشيخ الثعالبي كان يجلس في مقهى «السطنبولي» عندما كان مشرفاً على تحرير جريدة «التونسي»، وهناك كان يملي فصولها على الصادق الزمرلي.

(2) قرأت بجريدة «لسان الشعب» أن الطاهر الحداد حلّ يوماً بقرية رأس الجبل فاقتبلَه شرطي عند نزوله من السيارة وقاده إلى مكتب شيخ القرية (العمدة)، وجاءه محافظ الشرطة وأرجعه من حيث أتى من غير أن يتصل بأحد.

فقد أرسل المقيم العام لوسيان سان إلى الباي، للتوقيع عليها، ثلاثة معاريض (أوامر عليّة)، تسلب من الشعب كل ما كان قد أحرزه من حرية القول والصحافة والاجتماع وفتح النوادي وجمع المال، كما تنتزع من المحاكم التونسية القضايا السياسية وتحيلها إلى المحاكم الفرنسية التي كانت تدين التونسيّين بلا شفقة ولا رحمة. وممّا يذكره التاريخ أن محمد الحبيب أخذ تلك الأوامر وأخفاها. وقد التمس منه المقيم العام مرّات عديدة التوقيع عليها فسوّفه. وبعد ذلك بأيام، طلب الباي من الصائغ لاديزلاس (Ladislas) إمداده بمجموعة من المجوهرات ليختار منها بعض القطع، فاستجاب إلى رغبته. وكلما طلب الصائغ من الباي إرجاع تلك المجوهرات أو دفع ثمنها، لم يجبه، فاشتكى أمره إلى المقيم العام. وفي الحين أدرك لوسيان سان ما يمكن أن يجنيه من هذه العملية، فدفع باليد اليمنى ثمن المجوهرات وأخذ باليد اليسرى المعاريض الثلاثة المشار إليها أعلاه مختومة بطابع الباي، وقد أصبحت أوامر عليّة قابلة للتنفيذ، وأطلق عليها التونسيّون اسم «الأوامر الأثيمة».

وفي تلك الظروف الحرجة والمؤلمة من الناحية السياسية والحزبية، غادر الشيخ أرض الوطن للمرة الثانية للقيام بجولة دعائية في المشرق ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم[3].

* * *

(3) قال لي الشيخ الثعالبي بنفسه ما يلي: «كان الحبيب باي يطلب مني تحرير الرسائل ذات الأهمية إلى الحكومة الفرنسية ووعدني بأن يكون إلى جانبي لتحرير الشعب التونسي. ولما ارتقى إلى العرش أرسلت إليه نديمه وجليسه =

المرحلة الرابعة: ارتحل الشيخ خلال هذه المرحلة إلى المشرق، حيث مكث أربع عشرة سنة بدون انقطاع، فتحوّل أوّلاً إلى إيطاليا ومنها إلى اسطنبول، يوم إقالة السلطان العثماني وإلغاء الخلافة وتسلّم الكماليّين مقاليد الحكم. ولم تطل إقامته بتركيا، إذ سرعان ما تحوّل إلى مصر التي أقام بها سنة واحدة، ثم انتقل إلى فلسطين ومنها إلى الحجاز واليمن والحج، حيث أصيب بداء المالاريا (Pallu Disme)، ومن الحجاز تحوّل إلى العراق (1925)، فأوفده الملك الحسين لحضور المؤتمر الإسلامي بالقدس (1931) الذي سيتناول بالبحث قضيّة الخلافة. وقد مكث بالعراق ثلاث سنوات، وهناك ألّف، حسبما يظهر، كتابه «تاريخ الدولة الأمويّة»، وانتدبته الحكومة العراقية للتدريس بجامعة آل البيت، حيث ألقى دروساً حول التشريع الإسلامي والفلسفة والتاريخ، ومن العراق انتقل إلى الهند حيث مكث ثلاث سنوات وألف كتاب «تاريخ الهند»، ثم تحوّل إلى الصين وسنغافورة وعاد إلى مصر ومنها إلى تونس سنة 1937.

* * *

المرحلة الخامسة والأخيرة من حياته:

لقد رجع الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى الوطن لوضع حدّ للانقسام الذي حصل في سنة 1934 داخل الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي أنشأه سنة 1920 وحرّر قانونه الأساسي

= ليفكّره بالوعد الذي قطعه على نفسه فأجاب الرسول بقوله: قل له إذا رضيت أن أتدخّل لدى المقيم العام ليمنحك «قيادة» أو ما يشابهها من الخطط الدولية، فلك ذلك، وإلا فالزم بيتك وكفى!».

بخطّ يده، ولإصلاح ذات البين بين شقّيه الجديد والقديم ورئاسته من جديد. ولكنه لم ينجح في مسعاه.

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية وابتعد عن الشيخ البعض من أصدقائه وتوقّف نشاط الحزب واستولى اليأس على الثعالبي. فقد قال لي ذات يوم: «إن كان هنالك رجال آخرون فأت بهم إليّ، لأعمل معهم!».

لقد فقد من تبقّى من رجال الحزب الدستوري القديم النشاط والاندفاع والجسارة. وأشرف الشيخ على السبعين من عمره وقلّ نفوذه الأدبي، فتأثّر بكلّ ذلك تأثّراً عظيماً، إذ كان يؤمن برسالته الرامية إلى توحيد كلمة الوطنيّين التونسيّين، فلم ينجح. والواقع أن الوطنيّة هي ملك للجميع. وقد أدّى الشيخ عبد العزيز الثعالبي واجبه على الوجه الأكمل، فله منّا بالغ الشكر وجزيل الثناء.

لقد علّم فأفاد، وخطب فأجاد، وراسله الأمراء والزعماء واستضافته الشعوب والعظماء، فقام برسالته في سبيل العروبة والإسلام، أحسن قيام.

قيل للطبيب القيرواني «إسحاق بن سليمان» إنه سيموت عن غير عقب، فقال له أحد أصدقائه: «من يخلّد ذكرك يا ابن سليمان؟ فأجاب: كتابان، كتاب الحُميات وكتاب الأغذية يخلّدان ذكري».

مات الشيخ عبد العزيز الثعالبي (أكتوبر 1944)، وكتبه الكثيرة والمتنوّعة ستخلّد ذكراه: كتاب «تاريخ شمال إفريقيا»،

وكتاب «الدولـة الأمويّـة»، وكتاب «تـاريخ الهنـد»، و«الرحلة اليمنيّة»، و«السيرة النبويّة»، وغيرها من الكتب وهي كثيرة.

... لقد كسّر الأصنام ورفع عالياً راية العروبة والإسلام.

وكفى!.

تونس في 20 مارس 1987

الدكتور أحمد بن ميلاد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

لقد اعتزمنا منذ إنشاء «دار الغرب الإسلامي» نشر آثار المغفور له الشيخ عبد العزيز الثعالبي، سواء منها ما بقي إلى الآن في عداد المخطوطات أو ما سبق نشره منذ عهد بعيد، ولكنّه أصبح كالنادر لكثرة الإقبال عليه.

فأصدرنا لحدّ اليوم مؤلفات الشيخ الثعالبي التالية:

1 ـ تونس الشهيدة (الترجمة العربية ـ 1984) و(الطبعة الفرنسيّة الثانية ـ 1985).
2 ـ مسألة المنبوذين في الهند، 1984.
3 ـ معجز محمّد ﷺ (الطبعة الثانية ـ 1984).
4 ـ روح التحرّر في القرآن (بالعربيّة والفرنسيّة)، 1985.
5 ـ محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، 1985.
6 ـ مقالات في التاريخ القديم، 1986.

وما زالت للمؤلف عدّة آثار أخرى مخطوطة أو متناثرة على صفحات الجرائد والمجلّات. ونحن نعتزم بعون الله وتوفيقه جمعها ونشرها، حتى يطّلع قرّاء اللغة العربية على جانب من آثار السلف الصالح، ذات الأهميّة البالغة والفوائد الجمّة.

ومن بين مؤلفات الشيخ الثعالبي المخطوطة التي يحتفظ بها الوطني الغيور والباحث المقتدر الدكتور أحمد بن ميلاد، أمدّ الله في أنفاسه، كتاب «تاريخ شمال إفريقيا». وقد وافانا في المدّة الأخيرة بنسخة منه، بعدما سهر على جمع فصوله والإحالة على أهمّ مراجعه. ورخّص لنا في نشره وتوزيعه، حتى تتمّ فائدته ويعمّ نفعه كـافّة المهتمّين بتاريخ المغرب العربي الكبير.

كما وعد بإمدادنا في فترة لاحقة ببقيّة المخطوطات الأخرى للقيام بنشرها، تخليداً لذكرى مؤلّفها، ووفاءً لروحه الطاهرة. فله منّا جزيل الشكر والثناء، وقابل الله سعيه بالإحسان والجزاء الأوفى.

والله نسأل أن يوفّقنا جميعاً لما فيه الخير والصلاح.

دار الغرب الإسلامي

تقـــديم

يسعدنا أن نقدّم إلى قرّاء اللغة العربية هذا الكتاب الجديد من كتب المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي لم يسبق نشرها. وهو عرض موجز لتاريخ المغرب الإسلامي من بداية الفتح إلى سقوط الدولة الأغلبية، أي من سنة 27 هـ/647 م إلى سنة 296 هـ/909 م. ولقد اختار له صاحبه هذا العنوان: «تاريخ شمال إفريقيا»، وأضفنا إليه عنواناً فرعيّاً لم يكن موجوداً في الأصل وهو: «من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية».

ولئن لم يذكر المؤلّف تاريخ تأليف ذلك الكتاب، فالغالب على الظنّ أنه قد ألّفه ما بين سنة 1937 (تاريخ رجوعه إلى تونس) وسنة 1944 (تاريخ وفاته). ذلك أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قد بدأ سنة 1939 في نشر الفصول الأولى من كتابه تحت عنوان: «خلاصة من التاريخ القديم»[1] وهي الفصول المتعلّقة بتاريخ

(1) نشرت تباعاً في جريدة الإرادة، (لسان الحزب الحر الدستوري التونسي) بين العددين الصادرين بتاريخ 9-3-1939 و 27-6-1939. وجُمعت أخيراً في كتاب واحد تحت عنوان «مقالات في التاريخ القديم» (تقديم وتحقيق جلول الجريبي ونشر دار الغرب الإسلامي ـ 1986).

الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي، وترك الكتاب غير كامل بعد وفاته.

كما أنّ المؤلف لم يذكر بصريح العبارة الغرض من تأليف ذلك الكتاب. ولكنه أشار إلى ذلك عَرَضاً عند سرده لبعض الأحداث والوقائع التاريخية. فعندما تحدّث مثلاً عن أعمال التخريب التي جرت في إفريقية بإذن من الكاهنة، لمنع العرب من الاستيلاء عليها، علّق على ذلك بقوله:

«ذلك ما خرّبته الكاهنة لا العرب، كما أرجف به دجاجلة المؤرخين الذين يريدون طمس معالم التاريخ لغاية عارية عن الشرف. ولردّ مفترياتهم سنتعرّض في غضون هذا الكتاب لذكر ما عمّره العرب بعد التخريب، **كشفاً للحقائق وإنصافاً للأجداد من التاريخ المصنوع**».

ويتّضح من ذلك جليّاً، أنّ الشيخ عبد العزيز الثعالبي كان يرمي إلى إعادة كتابة تاريخ الشمال الإفريقي لتخليصه من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها بعض المؤلفين الأجانب، بقصد أو بغير قصد، لتشويه صورة الحضارة العربية الإسلامية.

وتتمثّل أهمّ الملاحظات التي استنتجناها من كتاب «تاريخ شمال إفريقيا» فيما يلي:

1 ـ لقد بدأ المؤلف كتابه مباشرةً بالفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا، على غرار من سبقوه من المؤرّخين التونسيّين، أمثال ابن أبي دينار وأحمد بن أبي الضياف والباجي المسعودي

وغيرهم. ولكنّه لم يهمل ـ كما رأينا ـ تاريخ الشمال الإفريقيّ قبل الفتح الإسلامي. فقد خصّص لهذا الموضوع عدّة فصول نشرها على حدة في جريدة «الإرادة» التونسية سنة 1939. بل إنه كان معتزّاً على وجه الخصوص بالقرطاجنّيين وما أبدوه من مقاومة باسلة ضدّ الرومان. فعندما تحدّث في كتابه عن استيلاء العرب الفاتحين على مدينة قرطاجنة، أوضح أن حسّان بن النعمان قد افتكّها من الروم وأعادها «إلى أحضان أمّها العربية»، باعتبار أنّ الفينيقيّين ـ حسب رأيه ـ هم «من أصل عربيّ».

ثم يضيف قائلاً:

«دخل المسلمون في يوم مشهود مدينة علّيسة ـ ديدون، فارتفعت عنها أحزانها التي لابستها منذ خرج منها الفينيقيون... فكان دخولهم إليها عيد في عيد: عيد الميلاد[2] وعيد الخلاص بسيوف أحفاد الذين أجلوا عنها، بعد 843 سنة شمسية. بحيث لولا اليقظة الإسلامية للمّ شعث العرب، لظلّت قرطاجنة قرحا في الصدور، يذكّرهم بأعظم مأساة وقعت لهم في التاريخ».

ولعلّ اهتمام الشيخ عبد العزيز الثعالبي بالتاريخ القديم يرجع إلى تأثّره بأستاذه في الجمعية الخلدونية، الزعيم الخالد الذكر البشير صفر الذي كان أوّل من اهتمّ، من المؤرخين التونسيّين المعاصرين، بدراسة التاريخ القديم،

(2) لقد تم فتح مدينة قرطاجنة في ربيع الأوّل سنة 78 هـ/697 م.

باعتباره جزءاً لا يتجزّأ من التاريخ القومي[3].

2 ـ إنّ كتاب «تاريخ شمال إفريقيا» هو، كغالب كتب التاريخ الإسلامية القديمة، مركّز على الأحداث السياسية والوقائع الحربية. بحيث لم يُعِر المؤلف أيّة أهميّة للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد اعتمد في نقل الأخبار والروايات على مصدرين أساسيّين هما:

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

ـ وابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

وكثيراً ما نقل عنهما عدّة فقرات بدون زيادة ولا نقصان.

3 ـ ولكن المؤلّف ـ والحقّ يقال ـ لم يكتف دائماً بنقل الأخبار وسرد الوقائع والأحداث، بل كان أحياناً يعلّق عليها ويستخلص منها العبرة والموعظة ويردفها بملاحظات تدلّ على إلمام بالمواضيع التاريخية ودراية بالمذاهب والأديان ومعرفة بالأماكن والبلدان. من ذلك مثلاً انتقاده اللاّذع للعبّاسيّين واتّهامهم بالعمل «على تفكيك الوحدة الإسلامية». فقد علّق على قيام الدولة العباسية بقوله:

«وهذا ما يدعو المؤرخ العربي إلى اتهام **الانقلاب العباسي** بأنه كان مؤامرة كيديّة ضدّ العرب، لانتزاع سيادة الحكم من أيديهم وتسليمها إلى الأعاجم. وهو ما كان يحاذره المروانيّون ووقع فيه العبّاسيّون اعتباطاً، فهدّوا كيان قومهم بدلَ أن يشدّوه ويشيدوا بذكره».

(3) انظر كتابه «مفتاح التاريخ» تونس 1928.

ولكن ذلك لم يمنعه ـ بوصفه تونسيّاً لا محالة ـ من استحسان انفصال إفريقية عن الدولة العباسية، في عهد إبراهيم بن الأغلب الذي قال عنه، إنه «أحدث من أنقاضها مملكة إسلامية عظيمة سارت على غرار الأمويّين في السياسة والفتوح وترقية البلاد علماً واقتصاداً».

ثم يضيف قائلاً:

«ولولا قيام الباطنيّة وفرقها الهدّامة التي نكب بها الإسلام في غفلة من حماته. . .، لاكتسحت فتوحاتها الظافرة كامل القارة الأروبية».

4 ـ وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الموقف المتحيّز الذي اتخذه المؤلف ـ بدون أي تحفّظ ـ ضدّ الشيعة. فقد حمل على جميع الفرق الشيعيّة ـ أو الباطنيّة حسب تعبيره ـ حملة شعواء متّهماً إيّاها بالكفر والإلحاد وبثّ بذور الشقاق في صفوف المسلمين والعمل على تقويض الوحدة الإسلامية. وقد خصّص قسماً كاملاً من الكتاب (الباب الرابع) للدعوة الشيعية في المشرق والمغرب. ولكي يبرّر اهتمامه بتاريخ الحركات الشيعية في المشرق، بينما كتابه يتعلّق أولاً وبالذات بتاريخ شمال إفريقيا، صرّح المؤلف بما يلي:

«مررنا مرّاً خفيفاً بالأدوار السيّئة التي تعاقبت على الإسلام في مجرى حياته والتي قامت بها الفرق الباطنيّة الهدّامة في أقطار الإسلام ـ في خراسان وفارس والأهواز والبحرين والعراق والشام ومصر ـ لكي ندع منها ولو صورة مجملة في

ذهن القارىء، يدرك بها جسامة الخطر الذي سينزل بإفريقية من دخول هؤلاء الدعاة إليها».

وهكذا نرى الشيخ يفسّر جميع الانتفاضات والتقلّبات والثورات التي شهدها العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، بسبب وحيد، ألا وهو انتشار الفرق «الباطنية» الانفصالية. ولعلّ تحامله على تلك الفرق نابع من عقيدة راسخة عنده وهي أن «الإسلام الصحيح» ـ على حدّ تعبيره ـ هو وحده الكفيل بتوحيد الأمّة الإسلامية وضمان عزّتها ومناعتها. فإن وقع تصدّع في هذه الوحدة فإن المسؤول الأوّل عن ذلك هو ظهور «الفرق النابية عن روح الإسلام».

ومما لا شكّ فيه أن المؤلف قد نظر إلى تلك الفرق نظرة الرجل السياسي الذي كرّس حياته لمكافحة الاستعمار والنضال من أجل الجامعة الإسلامية والوحدة العربية.

ولقد طغى عليه تفكيره السياسي حتى أبعده عن الموضوعية التاريخية. وفي اعتقادنا أنه لو اطلع على بعض المصادر التي لم تكن موجودة في عصره ـ مثل «المجالس والمسايرات» للقاضي النعمان (تونس 1978) ـ لما اتّخذ مثل ذلك الموقف المتطرّف المرتكز أساساً على المعلومات التي استقاها من بعض المصادر المناهضة للفاطميّين.

5 ـ ونلاحظ من جهة أخرى أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قد استعمل في بعض فقرات من كتابه كثيراً من العبارات التي لا تتماشى مع العصر الذي أرّخ له، مثل «الحكومة القوميّة»،

و«الديمقراطية الإسلامية»، و«الدستور»، و«المؤتمر الملّي»، و«إضراب العمّال»، و«الاعتصاب»، إلى غير ذلك. وهذا دليل على أنه لم يستطع الانفصال عن حاضره والتخلّص من مؤثّرات العصر الذي يعيش فيه. والحال أن من واجب المؤرخ أن ينسى العقلية التي يتحلّى بها، حينما يدرس الماضي.

***

تلك هي باختصار أهمّ الملاحظات التي أوحت لنا بها مراجعة هذا الكتاب. أما عملنا فقد تمثل بالخصوص فيما يلي:

1 ـ تصحيح التحريف وتصويب التصحيف.
2 ـ إضافة بعض الهوامش والتعاليق لمزيد الشرح والتوضيح والإحالة على المصادر لتمكين القارىء من الرجوع إليها عند الاقتضاء.
3 ـ المقابلة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي المقابل الذي وضعناه بين حاصرتين [ ].
4 ـ تقسيم الكتاب إلى أبواب، تيسيراً للمطالعة والمراجعة. وقد أعطيناها عناوين مناسبة لم تكن موجودة في النصّ الأصلي. ولكنّنا حافظنا على العناوين الفرعيّة كما صاغها المؤلف.

والجدير بالملاحظة أن الكتاب ينتهي بسقوط الدولة الأغلبية. ولكن يبدو أن الشيخ الثعالبي كان ينوي إتمامه. فقد ترك من بين وثائقه التي يحتفظ بها الدكتور أحمد بن ميلاد، بعض الجذاذات المتعلّقة بتاريخ الدولة العبيدية. فرأينا من المفيد

إلحـاقها بـالكتاب تحت عنـوان «صفحات من تـاريخ الـدولة العبيدية».

ولا يسعنا في الختام إلّا أن نتقدّم بأخلص عبارات الشكر والامتنان إلى الدكتور أحمد بن ميلاد الذي أتاح الفرصة لظهور هذا الكتاب.

كما لا يفوتنا التنويه بما وجدناه لدى صديقنا الدكتور محمد اليعلاوي من عناية بالغة ومساعدة ثمينة لإنجاز هذا العمل.

وأخيـراً نقدّم جـزيل شكـرنا إلى أخينـا الحاج الحبيب اللمسي، صاحب دار الغرب الإسلامي، على ما يبذله من جهود لإبراز تراثنا الإسلامي المجيد.

والله يوفّقنا إلى السّداد ويهدينا إلى سبيل الرشاد.

تونس في 18 ربيع الثاني 1407
20 ديسمبر 1986
حمّادي السّاحلي

الحمد لله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

الأمة التونسية

المكتب الخاص بالزعيم الشيخ

عبد العزيز الثعالبي

نهج ابي الشوك الصغير عدد ٢٠

تونس

واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة

الحزب الحر الدستوري

التونسي

الدائرة المبنة

المقابلات الخاصة والمخابرات

صورة من إحدى صفحات المخطوط

بخطّ المؤلــف

الباب الأوّل

الفتح العربي لشمال إفريقيا

(27 - 86 هـ / 647 - 705 م)



1 ـ الفتوحات الإسلامية الأولى

فتوح إفريقية:

لما أتمّ عمرو بن العاص فتح مصر على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، ودان له أهلوها من القبط والروم، بالطاعة والجزية، التفت إلى برقة يدعوها إلى الله، ومنع أذى من بها من الروم عن مصر. فسيّر إليها جنداً بقيادة أمير جيوشه عقبة بن نافع الفهري، فواقعهم بها ودخلها عنوة[1]، ثم قصد زويلة فاستولى عليها وبثّ منها سراياه في بقيّة البلاد. وهكذا فتحت بلاد إفريقية بعد مصر.

خروج عمرو بن العاص لفتح إفريقية:

خرج عمرو بن العاص سنة 23 [643] من مصر[2] في جيش

(1) ليس هناك أيّ مصدر يذكر أن فتح برقة تم عنوة، بل تشير كل المصادر إلى فتحها صلحاً، انظر، ابن عبد الحكم ص 29، وابن الأثير ج 3 ص 19، والبلاذري، فتوح، ص 224.

(2) ابن الحكم ص 30، والبلاذري ص 225، وابن عذاري ج 1 ص 2، وابن الأثير، الكامل، ج 3 ص 19.

كثيف وعدّة حسنة لمناجزة إفريقية ومناهضة من بها من الروم، فاجتاز برقة ثم قصد طرابلس فاتحاً حتى بلغ عاصمتها، فعسكر بالقبّة التي على الشرق من شرقيّها، ونصب عليها الحصار شهراً كاملاً وهو لا يقدر عليها لمناعتها ويقظة الروم الذين يتولّون الدفاع عنها، فجعل يصابرهم ويرقب غرّتهم حتى أخرج ذات يوم طليعة عليها رجل من مذحج[3] متنكرين في صورة صيّادين، فمضوا إلى غرب المدينة، وهناك اشتد عليهم البحر ولم يكن عليها سور من هذه الناحية، فساروا على الضفّة، ومن يراهم يخالهم من أهل المدينة. وكانت سفن الروم شارعة في مراسيها قبالة البيوت، فعلم المذحجي أن المأتى لا يكون إلّا منها ساعة الجزر. فانتظروا انحسار الماء ثم دخلوا المدينة حتى توصّلوا إلى الكنيسة، أين يقف جنود المسلمين خلف الأسوار، فكبّروا تكبيرة واحدة دوت لها الآفاق وأفزعت الروم ولم يجدوا ما يقيهم من فزعهم غير سفنهم فأسرعوا إليها[4].

أما عمرو بن العاص فإنه حين سمع التكبير دفع جنوده على الأبواب ففتحوها، ولم يفلت منهم أحد إلّا من فرّ ولاذ بمراكب العدوّ. فكان فتحاً مبيناً ينذر الروم بساعة انقراض تسلّطهم على إفريقية والمغرب.

وذكر المؤرخون أن عمراً ندب أثناء حصار طرابلس بُسْر بن أبي أرطأة من الجند لغزو ودّان، فاستولى عليها صلحاً. ثم إن

---

(3) الأصحّ «من بني مدلج»، انظر ابن عبد الحكم ص 31.

(4) انظر بالإضافة إلى المرجع السابق، ابن الأثير ج 3 ص 19.

أهلها نقضوه بعد أن انصرف عنهم. وسار عمرو من طرابلس إلى جبال نفوسة وكانوا متنصّرين، فاستولى عليها بعد معارك عنيفة. ثم أخذ يتأهّب إلى دخول إفريقية. فجاءه كتاب من عمر بن الخطّاب يأمره بأن يكفّ عنها ويرجع بالجنود إلى مصر، وذلك لأن معظم الجيوش الإسلامية كانت منهمكة في بلاد المشرق بتقويض دولتي الرّوم والفرس، وهو يخشى توريط جنوده في إفريقية دون أن يتمكن من إنجادهم[5]، فلبّى عمرو الأمر وترك حامية في طرابلس تكفي لردّ الغارة عليها، وعاد من فوره إلى مصر.

ولما توفّقت الجنود الإسلامية في الشام والعراق وقضت فيهما على جنود الفرس والروم، وذهب الصدع الذي نزل بالمسلمين بمقتل سيّد الشهداء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة انتقاماً منه للفرس)، وذلك بولاية رديفه ذي النورين عثمان بن عفّان الخلافة، تجدّد العزم على فتح إفريقية. فكتب عثمان إلى عمرو بن العاص باتخاذ الأهبة وإعداد العدّة لذلك. وقلّد أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح[6] ولاية الجنود. وبعد سنتين من خلافته سرّح هذا القائد إلى إفريقية.

---

(5) انظر حول سبب امتناع عمر بن الخطاب عن غزو إفريقية، ابن عبد الحكم ص 33، والبلاذري ص 236، وابن عذاري ج 1 ص 2، ورياض النفوس ج 1 ص 9.

(6) وفي كتاب النجوم الزاهرة: إن اسمه الحسام بن الحارث بن حُبيب وكذا بأنساب الطبقات لابن سعد (المؤلف).

خروج عبد الله بن أبي سرح لفتح إفريقية:

خرج عبد الله بن سعد من الفسطاط إلى إفريقية في عشرين ألفاً[7] أواخر سنة 29 [649][8] ودخلها أوائل سنة 30 [650]، ومعه أكابر الصحابة وفقهائهم، منهم: عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحصين، ومعبد بن العباس بن عبد المطلب، ومروان بن الحكم، وأخوه الحارث بن الحكم، وعبيد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبد الله ابن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، والمِسْوَر بن مخرمة بن نوفل، وعبد الرحمان بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأخوه عاصم بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن جعفر، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي الشاعر، وعبد الله بن مسعود، وبسر بن أبي أرطأة العامري، ومن إليهم من الجلّة[9]. وكان خروجهم في هذا الجيش لمن أقطع الأدلّة على اهتمام الصدر الأوّل من الإسلام بهذا الجانب من المتّسع العربي، واعتبارهم إياه كجزء حيويّ من بلادهم كما يعتبرون مصر وسوريا والعراق.

وأمر عثمان لعبد الله بن سعد حين أخرجه إلى إفريقية أن يكون له خمس الخمس نفلاً من الغنيمة[10]. ولا شبهة أن ذلك

(7) ابن عبد الحكم ص 37، وابن عذاري ج 1 ص 4.
(8) ويذكر المالكي في «رياض النفوس» سنة 27 [647].
(9) تختلف الروايات في ذكر أسماء المشاركين في الغزوة، إلّا أن المؤلف قد اعتمد على رواية البلاذري، فتوح، ص 226.
(10) ابن الأثير ج 3 ص 67.

حقّ من حقوق أمير المؤمنين لتنشيط رجاله وخلق المثل العليا فيهم، ولا وجه في ذلك لرميه بالإيثار والمحاباة، ما دامت المكافأة على عمل لفائدة المسلمين.

سارت هذه الحملة العظيمة في طريقها ولم تجد نصباً ولا كيداً إلى أن هبطت أرض إفريقية من ناحية قابس، فحاصرتها أياماً ثم تخلفت عنها وتوغّلت في البلاد إلى أن اصطدمت بعساكر الروم ووقعت لها معها وقائع كان الفوز فيها للمسلمين. ثم انتقلت إلى سبيطلة[11] وكانت يومئذ قصبة نوميدية، عليها الأمير غريغوار (جرجير)[12] المنشقّ على قرطاجنة، فجرت بينه وبين عبد الله مخابرات طويلة انتهت بالحرب ومقتل غريغوار في حكاية مشهورة. ثم استولى المسلمون على سبيطلة، وكان جند الروم على ما أثبته المؤرخون 120.000[13] مقاتل. ثم تقدمت خيل المسلمين إلى قفصة وكان أكثريّة أهاليها من البربر والروم يعتصمون بالحصون، فداخلهم الرعب بعد وقائع طفيفة وبعثوا إلى عبد الله يطلبون منه الصلح، فصالحهم معْ بقيّة البلاد على جزية معيّنة 2.520.000 دينار[14] (وزنها 300 قنطاراً من الذهب). وسيّر عبد الله بن الزبير بخبر الفتح إلى المدينة. وقسم ما أفاء الله مع الغنائم على الجنود، وأصْفى لنفسه ما نفّله إياه أمير المؤمنين

(11) وتعرف عند الروم باسم «سوفيطلة» (Suffetula).

(12) جرجير هو اسم أطلقه المؤرخون المسلمون على البطريق الرومي غريغوار.

(13) ابن عذاري ج 1 ص 5، وابن الأثير ج 3 ص 68.

(14) هذا المبلغ منقول عن النجوم الزاهرة ج 1 ص 80. إلا أن المصادر الأخرى تذكر ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، البلاذري ص 227، وابن الأثير ج 3 ص 69، وابن عذاري ج 1 ص 80، والمالكي ج 1 ص 12.

(خمس الخمس) وأرسل أربعة الأخماس الباقية مع ابن وثيمة النصري إلى المدينة. لكن هذا الصفيّ الذي كان يأخذه رسول الله ﷺ في غزواته أحدث لغطاً بين الجنود، وتقوّلاً في ابن سعد، ولم تطب به نفوسهم، فسيّروا وفداً بإنكار ما فعله عبد الله إلى عثمان. وحين عرضوا عليه الأمر قال لهم: ويلكم أنا نفلته وأمرت له بذلك، فإن رضيتم فقد جاز، وإن سخطتم فهو ردّ. فأجابوه وكان في جوابهم أثر من الأنانية. قالوا: إنا نسخطه، فسكت عثمان قليلاً ثم قال، تفادياً من الانشقاق: إذن فهو ردّ. وكتب إلى عبد الله بن سعد بردّ ما أخذ، وأمره باستصلاحهم، ولما رأوا تساهل عثمان أبوا إلا عزل عبد الله وقالوا: نحن نأبى أن يتأمّر علينا هذا الرجل! وليس كبيراً أن يحدث ذلك في جند يتألف من علية القوم يتنازعهم الاعتداد بالنفس والشفوف.

ولما بلغ خبرهم عثمان كتب إلى عبد الله بن سعد بالعزل، وأمره أن يستخلف على إفريقية رجلاً ممن يرضاه، ويرضاه الجند، وأمر بقسمة الخمس الذي نفّله إياه. فامتثل عبد الله لذلك، وخرج من إفريقية بعد أن أقام بها سنة وشهرين. واستتبّ له الأمر وأغزى الأندلس عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله ابن الحصين الفهريّين في مراكب، بإشارة من عثمان. وروى لنا الإمام الطبري من خبرهما أنهما ناوشاها من برّها وبحرها ثم عادا فائزين. وقبل رجوع عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى المدينة، عيّن أوّل القائدين خلفاً له على إفريقية سنة 33 [653] ثم لحق مصر. وقد استشهد من أكابر رجال هذه الحملة معبد بن العباس والشاعر أبو ذؤيب.

انتكاث أهل إفريقية وخروج المسلمين منها:

وحين علم الأفارقة بما حدث لعبد الله لم يحفظوا عهدهم، بل نقضوه وأبوا أن يعطوا الخراج الذي صالحوا عليه. فدعا عبد الله بن نافع رؤساءهم وجمعهم وقال: إنكم صالحتمونا على أن نأخذ منكم في كل حول 300 قنطار من الذهب جزية مثلما أعطيتم عبد الله بن سعد، فقالوا: ليس عندنا مال نعطيكه، فأما ما كان بين أيدينا في الأوّل فقد افتدينا به أنفسنا، وإنما لك أن تأخذ منا ما كان من عطائنا كل سنة لملكنا. فلما رأى عبد الله إصرارهم على الامتناع والإخلال بشروط الصلح، أمر بحبسهم إلى أن يؤدّوا إليه ما عليهم. فبعث المسجونون إلى قومهم يحرّضونهم، فأقبلوا صاخبين ساخطين، فكسّروا أبواب السجن وأطلقوا المسجونين. ولا شكّ أن التصلّب الذي بلغ حده الأقصى من الجانبين كان نذير سوء لهم جميعاً، فقد نشبت الثورة وكان عدد المسلمين غير كاف لإخمادها، ففضّل عبد الله بن نافع النجاة بمن معه على الهلاك. وترك البلاد يعسف فيها الثوّار من الأفارقة. وكان المسلمون يومئذ في شغل شاغل عنها بإطفاء الفتنة المشتعلة في المشرق التي أودت بحياة أمير المؤمنين الشهيد الثاني عثمان بن عفّان، وما أعقبته من مشاكل بشأن إقرار الخلافة وفضّ المنازعات التي تلتها.

استئناف الحملة الثانية لفتح إفريقية:

لم تنطف تلك الفتنة التي استعرت في المشرق من أجل الخلافة، إلّا لما انعقدت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان، شقيق أم حبيبة إحدى أمّهات المؤمنين، بعد اغتيال أمير المؤمنين الشهيد

الثالث علي بن أبي طالب سنة 40 [660] (اغتاله عبد الرحمن بن ملجم الحروري عقب مؤامرة سياسية عقدت لذلك)، وتسليم الحسن السبط فيها. عند ذلك توجّهت الأنظار لتجديد البعث إلى إفريقية بعد أن تعطّل طوال عهد الانشقاق الذي استمرّ ثماني سنين، ولم يتفرّغ له معاوية إلا حين توطّدت له الخلافة. فقلّد ولاية مصر لمعاوية بن حُديج السّكوني في سنة 46 [666][15]. وكان من أشدّ أنصار بني أمية وأقواهم عزماً، وأوصاه بالحزم بإتمام أمر إفريقية. ولمّا قدم مصر سرّح (والي برقة) عقبة بن نافع[16] لتمهيد إفريقية واختبار أحوالها، فخرج إليها في تلك السنة على طريق سرت ومعه من القوّاد المعدودين بسر بن أبي أرطأة وسُحيم المرادي[17]، واستخلف على برقة زهير بن قيس البلوي[18] وسار في تعبئة صغيرة مؤلفة من 400 فارس و 400 بعير عليها 800 قربة ماء إلى غدامس حتى قدم ودّان، وكانت نقضت الصلح، ففتحها وأخذ من أهلها جزاء كان صالحهم عليه بسر في خروجه المتقدم مع عمرو بن العاص، ثم قصد جرمة قصبة فزّان، قطع إليها المسافة من ودّان في ثمان ليال فلما دنا منها بعث إلى أهلها ينذرهم ويدعوهم أن يرجعوا إلى الإسلام وكانوا قد ارتدّوا عنه. فأجابوه إلى ذلك وجنحوا إلى السلم، فحاسنهم، وتجنّب مضايقتهم في بلدهم، فأنزل عسكره على بعد ستة أميال

---

(15) يذكر المالكي أن معاوية بن حديج الكندي تقلّد ولاية مصر سنة 40 هـ وخرج من مصر لغزو إفريقية سنة 45 هـ (رياض النفوس ج 1 ص 17).

(16) ابن عبد الحكم، فتوح، ص 50.

(17) لعله يقصد: «شريك بن سمي» كما ورد في المرجع السابق.

(18) المرجع المذكور، ص 51.

ثم تحوّل عنهم إلى قصور فزّان فحطّ عليها إلى أن أسلمت وخلف فيهم من يعلّمهم أحكام دينهم، ثم مضى إلى جاوان[19]، وهو قصر عظيم على رأس المفازة فوق جبل عُرّ مضى إليه في خمس عشرة ليلة، فضرب عليه الحصار شهراً كاملاً دون أن يصيب منه منالاً. فعدل عنه مؤقّتاً، ومضى إلى قصور كوراف فاستولى عليها قصراً قصراً، وفرض على أهلها جزاء لما أبوا الإسلام، ثم عاد إلى قصر جاوان فخرّبه. ولم يعرض له ليُوهم أهلّه بأنه لا يريدهم. ومضى إلى سبيله مسير ثلاثة أيام في سبسب قفر لا ماء فيه حتى أدركهم العطش وكاد يهلكهم، فنزل بعسكره وصلّى بهم صلاة الاستسقاء، فاستجيب لهم في تلك الساعة، فقد أبصر عقبة فرسه يضرب بحافرة الأرض حتى كشف لهم عن صفا به نزيز، فصاح عقبة في الجند أن احتفروا في هذا المكان، فاحتفروا في موضع النزيز فظهر منه نبع غزير، فشربوا منه عللاً ونهلاً وملأوا قربهم ووقاهم الله بذلك شرّ العطش، فشدّوا رحالهم وعادوا إلى جاوان من غير طريقهم، فلم يشعر بهم أهلها حتى أكبوا عليهم بالليل وهم غارّون في منازلهم، فالتزموا الطاعة، وقبلوا الإسلام، فعفا عنهم عقبة وترك لهم من يفقّههم في دينهم ثم كرّ راجعاً إلى زويلة، بعد أن دوّخ الصحراء ورفع في ربوعها لواء الإسلام دون إسالة الدماء.

قدوم معاوية بن خُدَيْج مع الحملة الرابعة إلى فتح إفريقية:

لما قفل عقبة بن نافع الفهري من حملته التمهيدية في الصحراء الواقعة بين طرابلس وإفريقية كتب رسالة بمشاهده فيها

(19) وردت في نفس المرجع (ص 52) تحت اسم «خاوار».

إلى معاوية بن حديج وهو بدوره بعثها إلى أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان، يرى رأيه فيها. فلما وقف عليها كتب إلى عامل مصر يأمره بالخروج إلى إفريقية، فخرج إليها في عشرة آلاف مقاتل[20] ومعه من الأكابر عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص[21]. فسلك بهم الطريق التي خطّطها له عقبة إلى أن خرج إلى تِكْران وهي بلاد واقعة قرب سبيبة، فنزل بموضع يسمّى القرن[22] من جبل وسلات، وهو بمثابة معقل طبيعي للجنود، فعسكر به، وابتنى منازل من الطين للجنود. وبعد أن استجم الراحة، بلغه أن قيصر الروم، لما علم بتوجّهه إلى إفريقية بعث أسطولاً عظيماً عليه 30.000 مقاتل مدداً لسبستيان عامله على قرطاجنة، فكان يتعقّب المسلمين إلى أن بلغ ساحل سوسة. فنهد معاوية بن حديج للقائهم عبد الله بن الزبير في الفرسان، فخرجوا يتسابقون إليهم حتى أشرفوا على القلعة وهي على شرف عال يتنظر منه إلى البحر وهي منه على نحو اثني عشر ميلاً فعرض لهم السكان بالتسليم والطاعة.

---

(20) يذكر ابن عذاري (ج 1 ص 13) هذا الرقم نقلاً عن إبراهيم بن القاسم، ولكنه ينسب الغزوة إلى عقبة. انظر أيضاً، ابن الأثير ج 3 ص 386، ورياض النفوس ج 1 ص 18.

(21) يضيف المالكي إلى هؤلاء: «الأكدر بن حمام اللخمي وكريب بن أبرهة بن الصباح وخالد بن ثابت الفهمي وأشراف من جند مصر» رياض النفوس ج 1 ص 18.

(22) يذكر المالكي في رياض النفوس (ج 1 ص 18)، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص 48) أن معاوية بن حديج مر بالقيروان قبل أن يعسكر في «القرن».

ولما بلغ نقبور [Nicéphore] بطريق الروم قدوم المسلمين للقائه تهيّبهم وأمر جنوده بالتربّص على الساحل، فتقدم إليهم عبد الله بن الزبير إلى أن قارب أبواب المدينة فأدركتهم عليها صلاة العصر فترجلوا عن خيولهم، وصلّى بهم عبد الله وكانت تبدو عليهم علائم الاستخفاف بالعدوّ، وكان الروم ينظرون إليهم بإعجاب شديد ويحسبون صلاتهم ضرباً من تمارين القتال، وهم يتهامسون بالحديث عن نظامهم وبسالتهم، وكانوا على مرمى أسهم منهم، فتشجّعوا رغم اضطرابهم وزحفوا إليهم والمسلمون مقبلون على صلاتهم لا يقطعونها ولا ينظرون إليهم كأنهم يطلبون غيرهم، حتى إذا فرغوا من أدائها علوا خيولهم وطاروا كالعقبان القَرِمة تلاحق الطرائد. ولما التقت الوجوه بالوجوه، وقف الروم مشدوهين فشدّ عليهم المسلمين شدّة واحدة أفرغت الرعب في نفوسهم فولّوا مدبرين على أعقابهم، لا يلوون على شيء ولم تعصمهم من سيوف المؤمنين غير أبواب المدينة فدخلوها وغلقوها على أنفسهم ولولاها لقطعتهم السيوف وابتلعتهم أمواج البحر من الفزع الذي أصابهم. فحاصرهم المسلمون على المدينة أياماً، وأسلمها أهاليها للمسلمين، فدخلوها ظافرين فائزين وكان دخولها فتحاً عظيماً.

فتــح جلــولاء:

لم يكن فتح جلولاء[23] أقلّ من فتح سوسة ولا دونها وقعاً

(23) جلّولا، اسم لمدينة كانت تبعد عن القيروان بأربعة وعشرين ميلاً تقريباً، وهي الآن خراب ويعرف مكانها بعين جلّولا (ح، ح، عبد الوهاب).

في نفوس الروم وهي من أهمّ المراكز التي لهم في الوسط بعد خروج سبيطلة. فقد سيّر إليها معاوية بن حديج جند المدينة وهم ألف فارس[24] بقيادة عبد الملك بن مروان، وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من موضع القيروان، فحاصرها أيّاماً وضيّق عليها، وجرت للمسلمين وقائع كانت من أمثلة البطولة التي تحدثت عنها كتب السير. قالت: إن عبد الملك كان يقاتلهم بالهجوم على أبواب المدينة صدر النهار، فإذا مال الفيء انصرف عنهم لكي يستدرجهم إلى الخروج، لكنهم لا يخرجون.

فقاتلهم يوماً على عادته، ولما انصرف ذكر لأصحابه أنه نسي فأسه معلّقاً بشجرة في المدينة، فعاد إليها بمفرده فإذا به يرى جانباً متصدّعاً من السور، وشيك الوقوع، فصاح في أثر الجيش، فتراجعوا إليه، فرأوا غبرة شديدة في ذلك الموضع، فظنّوا العدوّ قد ضرب في ساقتهم، فكرّوا على المدينة ودخلوا من تلك الثلمة[25]. وقدم أهلها طاعتهم للبطل العظيم بعد الامتناع الشديد وسلّموا له المدينة.

ولما تمّ الفتح كتب عبد الملك إلى معاوية بن حديج يستأذنه في قسمة المغانم، فكتب إليه أن يقسم بين الناس بالسويّة، للراجل مائتا درهم وللفارس 400 درهم، ويقول المؤرّخون إنّ عبد الملك لم يرضَ بذلك، ولكنه باشر القسمة[26].

(24) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 48.
(25) ابن عذاري، ج 1 ص 11.
(26) نفس المرجع، ص 12.

التنبـؤ بخلافة عبد الملك:

دخل حَنَش الصنعاني[27] على عبـد الملك بعد واقعـة جلولاء فوجده مكتئباً. فقال له: ما خطبك أيها الأمير؟ فقال عبد الملك: إن الأمير يتجهمني ولا يقبل عليّ وأراني أبعد قريش مجلساً منه...! فقال له حنش: لا تغتمّ فوالله لتلينّ الخلافة، وليصيرنّ هذا الأمر إليك.

فلمّا أفضت الخلافة إلى عبد الملك، وأخرج الحجّاج لقتال ابن الزبير، أُخِذ حنش الصنعاني أسيراً، فبعث به إلى عبد الملك ليرى رأيه فيه، وحين مثل بين يديه سأله: ألست أنت الذي بشّرني بالخلافة يوم جلولاء؟ فقال حنش: بلى يا أمير المؤمنين، قال: فلم ملت عنّي إلى ابن الزبير؟ قال حنش: رأيته يـريد الله، ورأيتـك تريـد الملك، فملت إليه[28]. فضحك عبد الملك، وعفا عنه، وأسنى منزلته وما زال أثيراً عنده رغم انحرافه عنه.

وبعد أن تمّ للمسلمين فتح بلاد الساحل وقسم من الوسط والجنوب تحرّك معاوية بن حديج إلى أطراف البلاد داعياً وفاتحاً إلى أن وصل بنزرت[29]، فشذ عبد الملك عن الجند، فمر بامرأة

---

(27) هو حنش بن عبد الله الصنعاني من أفاضل التابعين، ولد بصنعاء وشهد غزو إفريقيّة وفتح الأندلس مع موسى بن نصير، ثم رجع لسكنى القيروان وبها توفّي (سنة 1000) وقبره مشهـور حذو ضـريح أبي زمعـة البلوي (ح. ح. عبد الوهاب).

(28) «رأيته يرفع الله، وأنت ترفع الدنيا، فلذلك ملت إليه». ابن عـذاري، ج 1 ص 12.

(29) رياض النفوس، ج 1 ص 19.

روميّة فتقبّلته وأكرمته حتى لحق بالجند، ولم يَرَ في طريقه كيداً وكانت الطريق محفوفة بالأعداء، فحفظ لتلك المرأة هذه اليد ولم ينسها لها. حتى إذا واتته الخلافة كتب إلى حسّان بن النعمان عامله على إفريقيّة بمكافأتها والبرّ بها والإحسان إلى أهلها، فأسنى جائزتهم وأسدى للمرأة معروفاً كثيراً.

فتح جزيرة جربة:

لما استولى معاوية بن حديج على مدينة بنزرت وهي من أهمّ الثغور الإفريقية، أراد أن يتقبّض على جزيرة جربة لصيانة سواحل البلاد من مراكب الروم ودفع غاراتهم عليها، فكتب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري[30] عامله على طرابلس: أن يخرج بالأسطول لغزو جزيرة جربة وإجلاء من بها من الروم. فهاجمها سنة 47 [667] وافتكّها عنوة من أيديهم، وسهل على المسلمين أن يراقبوا حركات أعدائهم في البحر مراقبة صارمة.

قفول معاوية بن حديج عن إفريقية بدعوة من أمير المؤمنين:

بينما كانت الفتوحات المتعاقبة في إفريقية تكلّل رأس معاوية بن حديج، إذ بكتاب من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان يوافيه بالدعوة إلى الشام، فغادر البلاد من فوره وتركها معرّضة لأخطار جسيمة لا يمكن تلافيها، أقلّها جنوح البربر لشقّ عصا الطاعة كما حدث ذلك فعلاً إثر خروجه، وهو لم يزل سرّاً غامضاً لم يكشف عنه التاريخ. وكلّ ما جاء في ذلك أن أمير

(30) البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى، بغداد، ص 19.

المؤمنين دعاه واحتفى بمقدمه وأسنى منزلته ثم صرفه عن إفريقية وأقرّه على ولايته في مصر. وقد تفرّد ابن الأثير عن بقيّة المؤرخين بوصف تلك الحفاوة بعبارة موجزة بليغة، فقال: أمر معاوية أن تزيّن له الطرقات بقباب من الريحان (أقواس النصر)، تنويهاً بشأنه وإكباراً لمقامه. أما سبب تنحيته عن الولاية وتركها معرّضة للفوضى فلم يتعرض لذكره أحد.

2 ـ فتوحات عقبة بن نافع وأبي المهاجر

انتداب عقبة بن نافع الفهري للفتح الخامس في إفريقية:

لما صرف أمير المؤمنين ابن حديج عن هذه الولاية عيّن مكانه عقبة بن نافع الفهري (عامل برقة وزويلة) وأمدّه بعشرة آلاف فارس فخرج إليها سنة 50 [670][31]. ولما وصل علم أن كثيرين ممّن أسلم من الأفارقة ارتدّوا وعاثوا في البلاد بالفساد، فساءه ذلك، وشمّر على ساعد الجدّ لإرجاعهم إلى الحقّ وحملهم على الاهتداء برسالة الإسلام القائمة على تحرير المخلوق من العبادة لغير الخالق، وجعل الناس سواسية في الحقوق والواجبات. فأعاد فتح ودّان وقفصة وقسطيلية ونفطة وتقيوس والحمة. واستنزل قبائل كثيرة من البربر على الطاعة، منها لواتة ولماثة ونفوسة ومزّاتة وزواغة وزوارة، ولم يُفلت أحداً من أهل القرى والإخصاص دون أن يدعوه إلى الإسلام، فأسلم

(31) البلاذري، فتوح البلدان، ص 228، وابن عذاري ج 1 ص 13. ويذكر ابن عبد الحكم سنة 46 هـ (فتوح مصر ص 50) وكذلك ابن الأثير، ج 3 ص 387. ويذكر المالكي في رياض النفوس سنة 57 (وهو تاريخ مستبعد جداً).

على يده خلق كثير، بحيث جعل في كلّ كورة ودوار عدداً لا يستهان به من المسلمين، وأشفق من أن يدعهم لأنفسهم خاضعين لسلطة الفتح، وفي الوقت نفسه معرّضين لمختلف الدعايات، كما كانوا من قبل، فأمدّهم بالمعلّمين والمرشدين ليفقّهوهم في الدين. لكنه أدرك أنّ ذلك لا يكفي وحده لهدايتهم ما لم يقترن بوجود مؤسّسات اجتماعية للمسلمين يفزعون إليها عند الحاجة، يقتبسون منها معنويّات الإسلام وتقاليده. فجعل يفكّر في تحقيق هذه الرغبة العظيمة.

إنشاء مدينة القيروان والغرض منها:

بعد أن استقرّ عزم عقبة على إيجاد ما ذكرنا، دعا للمشورة في ذلك ذوي الرأي والمكانة من القوّاد ووجوه المسلمين وخطب فيهم بالمشروع خطبة قيّمة وصف فيها نفسيّة الأفارقة وصفاً بليغاً قال فيها: إن أهل هذه البلاد ضعفاء الأخلاق تنقصهم العزيمة، إذا عضّهم السيف أطاعوا، وإذا رفع عنهم عصوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه من عاداتهم وأديانهم، ولست أرى أن ينزل المسلمون بين أظهرهم ثم يرتحلوا عنهم رأياً سديداً مسلماً[32]، بل لا بدّ من إقرارهم لتمكين الإسلام في البلاد. وقد رأيت في ذلك أن أبني هنا مدينة للمسلمين تكون عماداً لهم في أمورهم، وملاذاً يصيرون إليه.

فاستصوب الحاضرون هذا الرأي ثم صاروا يفتّشون على مكان صالح لإقامة المدينة، فخرجوا يرودون الجهات حتى وجدوا

(32) ابن عذاري ج 1 ص 13، وابن الأثير ج 3 ص 387.

موضع القيروان. وكان أجمة عظيمة في طرف البـرّ، وغيضة شعراء لا تشقّها الحيّات من تشابك أغصانها وكثرة نباتاتها. فوقع المكان من نفس عقبة موقعاً عظيماً وقال في اختياره على غيره: إنه واقع في الصحراء البعيدة عن البحر، فلا تطرقه مراكب الروم، ولا تملكه علينا[33]. ثم أمر برسم الخطط بعـد قلع الأشجار وتنظيفها. فبنيت دار الإمارة والمسجد الجامع، وطفق الناس يعمّرون حولها، وما أتت عليها سنـة 55 [674] حتى استقامت وعمّرت ودعيت باسم القيروان[34]، وبني حولها سور حصين دوره 13600 ذراع[35]، ثم جعلها يوم تمّت عاصمة للبلاد ومركزاً للجنود. وساس بها البلاد الإفريقية سياسة حازمة تدور بين الشدّة واللين. فخضع له السكان عن رغبة ورهبة. ثم ناصب الروم فافتكّ منهم بلاداً كثيرة كانت وِجاراً لهم في نوميديا (الـزاب). وبذلك اتّسعت خطّة المسلمين وأقبلوا على التعمير والتكسّب وصارت البلاد كلّها موطناً لهم فألفهم الأفارقة وجعلوا يقلّدونهم في آدابهم وأخلاقهم وشعائـرهم، ممّا جعلهم ينصـرفون عن الروم.

هفوة عزل عقبة عن ولاية إفريقية وتولية أبي المهاجر دينار:

لا شبهة أن الإسلام لم يستقرّ في إفريقية منذ طرقها أوّل

(33) ابن عذاري ج 1 ص 14، وابن الأثير ج 3 ص 19، وابن عبد الحكم ص 54، والبلاذري ص 328، ورياض النفوس ج 1 ص 20.

(34) القيروان، لفظ فارسي دخيل في العربية ومعناه محط الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب (ح. ح. عبد الوهاب).

(35) ابن عذاري، ج 1 ص 16.

فاتح عربي إلّا يوم تقلّد ولايتها عقبة بن نافع الفهري. ولا يوجد دليل على استقامة الدول العظيمة القائمة على نزعة الشعوب من إفساح المجال للعبقريّين من رجالها ذوي المواهب النادرة أمثال عقبة لتنفيذ ما وسعته أدمغتهم الكبيرة من الخطط العظيمة للفتح والإصلاح. وغير مفهوم بالمرّة تنحية رجل في بصيرته عن الولاية بالصورة التي وقعت وهي أشدّ على النفوس مما جرى على سلفه ابن حديج، بعد أن ظهر من مقدرته وذكائه وحسن تصرّفه في إدارة الأعمال الخارقة ما يستحقّ به الإعجاب لا العزل. ذلك مع العلم بأن الدولة الأموية كانت منفردة بتقدير مواهب رجالها، حريصة على الانتفاع بخصائصهم (بعد دولة الخلفاء الراشدين). ولكن مهما تساءلنا عن تلك الأحجية التاريخية فلسنا نجد عنها جواباً مرضياً. لذلك يحسن بنا في هذا الموقف الصعب أن نرسل الكلام على عواهنه ونكتفي بما حكاه المؤرخون عن ذلك، مع إضافة ملاحظة صغيرة لا تخرج بنا عن الصدد. قالوا:

لما تقلّد مسلم بن مخلد الأنصاري ولاية مصر، أمر بعزل عقبة بن نافع الفهري عن إفريقيّة، وقلدها لمولاه أبي المهاجر وقالوا عن ذلك بأنه لما قدم القيروان أبى أن ينزلها، وشرع في إقامة مدينة أخرى سمّاها تكران (المعسكر الذي أقامه معاوية بن حديج لجنوده) وأمر بحبس عقبة والتضييق عليه[36]؟!.

ذلك كان مآل عقبة وجزاءه على ما أبداه من نشاط خارق في القيام بمهمته العظيمة التي شهدت له بها إفريقيّة، واهتزّت له

---

(36) ابن الأثير، ج 3 ص 388 عن رواية للواقدي، ورياض النفوس ج 1 ص 21.

أعطاف التاريخ. الواقع أنه كان تصرّفاً غير لائق، وقد يحتار الكاتب اللبق في من يلقي عليه تبعته. أيلقيها على مسلم بن مخلد وهو الآمر، أم على أبي المهاجر وهو المنفّذ؟ والأقرب للواقع إلقاؤها على الثاني لأن الشاهد قد يرى ما لا يراه الغائب. وهذا قد يشكل أيضاً، لما وضح من سيرة أبي المهاجر وهي دالّة على طيب سريرته، ونقاوة عنصره، وإنه في الواقع رجل مبارك، محمود النقيبة، صادق العزيمة، رشيد الأمر. مضى في خطته قُدُماً على غرار عقبة في الفتوح وتركيز أقدام المسلمين في إفريقية وبلاد المغرب. لذلك لا ينبغي لنا التسرّع في اتّهامه، ورميه بالضغينة في حقّ سلفه. وغاية ما يمكن أن يقال عنه: إنه أقدم على التنكّر لزميله وهو متأثّر ببعض السعايات من غير تبصّر ولا سوء نيّة. والعبرة في أعمال الرجال إنما تكون بمقدار ما يحدثونه من الأثر في الأعمال الكبيرة لا بالأغلاط الصغيرة التي قد تسقط منهم عفواً، ومهما بولغ في تقديرها فإنها لا تكون في صحائفهم إلا ضرباً من اللّمم[37].

فقد رأينا أبا المهاجر يبدأ بالعمل وهو لم يلق عنه وعثاء السفر بإشغال الروم مباشرة في المنطقة التي يحكمونها في إفريقية للضغط عليهم والإحداق بمدينة قرطاجنة، ولم يقدم على ذلك فاتح قبله. فقد ندب لهم حَنَش الصنعاني وسيّره لفتح جزيرة رأس أدار التي سمّيت جزيرة (شريك) باسم أوّل عامل لها شريك ابن قرّة العبسي، وهي المعروفة لدينا اليوم بالوطن القبلي، ثم

(37) اللَّمَم، صغار الذنوب.

رأيناه أيضاً يخرج بنفسه مع بقيّة الجيش للفتح في نوميديا فيدوّخ ميلة ثم يسير في سبيل الله إلى أن يبلغ تلمسان فيواقع عليها أميرها كسيلة بن لمزم ومعه أنجاد القبائل من البربر، الأَوْرُبّية والبرانس، فيأسر قريعه ثم يجعله يسلم على يديه، ومعه خلق كثير من أتباعه وقبيله.

ونحن إذا تبيّنا هذه الشواهد القاطعة عن أعمال أبي المهاجر الجليلة، لا يسعنا سوى الجزم برفعة مقداره وعمله المشكور وأنه كان في سوية عقبة، وأن عمل كل واحد منهما كان متمّماً للآخر، فهما كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها عدا ما بدا من شذوذ أبي المهاجر في انصرافه عن القيروان وأمره بتعمير تِكْرَان.

وغايتنا من هذه المقارنة الوديعة أن نثبت في هذا البحث التاريخي بأن مصلحة الإسلام لم تخسر شيئاً باعتقال عقبة، وإنما الخسارة كانت في الجانب الأدبي من إضعاف روح التنشيط في العاملين ليس إلّا، وهذا واقع ليس له من دافع، وإن كان هذا الضعف غير متصوّر أن ينال من نفس عقبة وهي قبس من فيض الله.

أمر أمير المؤمنين بسراح عقبة ودعوته إلى دمشق:

لم يكن عقبة من الرجال المغمورين الذين لا يؤبه لهم، أو ممن تذيب سمعتهم الوشايات، بل هو من طراز آخر، طراز أولئك الأفذاذ الذين يكون لوجودهم دويّ في الأذهان، فلا غرابة إذن أن يكون موضوع اهتمام أمير المؤمنين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. فقد نقل المؤرخون أنه لما بلغه ما أصاب عقبة،

كتب إلى أبي المهاجر يأمره بفكّ اعتقاله، وإرساله مبجّلاً إلى الشام فوراً من غير إمهال. فصدع بالأمر[38].

ولما وصل عقبة دمشق تلقّاه يزيد بالحفاوة والإكرام، وبعد أن تحدّث إليه في شؤون إفريقيّة أعاده إلى الولاية، وحكّمه في أبي المهاجر وهي حسنة ليزيد تدلّ على معرفته بمنازل الرجال، وتقدير أعمالهم المرتبطة بمصير الدولة، ولم يكن من أولئك الرعاديد الضعفاء الذين تلتصق مسامعهم بالنمائم والوشايات فلا تصدر عنهم صالحة للبلاد.

رجوع عقبة إلى ولايته على إفريقية:

غادر عقبة دمشق لاحقاً بإفريقية، فجدّ في السير حتى دخل القيروان سنة 64 [683][39]. فتقبّض على أبي المهاجر وأبى أن يسجنه وجعله من ملازميه[40] وأمر بإعادة العاصمة إلى القيروان والإعراض عن تكران.

ولما تمهّدت له الأمور وثب للفتح، فدعا إليه زهير بن قيس[41]، واستخلفه على القيروان، وترك له كفايته من الجنود

---

(38) تتفق جلّ المصادر على أن معاوية هو الذي كتب إلى أبي المهاجر (ابن عبد الحكم ص 56، والمالكي، رياض النفوس ج 1 ص 21، وابن ناجي، معالم الإيمان، ج 1 ص 43). ولم ينسب ذلك إلى يزيد بن معاوية، إلاّ ابن الأثير (الكامل، ج 3 ص 388).

(39) تشير المصادر إلى أن قدوم عقبة إلى القيروان كان في سنة 62 هـ (ابن الأثير ج 4 ص 88، والمالكي ج 1 ص 22، وابن ناجي ج 1 ص 43)

(40) تذكر المصادر أنه أساء معاملته وسجنه (ابن الأثير، المرجع السابق، وابن عبد الحكم ص 58، والمالكي ج 1 ص 22، وابن ناجي ج 1 ص 43).

(41) ابن الأثير ج 4 ص 88.

وخاطبه بمحضر بنيه وقال: إني بعت نفسي من الله عزّ وجلّ، فلا زلت أجاهد حتى أخلص إفريقية من مخالب الكفر وإرجاعها دار إسلام، أو أقضي دون ذلك. وأوصاه بإتمام الإصلاح الذي شرع فيه، من تعبيد الطرق، وبناء المعابد، وتأمين السبل، وإقامة المساجد، وتفقيه الدهماء، وتقليد الأعمال لذوي البصائر، والاستعانة بخيرة المجرّبين منهم.

ثم ودّعهم وخرج في عسكر عظيم لدكّ بأس الثوار[42]. فقصد مدينة باغاية[43]، وقد احتشد فيها خلق كثير من الروم والبربر لصدّه عنها. وحين علموا بمقدمه تحصّنوا فيها، فكانوا يخرجون إليه في جموعهم وهو لا يفتأ عن قتالهم حتى أصابهم الفشل، وغلبوا على أمرهم فملك عاصمة الدوناتوسيّين ثم سار منها إلى لمبس [Lambèse] وهي من المدن البيزنطية وتعرف لهذا العهد بتازروت فأبلى فيها، وهزم من كان عليها من الروم والبربر وأصاب منهم غنائم كثيرة. ثم انتقل في تعبئته إلى أرْبة قصبة نوميدية (الزاب) فوصلها وقت الأصيل فتحصّن منه أهلها، ولما أصبحوا هاجمهم وضيّق عليهم، ففرّ منه أكثرهم إلى جبال أوراس، بعد أن دخل المدينة عنوة ثم لحق بهم وضيّق عليهم المنافذ دون أن يحاول إبادتهم حتى ظفر بهم وأقبلوا طائعين،

---

(42) ابن الأثير ج 4 ص 88-91، والمالكي ج 1 ص 23-25، وابن ناجي ص 43-49.

(43) باغاية مدينة مشهورة من مدن الزاب، اشتهرت بالمؤتمر الذي عقدته فيها شيعة دوناتوس سنة 394 م وهي مذهب من المذاهب النصرانية اعتنقه البربر لمعارضة سلطة الكنيسة الرومانية وقد تخربت في القرن الرابع من الهجرة. (المؤلف).

فأمنهم ثم سار إلى قسنطينـة فنازلها واستولى عليها. وطفق بعد ذلك يتنقل في البلاد التي لم يطأها سلفه وهي تأتيه بالطاعة والتسليم إلى أن قارب تِيهَرْت، فخافه من كان بها من الروم فتحصنوا منه، واستنجدوا بمن جاورهم من البربر فأنجدوهم واجتمع لهم جند كثيف فتقدم للقائهم وأذاقهم بأساً شديداً، وهو يعاودهم الكرّة بعد الكرّة حتى ظهر عليهم، ولكن بعد خراب المدينة وانطماس معالمها. ثم تحوّل إلى تلمسان وكانت محافظة على صلحها مع سلفه أبي المهاجر دينار فأقرّها عليه. ولما نفض المغرب الأوسط على رؤوس الثوار من الـروم، وانتزعـه من أيديهم، قصد بلاد المغرب الأقصى فتقصّاه داراً داراً إلى أن دخل السوس الأدنى (الريف) وأناخ على سبتة فتلقاه بطريقها الكونت أليان [Julien] حاكم الجزيرة الخضراء في الأندلس بالصلح وعرض الجزاء، فصالحه، وواتته البلاد بالطاعة والرضا. وكان الكونت داهياً خبيـراً واثقاً من مصير بلاده للعرب، ولا سبيل لردّ غارتهم عليها. وإنما كان همّه صرفهم عنها إلى أجل معدود، فإنه لما سأله عقبة عن رأيه في الجواز إليها عظم عليه أمرها وهوّن من شأن بلاد البربر ليغريه بها، فقال: إن فيها بشراً كثيراً، وهم على غير دين النصرانية، وأطوع ما يكونون لغالب. فقبل عقبة مشورته وتحوّل عن سبتة وصار إلى خوض بقية بلاد السوس الأدنى، والبربر يقابلونه بجموعهم وإحلاس حروبهم وهو يحـرز الفوز عليهم والظفر بهم حتى بلغ فرضة طنجة فاستولى عليها ثم قصد تاجرة قصبة البلاد، وسيّر منها سراياه لمناجزة أطرافها فدوّخوها صقعاً بعد صقع إلى أن تمّ لهم الاستيلاء عليها.

ولما فرغ من السوس الأدنى ألوى عنانه إلى السوس الأقصى ففتح طرفلة ثم غانة ثم مدينة ولّيلي، ثم مدينة نوفيس، عاصمة المصامدة وكانت من أمنع بلاد البربر، فحاصرها مدّة، وقاتلهم على جبال دورية بمساعدة زناتة حتى انتصر عليهم واستولى على مدينتهم عنوة ثم سار إلى لمتونة فأتته قبائلها طائعة، فعصم دماءهم وشملها بعطفه وبرّه. وما زال يواصل فتوحاته إلى درعة ومليان وهي آخر فُرض المغرب على المحيط. فأقحم فيه فرسه وأخذ يناجي ربّه مناجاة الأتقياء المتبتّلين وهو يقول: اللهم إنك تعلم أني أريد أن لا يعبد على وجه الأرض أحد سواك، ولو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لوطئتها، أذكر فيها اسمك العليّ العظيم، اللهم اشهد أني قد بلغت عذراً.

وبعد أن تمت لعقبة هذه الانتصارات الهائلة في البلاد المغربية وطواها بيمينه، وأقام فيها ميزان العدالة بالقسط، كرّ راجعاً إلى إفريقية وقد أذاق الأهالي الذين أنقذهم من سلطة الروم طعم الحرية وأطلق ألسنتهم المعقدة بذكر الله وطهرها من الرطانة بالأصنام والأوثان. فواصل السير إلى طبنة وهي على ثماني مراحل من القيروان[44]. فوقف هناك وأمر الجنود أن يتقدموه إلى القيروان فوجاً بعد فوج وواعدهم باللحاق بهم وهو مطمئن لولاء الأفارقة الذين استسلموا له وأحبّهم ورفع عن أعناقهم الإصر والأغلال. ولكن الله كتب على كلّ ذي نفس شريرة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن إليها.

(44) ثمانية أيام حسب رواية ابن ناجي (ج 1 ص 47)، وابن الأثير (ج 4 ص 90).

خيانة كسيلة زعيم قبيلتي الأوربة والبرانس:

دفع عقبة جحافله إلى القيروان، وتخلّف عنهم في نحو ثلاثمائة نفر من خاصّته وأتباعه، ومعهم أبو المهاجر دينار. ومما امتاز به عقبة من الخصال أنه كان كمياً صادقاً لا يخاف ولا يمين. فانتقل بمن رافقه إلى تهودا، فلما رأته فلول الناقمين الذين أبقى مُهنده عليهم شفقة بهم ورحمة وهو في تلك القلّة، ساورهم الطمع في اغتياله، فغلقوا في وجهه أبواب الحصن وقصدوا له، وكان كسيلة بن لمزم يمشي في ركابه والخيانة والغدر تتراكضان في نفسه وقد وُجد بين مؤرخينا من التمس له في ذلك عذراً، فقال إن عقبة كان يستخفّ به، وهو أكبر أمير في بلاده[45] أظهر الإسلام على يد أبي المهاجر وكان عقبة يروّضه بذلك على الطاعة والامتثال فازورّ منه كسيلة. فلما أحسّ بالشرّ منه أبو المهاجر نصح عقبة وقال له داره ولا تهنه، فإن الرجل قريب عهد بالإسلام، فأعرض عنه عقبة، ثم عاوده مرّة أخرى فقال: أما وقد أبيت الإصغاء لنصيحتي فعاجله قبل أن يجتمع إليه قومه ويثب بهم عليك، فطلبه عقبة ففرّ عنه. ولما كان على مقربة تهودا من ناحية بسكرة خرج عليه فأحسّ منه بالشرّ، فالتفت عقبة إلى أبي المهاجر وقال له: فز بنفسك والحق بمأمنك وقم بعدي بأمور المسلمين، وأنا صامد لقتال هؤلاء، وأرجو الفوز بالشهادة. فقال له أبو المهاجر: وأنا أريد أن أفوز بها أيضاً، فأظهر بهذا الموقف البريء المشرّف منتهى الوفاء والبسالة رغم ما قيل بحقّه بأنه كان يجد في نفسه موجدة على عقبة بسبب المنافسة على الولاية

(45) ابن الأثير ج 4 ص 90، والمالكي ج 1 ص 26، وابن ناجي ج 1 ص 48.

وسرى ذلك إلى أوهام الناس وهو خلاف الواقع، فإن هؤلاء الرجال الكبار الذين رفعوا سمك الإسلام في العالم أطهر من أن يلتاثوا بهذه الشوائب[46].

اغتيال عقبة وأبي المهاجر ومن معهما من الأتباع:

اغتنم كسيلة فرصة قلّة من كان مع عقبة من الحاشية والأتباع للانتقام وهو محاط بالجموع الكثيرة من قومه مع من ظاهره من الروم وأدرك عقبة أن لا قبل له بهم، وكان في وسعه أن يفرّ من لقائهم وينجو من القتل لو كان جباناً لا يكره الفرار، لكنّه فارس مغوار فطر على الجلاد والقراع لا يرضى بالفرار من أيّ عدوّ كان وهو قائد جنود الفتح الذي ما ألف الهزيمة ولا عرفها. لذلك صمّم على الاستقتال وهو موقن أن الأجل بيد الله والحذر لا يدفع القدر، وتبعه في ذلك أصحابه. فتقدموا وكسروا أغماد سيوفهم حتى لا تكون غنيمة للأعداء. وما أشدّ على الأبطال أن تكون سيوفهم غنيمة من بعدهم لأعدائهم، ثم تقدّموا فرحين إلى القتال فجاولوهم ساعة ولكن الكثرة تغلّبت على الشجاعة، فوقع عقبة ومن معه صرعى في الميدان ولم يفلت منهم إلا نفر قليل لاذوا بالفرار مع محمد بن أوس الأنصاري فأسرهم الأفارقة[47]، وخلصهم من أيديهم صاحب قفصة وبعثهم إلى زهير بن قيس، خليفة عقبة على القيروان، فكانت هذه الواقعة من أشأم الوقائع على المسلمين في ما كابدوه من

(46) ابن الأثير ج 4 ص 90، والمالكي ج 1 ص 27، وابن ناجي ج 1 ص 49.

(47) يؤكد ابن الأثير أنهم أسروا بعد موت البقية ولم يشر إلى هروبهم، (ج 4 ص 91).

معضلات الفتوح في إفريقيّة، فقد آلت إلى تخلّيهم عنها وارتداد أكثر الذين أسلموا من البربر.

3 ـ ثـورة البربــر

وقوع الخلاف بين أكابر المسلمين في الثأر لعقبة وقفولهم إلى المشرق:

اتصلت القيروان في ساعة نحس من ليلة ضريرة النجم بأنباء هذه الفاجعة فحدث من جرائها ارتباك عظيم في الآراء بين أمراء الجنود، وتحركت النخوة العسكرية في صدر زهير بن قيس للمطالبة بالثأر وقصاص القتلة الناكثين للعهود فخالفه في ذلك حنش الصنعاني معتذراً بقلّة المسلمين وكثرة الأعداء المتألبين مع كسيلة[48]. فأبى زهير أن يسمع لقوله وجمع أكابر الجنود للمداولة في الأمر. فقال: يا معشر المسلمين إنكم علمتم أن أصحابكم قد منّ الله عليهم بالشهادة وساروا إلى الجنة وأرى لكم أن تسلكوا سبيلهم أو يفتح الله بكم دون ذلك.

فردّ عليه حنش وكان مسموع الكلمة: والله ما نقبل لك قولاً ولا لك في أعناقنا ولاية ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم.

ثم خرج وجعل يستفزّ الناس لترك القيروان، وهو يقول لهم: من أراد منكم القفول إلى المشرق فليتبعني. فلبّاه وجوه الناس وخرجوا معه، ولم يبق مع زهير سوى الضعفة وأهل بيته.

(48) ابن الأثير ج 4 ص 91.

ولما رأى الجموع قد تسلّلت من حوله لم يطب له المقام فخرج في أثرهم ولحق بقصره في برقة[49]. لم يلبث زهير طويلاً في برقة حتى بلغه نعي يزيد بن معاوية، واضطراب المسلمين في من يولّونه الخلافة حين تخلّى عنها معاوية الأصغر بعد أن تقلّدها عقب وفاة أبيه.

كسيلة يغتصب لنفسه الولاية على إفريقية:

لا ريب أن كسيلة حين أقدم على انتكاثه وخيانته لعقبة كان يمنّي نفسه باغتصاب الولاية على إفريقية اعتماداً على مكانته من البربر وقدرته على اصطناع العرب بإظهاره الإسلام، وما كان يخشى منازعاً له بعد عقبة غير زهير بن قيس، ولما رحل إلى المشرق صفا له الأمر ولم يبق له معارض في الولاية، فاجتمعت عليه كلمة الأفارقة ولم يتخلّف أحد منهم، فأسرع بمن اختاره منهم إلى القيروان فدخلها في حفل عظيم ولم يبق بها من المسلمين غير أصحاب الأنفال والذراري، فصانعهم بالتأمين واستولى عليها. ودانت له جميع البلاد التي كان يتولاّها المسلمون فحكمها باسم البربر إلى أن وافاها زهير بن قيس وأعاد فتحها[50].

تعيين زهير بن قيس لإعادة فتح إفريقية وإنقاذها من يد كسيلة:

لما استقرّت الخلافة لعبد الملك بن مروان سنة 65 [684] وكان ممن اشترك في فتح إفريقيّة، وهو يعلم أهميّة منزلتها من

(49) ابن عذاري ج 1 ص 18.

(50) ابن الأثير ج 4 ص 91، وابن عذاري ج 1 ص 17-18.

بلاد العرب فأشار عليه أكابر المسلمين أن يعجل باستنقاذهـا وقصاص قتلة عقبة وأصحابه. فكتب بذلك إلى زهير بن قيس، وأمدّه بجيش ثمّ سرّحه سنة 66 [685] إلى إفريقيّة[51].

وحين علم كسيلة بمقدمه جمع إليه وجوه البربر والروم يستشيرهم في الأمر وقال: إني رأيت أن أخلي القيروان وأرحل إلى نمش[52] فأنزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين، ولهم علينا عهد لا نريد أن نخفره أو نغدر بهم. ونخاف إن نحن قاتلنا زهيراً عليها أن يثب هؤلاء من وراءنا فتكون الدائرة علينا. أما إذا نزلنـا نمش، فإننا نكون قد أمناهم، وقاتلنا زهيراً، فإن ظفرنا بجنوده تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا عنهم خطّ الرجعة بعد أن نكون قد قطعنا شأفتهم من البلاد. وإن ظفروا بنا تعلّقنا بالجبال ونجونا من غائلتهم، فطابقوه على ذلك.

رحل كسيلة إلى نمش وبلغ زهيراً خبر ارتحاله، فعدل عن دخول القيروان وأقام بظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح، وخرج في اليوم الرابع إلى نمش يريد كسيلة. فلما قاربه أمر جنوده بالنزول، وفي اليوم الثاني التقى الجمعان، ونزل بهما الضرّ في البلاد وكثر الارتياب إلى أن أيس الناس من الحياة وما زالوا كذلك جلّ النهـار. وفي آخره هبّت ريـاح النصر على المسلمين وانهزم كسيلة إلى نمش فأدركه ليوث المسلمين عليها

---

(51) جميع المصادر متّفقة على أن قدوم زهير بن قيس إلى إفريقية كان في سنة 69 هـ. (ابن الأثير ج 4 ص 91، وابن عذاري، وابن ناجي ج 1 ص 52، والمالكي ج 1 ص 30).

(52) اسمها «ممّش» في جميع الروايات (ابن الأثير ج 4 ص 92، والمالكي ج 1 ص 30، وابن ناجي ج 1 ص 52).

فقاتلوه إلى أن سقط تحت حوافر الخيل، فكان ذلك خير جزاء له على ما صنع بعقبة[53].

ثمّ أخذ المسلمون يطاردون من كانوا معه من فلول الروم والبربر حتى استأصلوهم وافتكّوا من أيديهم بلداناً كثيرة لم يطأوها قبلاً، منها الإربس والكاف وباجة. ومضى زهير يستردّ ما انسلخ من البلاد إلى أن بلغ وادي ملوية. ثم رجع إلى القيروان قرير العين، بما ناله من فتوح وفرح المسلمون بمقدمه الميمون، وتبادلوا التهاني، وطابت نفوسهم بعد اليأس وأقام بها سنة كاملة يرتّب شؤون المسلمين على الخطط التي وضعها عقبة، ويراقب حركات العصاة إلى أن عاد الأمن إلى قرابه وتوطّدت سلطة الإسلام في كلّ مكان. فأخذ يتأهّب للرحيل. والسبب في ذلك على ما رواه المؤرخون: أن زهيراً رأى بولايته ملكاً عظيماً لم يتسنّ له مع زهده وورعه وهو الناسك المقصور على محبّة الجهاد وملاقاة الأعداء لا يرى أن يعدل بذلك شيئاً، خصوصاً بعد أن علم بنزول الروم في برقة فتخلّى عن ولايته بعد أن مهّدها لمن سيخلفه وترك بها من الجنود ما يكفي لصيانتها ثم رجع إلى برقة يتعقّب الروم[54].

مقتل زهير بن قيس بأيدي الروم في برقة:

علم الروم بمسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة،

---

(53) ابن عبد الحكم ص 61-62، وابن الأثير ج 4 ص 92، وابن عـذاري ج 5 ص 20، والمالكي ج 1 ص 30، وابن ناجي ج 1 ص 53.

(54) ابن الأثير ج 4 ص 92، وابن عذاري ج 1 ص 20، والمالكي ج 1 ص 30، وابن ناجي ج 1 ص 53.

فاغتنموا فرصة خُلوّ ذلك المعقل من ذادته، فعوّلوا على إشغاله لقطع الصلة بين المشرق والمغرب ومنع المدد عن الجيوش الإسلامية الضاربة بإفريقية، ويظهر من ذلك أنهم كانوا على اتّفاق مع كسيلة ليمكنوه من الوقيعة بالعرب. فخرجوا بمراكبهم من جزيرة صقلية ونزلوا ببرقة يشنّون الغارة على من بها من المسلمين فأصابوا منهم سبياً كثيراً وقتلوا وانتهبوا ثم أقلعوا بغنائمهم، ووقفوا في البحر يرصدون المدد الذي عساه يأتيهم من البرّ. ومن المقدور أن زهيراً لما وصل إلى أَجْلَة ولم يجد به أحداً من الروم وبلغه ما صنعوا ببرقة، أمر جيشه بالمسير للقائهم من أقرب الطرق وبقي في ثلّة قليلة من الجنود سار بهم على جادة البحر إلى أن بلغ درنة[55]. ولما رآهم الروم طمعوا فيهم فنزلوا البرّ وهم في حفل عظيم فجعلوا يأسرون كل من لقيهم حتى سمع زهير غياث المسلمين وصراخهم ورآهم يسوقونهم كالأنعام إلى مراكبهم. فأبى عليه شممه أن يستعبدهم الروم دون أن يتقدم لإنقاذهم، أو يُقتَل في سبيلهم. فألوى عنان فرسه نحو الروم ونادى في أصحابه: النزال النزال. وكانوا كما وصفهم ابن عذاري المراكشي في تاريخه: من أشراف العابدين، ورؤساء المجاهدين، جلّهم من التابعين[56]، فالتحم بينهم القتال واستشهد المسلمون جميعاً وكان في مقدمتهم زهير، وغنم الروم ما كان معهم فنقلوه إلى مراكبهم وساروا إلى القسطنطينية حذراً

(55) درنة مدينة من أعمال برقة. (المؤلف).

(56) ابن الأثير ج 4 ص 92-93، وابن عذاري ج 1 ص 21، والمالكي ج 1 ص 30-31، وابن ناجي ج 1 ص 53-54 حسب رواية لأبي العرب التميمي.

من أن يدركهم الطلب. وكانت هذه الواقعة الموجعة خلال سنة 69 هـ [688].

ولما بلغ خبر هذه المحنة العظيمة إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان غمّته، وعظمت عليه لمكانة زهير من الفضل والدين. وكانت مصيبة المسلمين فيه مثل مصيبتهم في عقبة ولم يمنعهم من التعجيل بالثأر إلا الاضطرابات السياسية الحاصلة بالمشرق وتفرّق الكلمة على النزاع في الخلافة، كما سنبيّنه فيما بعد.

وقوع القلاقل في إفريقية وظهور الكاهنة عقب منصرف زهير إلى برقة:

لا جدال في أن زهيراً كان جندياً من جنود الله بمعنى الكلمة، نشأ في كنف عقبة بن نافع الفهري. لكنه كان ينقصه الاضطلاع بأعباء السياسة العليا والدربة على الاستقلال بالرأي في إدارة الممالك الواسعة، الواجب توفّرهما في قادة الفتح الباكر. لذلك شقّ عليه الاضطلاع بمنصب الحاكم الأعلى لإفريقيّة، وهي خطّة حازمة صعبة المراس، تستلزم جانباً وافراً من الدهاء والحنكة. وهذا شيء لا يتّفق إلا في النادر وطبيعة الجندي، أليف المغامرة وحليف الصرامة. ولتأصّل هذه الخلّة في زهير كنّا نراه يفضّل الجهاد على الولاية. لذلك تخلّى عن حكم إفريقية مختاراً دون أن يحسب لتخلّيه حساباً لا قليلاً ولا كثيراً، أو ينظر في ما سيعقبه من كوارث في بلاد لم تزل حديثة العهد بالفتح، مضرّجة الأديم بالدماء، ولم يقدّر كذلك نفسيّة المحكومين الضعيفة المجبولة على التقلّب والتقلقل وعدم الرضا

بحال. وهو يعلم أن طاعتهم مدخولة كما وصفهم عقبة بذلك، حين استخلفه على القيروان، لا ينقادون إلا للقوّة الباطشة، وإذا أمنوا خفّوا إلى الفتنة والثيار. فكان تخلّيه مضرّة فادحة، وخسارة عظيمة لا يوازيها في الحساب زهده وورعه.

كان الأفارقة غِضاباً لما نزل بهم من مقتل زعيمهم كسيلة، لكنهم كانوا يكتمون غضبهم وسيف زهير مسلّط على الرقاب. وما أقدر الأمم المغلوبة الماكرة على إخفاء مَوْجدتها أمام الغالب القاهر، وتصنّعها الرضا الكاذب! وهو ما حمل زهيراً على الاغترار بهم لمّا فارقهم. لكنهم لم يتمهّلوا حتى توثّب فيهم الميل للانتقام، والتفّوا حول زعامة امرأة منهم يدعونها الكاهنة من جبل أوراس[57]، تسمّى دِهْيَة بنت تابتت بن تيفان[58] واتخذوها رمزاً للاستقلال، وهي من أشدّهم رغبة في الأخذ بالثأر. فخرجت تطالب بدم كسيلة وتدعو قومها إلى طرد العرب من البلاد. فأجابها إلى ذلك جماهير الناس الذين يريدون النكاية بالمسلمين، فتقدّمت بهم وافتكّت مقاليد الأمور من خلفاء زهير وألحقت بهم أذى شديداً، بما رجّ إفريقية وقلب نظامها رأساً على عقب. وكانت في واقع الأمر أعلى مثل للبسالة النسائية في تاريخ الثورات الكبرى. وممّا ساعدها على النجاح في قيامها، انصراف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لفضّ المشاكل الاجتماعية والسياسية الناشئة في المشرق، وكانت شغلاً شاغله عن الاهتمام بالأحداث الواقعة في المغرب.

(57) ابن الأثير، ج 4 ص 301، وابن عذاري ج 1 ص 25، والمالكي ج 1 ص 32، وابن ناجي ج 1 ص 56.

(58) انظر تاريخ ابن خلدون ج 7 ص 17، دار الكتاب اللبناني للطباعة سنة 1968.

4 ـ المشاكل السياسية والاجتماعية في المشرق:

كانت بلاد الخلافة الإسلامية يوم تقلّدها أميـر المؤمنين عبد الملك بن مروان إثر وفاة أبيه مروان بن الحكم أتونا يستعر بالقلاقل والاضطرابات. فكان عبد الله بن الزبير قابعاً في مكة يدعو لنفسه بالخلافة، وينكر خلافة بني أمية، وقد تمّت له البيعة في الحرمين الشريفين. وهناك في العراق مصعب بن الزبير يواثب الناكبين من الشيعة والخوارج عن البيعة لأخيه. وهذا نجـدة الحروري يخوض في بحر من الدماء بين الأهواز وفارس لحمل المسلمين على القول بأن لا حكم إلا لله. والمختـار بن عبيد الثقفي يثيرها فتناً شعواء في الكوفة والموصل باسم الدعوة للقائم من آل محمد، وعلى رأسه تابوت يضلّل به الناس. حتى قال في ذلك جمهور كبير من عقلاء المسلمين: ما نرى قريشيّاً ينصف!.

وبلغ من تفكّك الوحدة الإسلامية، وهوانها على الناس، أن وقف بعرفات في حجّ سنة 68 [687] أربعة ألوية لأربعة أيمّة يتنازعون الخلافة، لواء محمد بن الحنفية وكان داعيته المختار، ولواء عبد الله بن الزبير ومعه أصحابه، ولواء عبد الملك معقود على رأس قائد من جنوده، وأمره لا ينفذ في غير مصر والشام، ولواء نجدة الحروري يرفرف فوق رؤوس أنصاره وأتباعه من الخوارج، ودعوته متفشية في فارس والأهواز، وبين هؤلاء نُزّاع آخرون يذكون الدعوة إلى الشقاق ويعيثون فساداً في البلاد بسبب ضعف الوازع، والتواء الرأي واختلاف الدعايات.

وكان حال عبد الملك لما قفل زهير من القيروان: أن خرج من دمشق إلى قرقيسية يدعو أهل الجزيرة إلى الطاعـة وترك

الخلاف، وكان معه قريبه عمرو بن سعيد الأشدق، فحدثته نفسه بالخروج على أميره تبعاً للتقاليد المألوفة في ذلك العصر المظلم. ولما بلغ عبد الملك إلى بطنان حبيب، وأراد مناجزة زفر بن الحرث الكلابي صاحب الجزيرة، وكان موالياً لابن الزبير، فارقه عمرو ليلاً مع من شايعه، وكرّ راجعاً بهم إلى دمشق، مظهراً العصيان، فغلب عليها، وأخذ خزائنها. واجتمع عليه الناس يبايعونه، ورغبتهم في المال الذي وضع عليه يده لا في إقامة العدل والسلطان. فكبر ذلك على عبد الملك، ولم يبق له من ملكه غير ثلّة من الجند يمكن أيضاً أن تحدثهم نفوسهم بالفرار وتركه في عرض الطريق شريداً فريداً يحرق الأرم على الملك الضائع والحقّ المنشود. ولكن عبد الملك ليس كغيره، بل هو رجل الساعة الذي لا يعرف الفشل ولا تربكه الخطوب، فإنه أدرك ببصره الثاقب ورأيه الصائب أن الدولة لا تتركّز إلا في دمشق، فأسرع العودة إليها، وعدل عن الجزيرة. فلما وصل اصطدم بعمرو أيّاماً ثم اصطلحا، وكان كلّ منهما يصرّ على الغدر بصاحبه، ولم يتربّص به عبد الملك حتى دعاه مع أهل بيته وأعجل به.

غير أنه لم يكد يطفي هذه الجمرة التي اتّقدت في موطن أمنه حتّى اشتعلت بعدها فتنة الجراجمة من جنوده، فإنه خرج عليه قائدهم في جبل اللّكام وتبعه خلق لا يحصى من الأنباط، والجنود والروم والآبقون من عبيد المسلمين وقصد بهم أعالي لبنان. فندب لاستنزاله القائد سحيم بن أبي المهاجر فاحتال عليه إلى أن ظفر به فقتله وبموته خمدت هذه الفتنة.

وحين نشبت هذه الاضطرابات في الداخل تقدم الروم من الخارج لمواثبة الشام، وليس بعيداً أن يكون ما حدث مثاراً بأيديهم لمحو الخلافة. فصانعهم عبد الملك وصرفهم عن مناجزته بإتاوة يؤديها لهم ألف دينار في كل جمعة. فقنعوا بذلك وعادوا على الأعقاب لما شعروا بإخفاق مساعي الثوّار.

هذه جملة الحال التي عرست في المشرق، فكيف يمكن معها استنقاذ المغرب من أيدي الذين خرجوا به من البغاة أو إزالة ما حدث به من خطوب، والشقّة بعيدة والجند مضطرب الرأي وهو غير متوفّر.

لا ريب أن إقرار الأمن في المشرق أولى وأوكد منه في المغرب. لم يكد يستوثق الأمر لعبد الملك في الشام حتى لفت بصره إلى العراق. فأخذ يغري قوّاد مصعب بن الزبير بالوعود، ويمنّيهم بالأطماع حتى استمال الكثيرين منهم. وما أشدّ وقع الطمع في أفئدة الضعفاء الناكبين عن الطاعة. وقد حكى عنهم ابن الأثير أنّ كلّ واحد منهم كان يطلب لنفسه ولاية أصبهان؟! فوعدهم بها جميعاً. . .! ثم تأهّب وتقدم إلى العراق. ولما بلغ إلى دير الجثاليق قرب دجيل، التقى بمصعب واقتتلا هناك اقتتالاً شديداً. فانتصر عبد الملك، وقتل مصعب، وضمّ العراق إلى الشام، واستعمل عليه أخاه بشر بن مروان، فساسه سياسة حكيمة عادلة، قال فيها شاعرهم:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

ولما بلغ المهلّب بن أبي صفرة مقتل مصعب وكان منتدباً من قِبَله لقتال الخوارج في فارس، وجّه بالبيعة إلى عبد الملك،

فأقرّه على الولاية ثم كرّ راجعاً إلى دمشق على طريق الجزيرة، فهادنه زفر بن الحرث الكلابي بعد وقائع، ثم تمكّن من خراسان وسيّر عمّاله إليها ولم يبق خارجاً عنه إلا الحجاز. ودخل دمشق في مهرجان عظيم يليق بمقام قامع البغاة ومقوّض معاقلهم.

وما كان عبد الملك يحفل بشيء قبل استرداد الحجاز واقتلاع عبد الله بن الزبير من مجثمه فيه كما اقتلع أخاه مصعباً من العراق، ولم يزل يهمّ به حتى نهد إليه بالحجاز فامتلكه منه بعد أن استقتل فيه ابن الزبيرَ حتى لقي أجله.

وهكذا توفّق عبد الملك بثبات ورصانة قلّ من عرفهما من رجال التاريخ المعدودين، حتى ملك ناصية الدنيا، وانتزع الخلافة من أيدي المنتزين عليها، وأعاد للدولة الأموية رونق عظمتها وجدّد لها شرخ الشباب حين أشرفت على الزوال وطوت عبقريّته في جانبها ذكر سلفه معاوية بن أبي سفيان، وكان يُضرب به المثل في السياسة والدهاء، وهو لم يفعل شيئاً يذكر غير إزاحة منافس واحد له في الخلافة، مع أن له دولة قائمة تأثل فيها مجده ومن خلفه عصبيّة بني أميّة، وهم ما انفكّوا عن الطلب بدم عثمان. أما عبد الملك فقد استطاع أن يغالب خصومه بمجهوده الفردي، بعد أن تناثر ملك الأمويّين بموت يزيد بن معاوية وخروج عاصمته عنه، ولم يبق له غير عَزماته وثلّة قليلة من الجنود، ما جعل الروم يطمعون في الانتزاء عليه، واضطراره لمصانعتهم بإعطاء الدنيئة، وكان خصومه بالرغم من ذلك أقوياء من أقطار مختلفة وذوي عصبيّات، ولكنه ما زال بهم حتى غلبهم جميعاً وأدال منهم وردّ للمسلمين وحدتهم، بعد أن أصيبت بداء

الانقسام. ولما توفّق لذلك انصرف من فوره للاهتمام بشؤون إفريقية.

5 ـ ولاية حسّان بن النعمان

انتداب حسّان بن النعمان الغسّاني[59] لإفريقية:

أسلفنا أن عبد الملك لما بلغه مقتل زهير وخروج الإفريقيّين عن الطاعة، همّه الأمر ولم يشغله عن إفريقية سوى رتق الفتوق التي ظهرت في المشرق. وحين فرغ منها التفت إلى إفريقيّة فدعا إليه أقطاب الدولة يستشيرهم في من يختاره من القواد الجلة، يسدّ ثغورها ويصلح أمورها ويجبر مكسورها. فذكروا لديه أسماء رجال كثيرين لم يحفل بهم. فقال: أينكم من حسّان بن النعمان الغسّاني؟ وكان ملأ الأسماع والأفواه. أقامه بمصر عُدّةً لما يحدث من الأمور، فأجمعوا عليه. فكتب إليه عبد الملك تقليداً بالولاية، وأطلق يده في خراج مصر يأخذ منه ما شاء للقيام بأعباء هذه الولاية التي أودت بحياة أكابر القواد الذين تقدموه. فتأهّب إليها وخرج بجيش جرّار بلغت عدّته 40.000 مقاتل[60]. فدخلها سنة 76 [695] في قوّة ومهابة طأطأت لهما الأعناق بعد أن تناسوا أيام العرب[61].

---

(59) هو من أحفاد الغساسنة ملوك الشام. (المؤلف).

(60) ابن عذاري ج 1 ص 220.

(61) يذكر ابن الأثير سنة 74 (ج 4 ص 300)، وابن عبد الحكم سنة 73 (ص 62)، وابن عذاري سنة 78 (ج 1 ص 22)، والمالكي سنة 69 (ج 1 ص 31)، وكذلك ابن ناجي (ج 5 ص 55).

بدء حسّان بتخليص قرطاجنة من يد الروم وإزاحة نفوذهم عن إفريقية:

كان همّ حسان بعد نزوله في إفريقيّة افتكاك قرطاجنة من الروم، وإعادتها إلى أحضان أمّها العربية. فتقدم إليها من جزيرة شريك ونصب عليها الحصار، وجرت له معهم وقائع نكل فيها بهم. ولما علم أنهم ما زالوا يصرّون على الامتناع، قطع عنهم ماء الشراب الجاري فوق أقواس الحنايا. وبسبب ذلك يئسوا من المقاومة، ورأوا أن لا نجاة لهم من العطب إلا بالتسليم، فسلّموا أنفسهم طائعين. ودخل المسلمون في يوم مشهود (قريت حَديشَتْ) مدينة علّيسة (ديدون)[62]، فارتفعت عنها أحزانها التي لابستها منذ خرج منها الفينيقيّون بعد أن غلبوا على أمرهم سنة 146 قبل الميلاد، واستبشرت بمقدم منقذيها الذين خلّصوها

---

(62) وفدت الأميرة على إفريقية سنة 840 قبل الميلاد من مدينة صور في حاشية كبيرة من أشراف الفينيقيين وأكابرهم فارّة من ظلم أخيها بيغماليون الذي اغتال زوجها الملك الكاهن اسرباس خشية منازعته إياه في الملك، لأنه أحقّ به منه لكونه من أبوين منحدرين من صلب ملكي، أما بيغماليون فأمه من العامّة لا تبيح له التقاليد تولي الملك وإنما تقلّده بطريق الاغتصاب وقتل ابن عمه. وأراد أن يتزوّج أخته ليكون ولده منها وريثاً للعرش. ففرّت منه ونزلت على ساحل تونس وطلبت الأميرة من الملك البربري إينارباس أن يبيعها بقعة من الأرض بمقدار جلد ثور. فوهبها لها فأخذت جلد ثور وقطعته شريطاً رقيقاً مستطيلاً جدّاً ثم دعت الملك وحاشيتها وأدارت ذلك الشريط حول الأرض التي أرادت تملكها، فاستوعب مساحة كبيرة ولم يسع الملك البربري إلا قبول هذه الحيلة وسلّم لها تلك الأرض وبنت لها ما يكفيها من القصور وأقبل الفينيقيون الذين تقدموها يبنون بجوارها المباني العظيمة وسمّوها قريت حديشت (القرية الحديثة) وكانت تؤدي إتاوة سنوية مدة طويلة إلى ملوك البربر حتى تخلصت من حكمهم وصارت أمّ المدائن في البحر المتوسط عاصمة للدولة القرطاجنية العتيدة. (المؤلّف).

من الروم البيزنطيين ورثة رومة في ربيع الأول سنة 78 هـ وفي سنة 697 ميلادية، فكان دخولهم إليها عيدين في عيد، عيد الميلاد [المولد النبويّ الشريف] وعيد الخلاص بسيوف أحفاد الذين أُجْلُوا عنها، وذلك بعد 843 سنة شمسية، بحيث لولا اليقظة الإسلامية للمّ شعث العرب، لظلّت قرطاجنة إلى الأبد قرحاً في الصدور يذكر بأعظم مأساة وقعت لهم في التاريخ، على أن خلاصها لم يكن هيّناً بل كان بحرب ضروس استغرقت 48 سنة (تخلّلتها فترات قليلة لصدّ الغوائل في نواح أخرى من بلاد العرب لإشغال المسلمين عنها)، وما زالوا يعاودونها الكرّة بعد الكرّة، إلى أن أزاحوهم عنها نهائيّاً واستعادوها. وذلك هو شأن العرب، فهم لا يقيمون على ضيم يراد بهم ما لم يدركوا ثأرهم ولو بعد قرون، وإنما ينتظرون الفرص حتى إذا واتتهم بردّ الشرف المضاع، لم يتخلّفوا عن ذلك حتى ينتقموا من عدوّهم انتقاماً خفيفاً رحيماً كما حدث.



دخل حسّان قرطاجنّة آسياً جابراً لا كما دخلها شيبيون الأصغر مدمّراً فاتكاً[63] ورأى من كبريائه العربي أن لا يثأر من

(63) حاصر الرومان قرطاجنة حولاً كاملاً وتجرّع القرطاجنيون أثناء الحصار غصصاً وآلاماً لم يعهد لها مثيل في التاريخ وكانوا يزدادون شدة في المقاومة وثباتاً على الدفاع كلما ازداد الرومانيون صلفاً وإصراراً على تخريب المدينة وعزما على الاستيلاء عليها. فقد شدّد شيبيون الأصغر على فيالقه وأمرهم بإشعال النار في المدينة وكان القرطاجنيّون رجالاً ونساءً وصبيةً يحملون السلاح ويدافعون على مدينتهم لكن ماذا تفيد هذه العزيمة الخارقة وقد سقطت الأسوار تحت ضربات الرومانيّين وهم يحتلّونها قسماً قسماً بعد محق

المغلوبين بما فعلوه بأجداده أو ما فعله أسلافهم الرومان. بل منّ عليهم وعصم دماءهم وأموالهم واكتفى منهم بالتسليم والدخول في الذمّة الكريمة. والعربي مهما كان قويّاً في جلاده، صعب المراس في حروبه، فهو هيّن في تغلّبه، إذا ظفر بعدوّه رحمه ورقّ له وبرّ به. كذلك فعل حسّان، فقد ترك كلّ شيء على حاله سوى الشعار والمسكوكات، فإنه مسّهما مسّاً رفيقاً وحذف منهما ما لا يتّفق والعقيدة الإسلامية. ثمّ عيّن حراسة للمدينة وأقام عليها حاكماً من قِبَله، إيذاناً للأفارقة بأن الملك قد دار دورته ورجع إلى العرب.

المدافعين وأشلاؤهم تتساقط كما يتساقط الجدار المنفض والدماء تسيل وهي تملأ السكك والأزقة والساحات، فلا تسمع إلا الأنين وحشرجة الموت ولا ترى إلا الخراب والتدمير، واستمر ذلك ستة أيام وست ليال، وفي اليوم السابع دخلت قرطاجنة في طيّ العدم.

وبقي أزربعل حيّاً بعد مقتل رجاله، فالتجأ إلى هيكل قديم ومعه بقيّة من قومه وزوجته وولداه، وقد فقدوا كلّ أمل لهم في النجاة. فاستسلم هذا القائد العظيم للرومان، ولما شاهد بقايا القرطاجنيّين ما فعله قائدهم أوقدوا النيران في الهيكل وقذفوا فيها أنفسهم وفضلوا هذه الموتة الشنيعة على ذلّ الاستسلام، وكانت زوجة القائد قد وقفت على درج الهيكل وزوجها بين يدي الرومان وحملقت فيه بعينين جمعتا كلّ الغيظ القرطاجني وصاحت به: اذهب أيها النذل ليفخر المنتصرون بأسرك! ثم خنقت بيديها فلذتي كبدها وألقت بهما في وسط اللهب وألقت فيه بنفسها وهي تقول: النار ولا العار.

ذلك وصف مجمل للوطنيّة القرطاجنية التي كانت تتّقد في صدور الأمّهات. وبعد دخول الرومان المدينة ورد الأمر من رومة بإحراق المدينة، فأوقد الجند الروماني بها النيران ودام الحريق نصف شهر كامل، ولما انطفت لم يبق بالمدينة سوى 25 ألف من 700 ألف نسمة، أغلبهم مشوّه وجريح و30 ألف امرأة بعن كلّهن رقيقاً كما تباع الطيور والدواجن في الأسواق. (المؤلف).

فتح مدينة تونـس:

لما فرغ حسّان من الاستيلاء على قرطاجنة، تحوّل إلى تونس، وكانت قد ارتدّت بعد أن فتحها زهير بن قيس أوّل مرّة، إثر قفوله في المرّة الثانية من المشرق. ولما كان بضواحيها أقبل عليه الأهالي مذعنين يسألونه أن يكفّ عنهم، ويرتّب عليهم ما شاء من الجزاء، فأجابهم إلى ذلك وكانت للروم منهم سفن راسية على سيف البحر، فاحتملوا فيها أموالهم وأهليهم ليلاً وتركوا المدينة، ولم يتخلّف بها إلا المستضعفون من الأفارقة. وحين علم حسّان بخبرهم دخلها غاضباً فدكّ معاقلها وتركها مفتوحة لئلا يعود إليها الفارّون ويتحصّنوا بها[64]، وأمر ببناء المسجد الجامع (جامع الزيتونة، وكان في الأصل ديراً للرّهبان تخلّوا عنه، ثم وسّع في بنائه عبيد الله بن الحبحاب، وضمّ إليه زيادة الله بن الأغلب زيادات كثيرة، ثم تكاملت ضخامته في أيام ملوك بني حفص. وممّا لا جدال فيه أن هذا الجامع، وكذا جامع القيروان هما من جملة المآثر الأمويّة الشاهدة بعظم شأنهم وبرورهم بدينهم وقومهم).

ولما فطن روم قرطاجنة بما فعله روم تونس نكثوا العهد وتحصّنوا بالقلاع وتدافعوا إلى الشرّ، فعاد إليهم حسّان غاضباً غير منتقم وشدّد عليهم حتى أنزلهم من الحصون، فأمر بهدمها فهدّمت وفرّ منها خلق كثير في المراكب إلى صقليّة وغيرها من شواطىء البحر المتوسط.

---

(64) البكري، المغرب في تاريخ المغرب ص 37.

وبهذه الواقعة الأسيفة ختم دور الروم في إفريقية، وأمر حسّان بنقل الدواوين إلى القيروان خوف الهجوم عليها من البحر، وليس يومئذ للمسلمين أساطيل كافية يذودون بها عن شطوطهم. فهاجر الناس قرطاجنة ولم تبق صالحة لأن تكون مباءَة[65] للعرب كما كانت في عهد الفنيقيّين وهم سادة التجار في زمنهم. فتخرّبت بالإهمال ولم تقوَ على مقاومة عَوَادي الدّهر. فخلفتها القيروان في بعد الصيت، والدنيا دول بين الناس والبلدان.

وبينما كان حسّان يهمّ بالرحيل إلى القيروان، إذ بلغه أن جموعاً من الروم والأفارقة يحتشدون في صطفورة وبنزت للوقيعة به، فداهمهم بالجنود ولقي منهم مقاومة عظيمة وما زال بهم يواقعهم حتى هزمهم[66] واستولى على المدينتين بعد أن طهّرهما من عيثهم وفسادهم ولم يترك لهم موضعاً في إفريقية يلجونه إلا وَطِئه. فقصد الروم منهم مدينة باجة وتحصّنوا بها وتقدم متنصرة الأفارقة إلى مدينة بونة وهم يظنونها واقيتهم. وفيما يذكر ابن الأثير أنّ حسّاناً فضّل أن يعود إلى القيروان بمن معه عن متابعتهم، إراحةً لجنوده لأن الجراحات قد أثقلتهم، فأقام بها إلى أن أبلّوا. ثم رجع إليهم يطاردهم ويتعقّبهم حتى سلّموا له وقدّموا الطاعة.

لقاء حسّان للكاهنة وانهزامه منها:

علمت الكاهنة بدخول حسّان إلى إفريقية ومسيره إلى

(65) المباءة هي المنزل.

(66) ابن الأثير ج 4 ص 300.

قرطاجنة، فجمعت قواتها وحشدتها بجبال أوراس جنوب قسطنطينة تنتظر إنهاك قواه في قتاله مع الروم لتباغته. فنصحه الأفارقة وقالوا له: إن استطعت أن تفاجئها وتظفر بها، هابك جميع الأفارقة، ولم ينازعك بعدها أحد. فعجّل إليها وأبى أن يمهلها. فبلغ الكاهنة أنه يريدها فخرجت إلى لقائه بجنود لا قِبَل له بها إلى أن التقيا على وادي مسكيانة[67]. فتزاحفا واقتتلا قتالاً عنيفاً. فوقعت الكسرة على حسّان فانهزم متنه بعد أن قتل أكثر جنوده وأسر منهم 80 رجلاً من بينهم خالد بن يزيد العبسي[68] وكان شاباً جلداً شريفاً فأحبّته وتبنّته وأطلقت الآخرين من الأسر ثم صرفتهم. واستمرّ حسّان منهزماً والكاهنة في إثره إلى أن خرج من قابس ولحق بطرابلس. فاكتفت بذلك وصفت لها البلاد.

كان انهزام حسّان أشنع ما مني به العرب في إفريقيّة، وأوّل انكسار عرفه لهم التاريخ. ولكن العرب قوم لا يخملهم انكسار ولا يشملهم انتصار. فإن حسّاناً لما لحق بمأمنه كتب إلى عبد الملك بالواقعة يستنجده لإعادة الكرّة، ويعتذر عن انكساره، ومن ضمن ما قاله في ذلك: «إن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمّة خلفتها أمم. وهي من الحفل والكثرة كسائمة النعم». ثم أتى على وصف وقائعه في الروم والبربر إلى أن هزم أمام الكاهنة، وذكر ما أصاب جنوده من كثرة الجراح والقتل، وقال إنه ينتظر أمر أمير المؤمنين. ثم طوى الكتاب وبعثه وانطلق نحو المشرق. فورد عليه كتاب أمير

(67) ابن عذاري، ج 1 ص 25.

(68) ابن عذاري ج 1 ص 25، والمالكي ج 1 ص 33، وابن عبد الحكم ص 63.

المؤمنين يأمره أن يقيم حيث يصله كتابه إلى أن توافيه الجنود، وكان يومئذ ببرقة. فأقام هناك ينتظر المدد لكي يسير إلى مناجزة الكاهنة ويدرك الثأر.

تخريب الكاهنة لإفريقيّة وعسفها بالأهالي بعد انهزام حسّان:

لمّا سار حسّان إلى المشرق تسلّطت الكاهنة على البلاد بقسميها: إفريقية ونوميديا وحكمتها مدّة تزيد عن أربع سنين إلى أن بلغها أنه يتأهب للرجوع وكانت بعيدة عن تصوّر غاية المسلمين وفهم مقاصدهم، فدعت قومها وقالت لهم: إنّ العرب لا يريدون من بلادنا إلا الذهب والفضّة والمدن، ونحن تكفينا منها المزارع والمراعي، ولسنا نأمن غائلتهم إلا إذا قطعنا تأميلهم وخرّبنا المدن والحصون وقطعنا الأشجار. فإذا علموا بذلك ضعفت أطماعهم ولن يرجعوا إلينا أبداً. فوافقوها على ذلك وندبت جنودها وبثّتهم في كلّ مكان، وأمرتهم بقطع الأشجار وهدم الحصون والقصور وتخريب المدن، وما زالوا مثابرين على التدمير إلى أن صيّروا البلاد قاعاً صفصفاً لا ترى فيها إلا الأطلال والدِّمن[69]، وقد كانت ظلّاً واحداً ظليلاً من طرابلس إلى طنجة[70]، قرى متصلة، ومدائن منسّقة، ومساكن طيبة وحدائق زاهرة، وأراضي عامرة، وأكواراً مأهولة، ومياهاً جارية، ونعماً وافرة، كما وصف ذلك قدماء مؤرخينا الذين رافقوا الفتوحات الأولى. فقد ذكروا أنه لم يكن في أقاليم الدنيا أوفر خيرات، ولا أدرّ بركات ولا أنضر مدائن ولا أنسق عمراناً من إفريقيّة. وقد

---

(69) الدِّمَن جمع دِمْنَة وهي آثار المنزل.

(70) ابن عذاري ج 1 ص 26.

أثبت ابن عذاري المراكشي قولهم بالمساحة فقال إن العمارة كانت متّصلة مسافة ألفي ميل في مثلها، فأتت عليها الكاهنة بالقطع والتخريب[71]. وخرج منها أكثر الأفارقة المنكوبين إلى الأندلس وغيرها، ويزيد في وصفها تدقيقاً للإحصاء الذي أثبته الإمام المحقّق الفقيه أبو خالد عبد الرحمان بن زياد بن أَنعُم[72]، قال: إنه كان بإفريقيّة قبل التخريب 100.000 حصن بين مدينة وقرية وكان الروم إذا أرادوا الغزو بعثوا إلى كلّ حصن يأتي منه فارس ودينار فيجتمع من ذلك 100.000 فارس و 100.000 دينار ولا ينقص من البلاد شيء، إلى أن قال: ومن تأمّل في أطلال هذه المدن والقصور وتدانيها بعضها من بعض، رأى من ذلك ما يفضي إلى العجب، وأيقن بكثرة عمارتها في السالف. وكذلك إذا تأمّل في أشجارها ومغارسها رآها على اعتدال وترتيب ينبئان أنها كانت مغروسة لا نابتة ـ اهـ ـ.

ذلك ما خرّبته الكاهنة لا العرب، كما أرجف به دجاجلة المؤرخين الذين يريدون طمس معالم التاريخ لغاية عارية عن الشرف. ولردّ مفترياتهم سنتعرّض في غضون هذا الكتاب لذكر ما عمّره العرب بعد التخريب، كشفاً للحقائق وإنصافاً للأجداد من التاريخ المصنوع.

وصول المدد إلى حسّان بن النعمان وزحفه الثاني على إفريقيّة:

أقام حسّان ببرقة أربع سنين أو تزيد[73] ينتظر المدد من أمير

(71) نفس المرجع.

(72) قاضي إفريقية وهو أوّل مولود وُلد بها في الإسلام وقرأ في المدينة مع أبي جعفر المنصور.

(73) يذكر ابن الأثير (ج 4 ص 30) أنه أقام ببرقة خمس سنين، وكذلك ابن عذاري =

المؤمنين، فأبطأ ذلك عليه إلى أن بلغ أكابر المسلمين في دمشق ما فعلته الكاهنة. فسألوا عبد الملك أن يسرع لتدارك هذه البلاد، وإنقاذ أهلها من العسف والجور، وإلا هلك الناس، وفات وقت التدارك. فأجابهم إلى ذلك وأمر بسوق الأجناد والأموال والسلاح إلى حسّان وأذنه بالخروج. وقبل قيام حسّان من برقة أذكى العيون في إفريقية، يتعرّف بهم قوات البربر وجموعهم، وما إلى ذلك من أحوالهم. فأخبروه أن البربر متفرّقون، وقد اختلّ نظامهم وساءت أحوالهم واختلفت آراؤهم. وأن البلاد تنتظم لمن يأتي لإنقاذها مما حلّ بها من الأرزاء. فبعث حسّان رسولاً إلى خالد بن يزيد وكان يثق برأيه، يستعلم منه حقائق الأمور. فردّ عليه خالد بكتاب سرّي يعرّفه بتفرّق البربر وانصرافهم عن الكاهنة وحرّضه على التعجيل بالقدوم وجعل الرقعة في خبزة. ولما وصل الرسول وجدوا الكتاب محترقاً بالنضج، فعاد الرسول إلى خالد، فعاود الكتابة في رقعة وضعها في قربوس السرج[74]، وخاطه عليها، فبلغت حسّان[75]. ولما وقف عليها تأهّب للزحف فقام يطوي المراحل إلى أن قرب من البلاد. فخرج إليه جمع من الأفارقة والروم يستقبلونه بالحفل وهم يستغيثون من الكاهنة وما أنزلته ببلادهم من البوائق والمناكر. فطمنهم ووعدهم خيراً وحين بلغ قابس خرج إليه أهلها بالبشائر يقدمون شعائر طاعتهم ويطلبون منه

= (المرجع السابق). أما المالكي فهو يذكر أن مدة إقامته كانت ثلاث سنين (رياض النفوس ج 1 ص 33).

(74) القَرَبوس هو قسم السّرج المقوّس المرتفع من قدّام المقعد ومن مؤخّره.

(75) ابن الأثير ج 4 ص 301، وابن عبد الحكم ص 63، وابن عذاري ج 1 ص 28، والمالكي ج 1 ص 34.

الأمان على ما سلف منهم. وكانوا قبل ذلك يتحصّنون من لقاء المسلمين ويستنكرون وجودهم. فقبل طاعتهم وعيّن لهم عاملاً من قِبَله وصيّرهم إلى ما كانوا عليه.

وقبل قيامه من قابس وافته وفود البلاد من نفزاوة وقفصة وقسطيلية، يستنجدون به ويطلبون منه إنقاذ بلادهم من جور الكاهنة. وروى المؤرخون في ذلك أن جموع النصارى كانت في كلّ مكان تتقدّم لاستقباله بالبشائر والأفراح وكانوا يرونه كمخلّص حقيقي بعثه الله لإنقاذهم باسم الإسلام من جور الكاهنة وعتوّها، فكان يستقبلهم بالرضا ويعاملهم بالعدل والإحسان ويتغاضى عما سلف منهم.

ولما أدركت الكاهنة الجدّ من أمر حسّان وأنه مهلكها لا محالة، دعت ولديها وكان أحدهما لصلب رومي والآخر من صلب بربري وأحضرت معهما خالد بن يزيد. وقالت لهم: إني هالكه لا محالة فامضوا إلى حسّان واستأمنوه على أنفسكم، ولم تكن عارفة بما لخالد من المكانة لديه. ولما قدموا عليه أمنهم وأسنى منزلتهم.

وخرج حسّان يطلب الكاهنة إلى أن وافاها على الجمّ فقاتلها واشتدّ بينهما القتال وعظم البلاء حتى ظنّ النّاس أنه الفناء. وثبتت له الكاهنة ثباتاً عجيباً يفوق الحديث عن الأبطال الخرافيّين الذين خلقتهم مخيّلة هوميروس شاعر الألياذة، ولكن بالرغم من ذلك كان الفوز للمسلمين عليها فتفرّق الجنود من حولها بعد أن قتل منهم خلق كثير. ولا غرابة في ذلك فإن الواقعة كانت حاسمة بين الفوضى والإسلام. فولّت الكاهنة على أعقابها

وتبعها حسّان وما زال في أثرها إلى أن ظفر بها في طبرقة[76]، وبعد معركة صارمة ذهبت هذه المرأة النادرة ضحيّة الدفاع عن حمى البلاد. وفي الوقت نفسه استراحت إفريقية من عسفها وجورها بعد أن رفعتها إلى منازل الآلهة البشريّين الذين عبدهم الناس.

وبعد مهلك الكاهنة صفت البلاد لحسّان وأقبل الأفارقة عليه من كلّ صوب يستأمنونه فأمنهم جميعاً واستوثق منهم بتجنيد اثني عشر ألفاً من أبناء رؤسائهم وعشائرهم. ولما حضروا لديه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا عن بكرة أبيهم. وندب ولـديْ الكاهنة فعقـد لكلّ واحـد منهما على ستـة آلاف من أولئك المواطنين وخوّلهما أسمى رتب الجيش، ناهيك برتبة القيادة في نظر الصدر الأوّل من الإسلام. فأخرجهم وسيّر معهم ستة آلاف من العرب لاكتساح المرتدّين في موروطانيا (المغرب الأقصى) وجعل مقرّهم ثغر طنجة[77] وأقام لهم المعلّمين يعلّمونهم العربية والدين.

ولمّا استقرّت البلاد وانقطعت منهـا الفتن قصد حسّـان القيروان فدخلها دخول القائد الظافر يحمل إلى قومه أكاليل النصر في رمضان سنة 82 [701]. وبعد انقضاء أيام العيد خرج غازياً إلى طنبذة، وسيّر مولاه أبا صالح إلى قلعة زغوان وكانت شديدة

(76) وفي روايات أخرى قتلت عند بئر، فسمّاه العرب «بئر الكاهنة»، ابن عبد الحكم ص 64، والمالكي ج 1 ص 36.

(77) طنجة، فرضة مهمة على البحر المتوسط بشمال المغرب الأقصى مواجهة لإسبانيا (ح. ح. عبد الوهاب).

المناعة فنزل فحصها وجعل يهاجمها ثلاثة أيام دون أن يظفر منها بطائل. فكتب إلى حسان، فترك معظم جنوده على طنبذة يحاصرونها وسار في الخيل إلى زغوان ففتحها صلحاً، ثم رجع إلى طنبذة فأوقع بها إلى أن دخلها عنوة وعاد منها إلى القيروان وقد أتته جميع أقطار إفريقية بالطاعة وقرّت بها عيون المسلمين ولم يبق له ما يشغله غير الجزر التابعة لها التي اعتصم بها الروم واتخذوها مكمناً للصوصهم يغيرون منها على الشطوط. فكتب بذلك إلى عبد الله يسأله أن يمدّه بالأسطول لمنازلتها وحملها على التسليم. فأمدّه بعمارة بحريّة عظيمة بقيادة عبد الملك بن قطن. فقصد تلك الجزر واستنزلها على الطاعة وأمن إفريقية من غوائل الروم. فأقبل الأفارقة على الإسلام من شراشر قلوبهم وتيمنوا بعهدهم الجديد الذي صيّر بلادهم من مراكز الإسلام وقوادم أقطاره.

إصلاحات حسان السياسيّة في إفريقيّة:

لم يكن حسّان رجل الحرب والفتح فحسب، بل كان أيضاً رجل السياسة والإدارة والعزم. فقد عكف بعد استخلاص البلاد على إصلاح تراتيبها وتنسيق نظمها ومطابقتها بما يتّسق وروح الإسلام. فدوّن الدواوين ومسح الأراضي وقطع عليها الخراج[78] ووزعها على أهلها القدماء الذين افتكّها منهم الرومان، وأبطل نظام الإقطاع الذي شرعوه وقضوا به على رفاه الأهلين وأقصوهم إلى الداخل وحلّوا كلّهم في مواطنهم، ومهّد الطرقات وشيّد المحارس والرباطات لإيواء الجنود والمرابطين ودفع الناس إلى

(78) ابن عذاري ج 1 ص 29، 30.

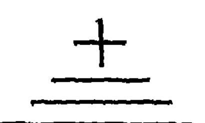
العمارة وتجديد الغراسة وإحياء الأراضي الموات، وإنباط المياه ونشط لإقامة المساجد وتعميرها في الجهات التي اعتنق أهلها الإسلام، فوسّع بناء جامع عقبة.

ولم تقصر همّة حسان عند هذا الحدّ، بل أدرك بثاقب رأيه أن طمأنينة البلاد في الداخل إنما تتوقّف على سلامتها في الخارج وهي واقعة على مقربة من البلاد النصرانية. وهذا مطلب عسير التحقيق، ما لم يكن لديه أسطول قويّ يرابط على الثغور ويدفع به غائلة الأعداء. فكتب بذلك إلى عبد الملك يستأذنه في إنشاء مصنع للمراكب البحرية. فاستحسن رأيه وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وكان على مصر، أن يوجّه إلى إفريقيّة ألف قبطي من بناة المراكب لإنشاء أساطيل تكون عدّة للمسلمين في هذا الثغر يدفعون بها عدوَّهم. فوصل القبط إلى حسّان، وكان يومئذ يقيم بتونس، فأجرى البحر من رادس اثني عشر ميلاً ووصله بقرطاجنة وبنى على طرف منها دار الصناعة وأمر بجلب الأخشاب من الغابات[79] ودار فيها العمل. فأنزلت إلى البحر عدة مراكب تعزّز بها الدفاع. ولما علم بذلك أكابر التابعين في المشرق كتبوا إلى المسلمين في المغرب يحرّضونهم على التجنيد البحري، وقالوا لهم من رابط عنّا يوماً برادس حججنا عنه في المشرق ووهبنا له ثواب الحجّ.

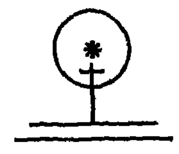
ومن أهمّ تدابير حسّان السياسية لصيانة البلاد، وهو اليقظ

(79) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى بغداد، ص 38.

الذي يعدّ لكلّ شيء عدّته، التفاته لإصلاح أغلاط العلائق الكنائسية وكانت تابعة لسلطات روحية أجنبية لا تتّفق ومصلحة البلاد. فالكنائس التقليديّة (الكاثوليكية) تابعة للكرسي الرسولي بروما والكنائس السنيّة (الأرثوذكسية) تابعة لبطرياركية الفنار المسكونية في القسطنطينية، وهما أجنبيّتان عن البلاد لا سبيل للإغضاء عنهما. فجمع حسّان قساوسة المذهبين وأمرهما بقطع هذه الصلات مع تلك المراجع وربطها بالكنيسة المرقوسية في الإسكندرية التابعة للخلافة. وهو تدبير حسن للغاية يدلّ على ذكاء سياسي خارق يجدر بمثل حسّان رجل الدولة. ومن إصلاحاته المهمّة المتعلقة بالتقاليد، تغيير الشعار. فقد كان لقرطاجنة شعار قومي اتخذته للبلاد منذ اعتنقت الديانة النصرانية يرسم على الصورة التالية:

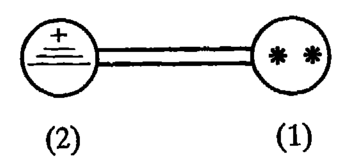


وهو يعرف بالصليب القرطاجني. فغيّره بصورة لا تنافي التقاليد الإسلامية وجعله على هذه الصورة:



فرفع من الأوّل رمز التثليث وعوّض الأخير بوضع كرة الأرض على العمود الأسطواني، وجعل ذلك شعاراً للمسلمين،

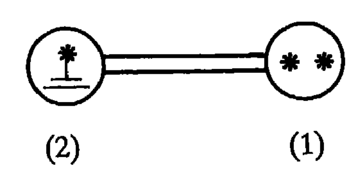
بدل الشعار القرطاجني وأجراه في صكّ النقود. وكانت على عهد الروم البيزنطيّين تضرب على الصورة الآتية:



الوجه الأوّل (شكل 1): عليه صورة القيصر ووليّ العهد أو القيصرة، إن لم يكن للقيصر وليّ عهد، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه.

ومن الوجه الثاني (شكل 2): في الوسط صليب مقام على ثلاث درج، وحول الدائرة ما تعريبه: ضرب هذا بإفريقية سنة كذا، وهي تذكر فحسب عُقَد مقدّرة بعشر سنوات من استيلاء قيصر ذلك العهد. فيقال مثلاً: سنة كذا من العقد كذا.

أمّا الدينار القرطاجني اللاتيني العربي الذي ضربه حسان في ولايته، فكان رسمه كما يلي:



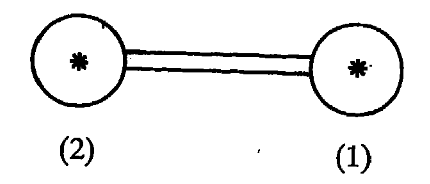
فالوجه الأول (شكل 1): فيه صورة عبد الملك ووليّ عهده.

والوجه الثاني (شكل 2): فيه الشعار القرطاجني

الإسلامي. وبعد حين، ضرب نقوداً أخرى حذف منها الصور ووضع مكانها كتابة باللغة اللاتينية والأحرف اللاتينية بطريقة الاختزال هكذا:

INDNI MIORCV MODS

وصورة الدنانير الثانية هكذا:



في الوجه الأوّل كتب عليه ما نصّه:

IN NOMINE DOMINI MISERICORDIS UNIUS

ترجمتها: بسم الله الرحمٰن الإلاه الأحد.

وفي الوجه الثاني:

UN US DEUS NISI SOINIS ALIS SIMILIS

تعريبها: وحده لا شريك ولامثيل له.

FERITI IN AFRICA IN DICTIONE III

ضرب بإفريقيّة في العشرة الثالثة، يقابل 85 هجري.

ومن تراتيب حسّان في السّياسة الداخليّة، أنه كتب الخراج على الروم والمتنصّرة من الأفارقة وأعفى من أسلم منهم، لقاء التجنيد والخروج للقتال. فدانت له بذلك البلاد من برقة إلى السوس الأقصى. فمنهم من أسلم وحسن إسلامه، ومنهم من أبى وأطاع، فضربت عليهم الجزية. وهو سلطان عظيم لم يجتمع

لأحد قبله من الروم والفندال، ولكن ترقّب زوالاً إذا قيل تمّ والدنيا ملاءة يتعاورها الإقبال والإدبار.

عزل حسّان بن نعمان عن ولاية إفريقية:

بلغ عبد العزيز بن مروان أخا عبد الملك وعامله على مصر ما يتمتّع به حسّان من السطوة في هذه البلاد الواسعة، فحسده وقيل وشي به إليه: أنه يريد الاستقلال والخروج على الخلافة الأمويّة. فدعاه إلى مصر وعزله عن الولاية[80]. فترك المغرب بعد أن استخلف أبا صالح وخرج إلى دمشق، ولما لقي الوليد بن عبد الملك شكا إليه تلك الفرية التي اتهمه بها عمّه وعزله بسببها. فغضب الوليد من الوقيعة برجل لا تقرب التهم ساحته وكان يعرف عندهم بالشيخ الأمين[81]. فقال له الوليد: لا تغتمّ، فأنا أردّك إلى عملك. وأحسن إليك وأنوّه بك عند أمير المؤمنين، وهو أعلم بمنزلتك من غيره.

فقال له حسّان: لا تفعل فإنما خرجت إلى المغرب لإعلاء كلمة الله وقد فعلت وليس مثلي من يخون الله والخلفاء، وأقسم أني لا ألي أبداً عملاً لبني أمية. فكلّم الوليد أباه بما لحق حسّاناً من عمه. فأحنقه حتى همّ بخلع أخيه عبد العزيز عن مصر جزاء فعلته النكراء بيمين الدولة وأمينها، لولا تعرض الوزير قبيصة بن ذؤيب، وكان على الختم، فأمسك عنه وفي النفس منه أشياء إلى أن عاجلته المنون، ولكنّ حسّاناً أبى أن يرجع إلى الولاية رغم إلحاح عبد الملك، مكتفياً بما لحقه من الوشاية والعزل.

---

(80) ابن عذاري ج 1 ص 30.

(81) نفس المصدر، ص 31.

الباب الثاني

عصر الولاة

(86 - 184 هـ / 705 - 800م)



1 ـ ولايـة موسى بن نُصَيْر
علـى إفريقيــة

كان لتخلّي حسّان أو عزله عن إفريقية وقع شديد في دمشق والقيروان ولم يكن أحد يتصوّر أنّ الولاية التي كان يشغلها يسدّ مسدّه أحد فيها، حتى تقلّدها موسى بن نصير بمساعي عبد العزيز ابن مروان على غير رغبة من أمير المؤمنين عبد الملك[1]، وقد تكلّم عنه المؤرخون فذكروا له صفات ونعوتاً قالوا فيها: إنه كان من صفوة رجال الدولة الأموية كفاءة واقتداراً، وكان أبوه يتولّى رئاسة حرس معاوية بن أبي سفيان، ولما كبر ابنه عيّنه عبد الملك معاوناً لأخيه بشر لمّا ولاه العراق، فتربّى في حجر الدولة ونشأ في كنفها واضطلع بأهمّ المناصب قبل أن يتقلّد هذه الولاية.

سياسة موسى في إفريقية سياسة عمل وحزم:

لما وصل موسى إلى القيروان دعا الناس إلى المسجد[2] ثم

(1) ابن عذاري ج 1 ص 32.

(2) السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 44.

ارتقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين، مسالم يحبّ العافية ويرضى بالدون من العطيّة أو يكره أن يُكْلَم ويحبّ أن يسلم، ورجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة راضٍ بالهون، وليس أخو الحرب إلّا من اكتحل السهر وأحسن النظر وخاض الغمر ورسمت به همّته ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون أن يُكْلِم أو يُكْلَم ويبلّغ النفس عذرها في غير خرق يريده ولا عنف يقاسيه، متوكّلاً في حزمه، جازماً في عزمه، متزيّداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في أحكام رأيه، متحنّكاً بتجاريبه، ليس بالمتجابن إقحاماً ولا بالمتخاذل إحجاماً. إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً وإن نكب أظهر جلادة راجياً من الله حسن العافية للمتّقين.

وبعد فإنّ من كان قبلي يعمد إلى العدوّ الأقصى، ويترك عدوّاً منه أدنى ينتهز منه الفرصة، ويدل منهم على العورة ويكون عوناً عليه عند النكبة. وأيم الله لا أريم هاته القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذلّ أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين»[3].

بطش موسى بالثوار واستنزالهم على الطاعة:

لما وصل موسى إلى القيروان كان أبو صالح على ولايتها ومعه سفيان بن مالك الفهري، استخلفهما حسّان قبل قفوله إلى

---

(3) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الطبعة الثانية، مطبعة الحلبي، مصر ج 2 ص 62-63.

الشام فنحّاهما موسى عنها، فشقّ ذلك على البربر وتنمّروا عليه. وأوّل من خرج عليه منهم لذلك قوم يقال لهم عَبْدُوه من أهل زغوان، عليهم رئيس اسمه وَرِقطان، وتبعهم آخرون في جهات كثيرة، فأراد موسى أن يقرن قوله بالفعل فوجّه إليهم 500 فارس عليهم رجل خشين يقال له عبد الملك فقاتلهم إلى أن هزمهم وقتل صاحبهم وَرِقطان وفتحت بلادهم[4].

وأرسل موسى 100 فارس عليهم عيّاش بن أخْيَل لتأديب هوّارة وزناتة ومنازلتهما، فأغار عليهم وقاتلهم إلى أن أرجعهم وقتل رئيسهم كَمَامُون فدعوه إلى الصلح فقاد وجوههم إلى موسى فصالحهم على ما رَضِيَه[5].

ولما بلغ كتامة ما نزل بإخواتها خافته فقدمت من تلقاء نفسها على موسى، فصالحته وولّى عليها رجلاً منهم، وأخذ عنهم رهونهم، وقد بلغ من حذره ويقظته أن هؤلاء الرهون استأذنوه مرّة في الخروج إلى الصيد فأذن لهم. فبلغه أنهم إنما يريدون الهروب، فوجّه الخيل تسرع في طلبهم ولما أوتي بهم أراد صلبهم. فقالوا: لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبيّن كل أمرنا، فنحن عبدانك، وآباؤنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا أمراً فيه خلافك، ونحن في يدك، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل. فأوقرهم حديداً وأخرجهم معه إلى كتامة.

---

(4) نفس المصدر، ج 2 ص 63.

(5) نفس المصدر، ج 2 ص 66. انظر أيضاً ابن عذاري ج 1 ص 34، وقد ذكر أن زعيم البربر، اسمه «طامون».

فلما بلغهم قدومه خرج وجوههم يستقبلونه. ولما لقيهم تبيّنت له براءتهم فاستحيى رهونهم وصدّ عنهم[6].

وقَدِم عليه الجواسيس من صنهاجة فأخبروه أنهم في غرّة وغفلة لا يستطيعون براحاً وكانوا عصاة، فخرج إليهم بأربعة آلاف من العساكر وألفين من المتطوّعين. فغشيهم وهم لا يشعرون بقدومه حتى أوقع بهم ثم صالحهم وقفل عائداً إلى القيروان.

ثم خرج بعد ذلك من القيروان واستخلف عليها ابنه عبد الله وسار في عشرة آلاف من العساكر وكان على مقدّمته عياض بن عقبة، وعلى ميمنته زرعة بن أبي مدرك، وعلى ميسرته المغيرة بن أبي بردة القرشي، وعلى ساقته نجدة بن مقسم، أعطى اللواء ابنه مروان وهو يريد سجّومة[7] وما حولها للانتقام ممّن بقي من قتلة عقبة، فسار حتى إذا كان بمكان يقال له سجن الملوك ترك به الأثقال وأقام عليها عمرو بن أوس في ألف فارس ثم تقدّم حتى انتهى إلى نهر يقال له مَلْوية، فوجد حائلاً وأبى أن يطول مقامه عليه خوفاً من أن يبلغ العدوّ مخرجه ومكانه. وكره أن يجوز على مخاضة عقبة، فأحدث مخاضة أخرى لمروره. فلما جاز إليهم وجدهم قد أنذروا به وتأهّبوا لحربه، فاقتتلوا قتالاً شديداً وكانوا على جبل منيع وهو أسفل منهم لا يصل إليهم إلاّ من شعب مخصوصة، فواقعهم منها ثلاثة أيام من الصباح إلى العصر وفي اليوم الرابع خرج إليهم رجل من أمرائهم إلى أن وقف

---

(6) ابن قتيبة، المصدر السابق، ج 2 ص 66.

(7) المرجع المذكور، ج 2 ص 67.

بين الجنود وهم مصطفّون فنادى بالمبارزة فلم يجبه أحد، فالتفت موسى إلى مروان ابنه فقال له: أي بني اخرج إليه. فخرج مروان ودفع اللواء إلى أخيه عبد العزيز، فلما رآه البربري استصغره وضحك ثم قال له: ارجع فإني أكره أن أقتلك وأنت حديث السن وأثكل فيك أبويك. فلم يمهله مروان حتى حمل عليه إلى أن ألجأه إلى الجبل. ثم إنه زرق مروان بالمزراق فتلقّاه مروان بيده وأخذه ثم حمل على البربري وزرقه زرقة وقعت في جنبه ثم لحقته حتى وصلت إلى جوب برذونه فمال فوقع به البرذون. ثم التقى الناس عليه فاقتتلوا قتالاً شديداً أنساهم ما كان قبله وانتصر عليهم المسلمون انتصاراً عظيماً. وقد أبلى زرعة بن أبي مدرك في ذلك اليوم بلاءً عظيماً حتى اندقّت ساقه فآلى موسى أن لا يحمل إلاّ على رقاب الرجال حتى يدخل القيروان، يحمله خمسون رجلاً كلّ يوم يتعاقبون بينهم حتى دخل على الرقاب[8].

وأمر موسى أولاد عقبة بن نافع، عياضاً وعثمان وعبيدة أن يشتفوا من قتلة أبيهم ويضعوا سيوفهم في رقابهم، فقتل عياض وحده منهم في ذلك اليوم على ما ذكره ابن قتيبة 600 رجلاً من كبارهم. ولما بلغ موسى عدد من قتل منهم أرسل إليه: أن امسك فقد استوفيت واشتفيت. فقال عياض: أما والله لو تركتني ما أمسكت عنهم وفيهم عين تطرف[9].

ولم يتّعظ البربر بما نزل بهم بل حدث فيهم تأثير معكوس،

---

(8) ابن قتيبة، المرجع السابق، ج 2 ص 67-68.
(9) ابن عذاري، ج 1 ص 34.

فقد حسبوا أن إجابة موسى طلبات مَن صالح منهم على تعيين حكّام لهم من قبيلهم، إنما كان عن شعور منه بالضعف عن مقاومتهم، فتآمروا عليه وتواعدوا على اللقاء في درعة من بلاد موروطانيا للتآمر على إنزال ضربتهم القاضية على العرب وطردهم من إفريقية. فكانوا يزحفون إلى الموعد إلى أن بلغ خبرهم موسى فخرج إليهم أوّل سنة 86 [124]، يتعقّبهم ويقصّ آثارهم حتى باغتهم وهم مجتمعون، فأجفلوا منه وتفرّقوا. ثم بلغه أنهم يتجمّعون في السوس الأقصى على مزدانة الأسواري فوجّه إليهم ابنه مروان في 5000 رجل، فلما التقوا ورأى مروان أنّ الناس قد تعجّلوا إلى قتال العدوّ، وكان في يده قناة وفي الأخرى ترس وإنه ليشير بيده إلى الناس: أنْ كما أنتم إلى أن اقترب الجند فأمر عساكره بالهجوم فاقتتلوا اقتتالاً وجيعاً ثم انهزم مزدانة ومنح البربر أكتافهم للمسلمين ثم استسلموا وتعاقدوا على الصلح.

الكيد في الحرب:

بلغ موسى أن صاحب قلعة أرساف أغار على بعض الأطراف من سواحل إفريقية حتى نال منها. فخرج إليه بنفسه يطلبه ففاته ولم يدركه. فاشتدّ ذلك عليه وقال: قتلني الله إن لم أقتله وأنا مقيم في مكاني. فأقام موسى ما أقام ثم إنه دعا رجلاً من خاصّته فقال: إني موجّهك في أمر وليس عليك فيه بأس ولك عندي حسن الثواب. خذ هاتين الأذنين فسر فيهما بمن معك حتى تأتي قلعة أرساف، فإنك تجد كنيسة وتجد الروم قد جعلوها لعيدهم، فإذا كان الليل فادنُ من ساحلها ودع إحدى هاتين الأذنين بما فيها ثم انصرف بالأذن الأخرى. وجعل موسى فيها

شيئاً من الخزّ والوشي وما إلى ذلك من طرائف بلاد العرب، وكتب رقعة بالرومية كأنها جواب لكتاب كتب إلى موسى يسأله الأمان على أنّ يدلّه على عورة الروم وكتب فيه أماناً من موسى وقع عليه بختمهِ.

فسار الرسول حتى انتهى إلى الموضع الذي وصف له موسى فترك الأذن بما فيها وانصرف راجعاً بالثانية حتى قدم على موسى.

ولما عثر الروم على أذن موسى استنكروها ورفعوا أمرها إلى بطريق تلك الناحية فأخذ ما فيها، فلما رأى الكتب والهدية تهيّبهما، فبعث بهما إلى ملك الروم، فلما أفضى بهما إليه وقرأ الكتاب، تحقّقت لديه خيانة عامله فبعث مكانه إلى أرساف رجلاً ولاّه عليها وأمره بضرب عنق صاحبها الذي أغار على ساحل إفريقية ففعل، وكان انتقام موسى منه بهذه الحيلة بالغاً[10].

إخلاد البربر إلى الطاعة وإنصاف موسى لهم لقاء ذلك:

علم البربر من صراحة موسى وصرامته أن المواثبة لا تجدي عنهم شيئاً فأخلدوا إلى الطاعة وأخذوا يسألونه إنصافهم وتعيين حكّام عليهم من أنفسهم يفهمون رغائبهم ويتولّون فضّ خصوماتهم. فرقّ لهم. ولم ير مانعاً من ترضيتهم وإجابة سؤالهم. فندب طارق بن زياد البربري النفزي وقلّده الولاية على مغربهم وأقامه بين أظهرهم في مدينة طنجة[11] وترك معه سبعة

(10) ابن قتيبة، المرجع السابق، ج 2 ص 72-73.

(11) ابن الأثير ج 4 ص 428، وابن عذاري ج 1 ص 37، وابن عبد الحكم ص 71.

عشر ألف فارس من العرب والبربر. ثم عاد من فوره إلى إفريقيّة، فمرّ بقلعة مجّانة فتحصّن منه أهلها، فأمسك عن مناجزتها وترك بها جنداً يحاصرها، عليه بشر بن فلان[12] وأمره أن لا يفكّ عنهم إلاّ إذا التزموا الطاعة وتركوا القتال، ثم واصل سيره إلى القيروان فدخلها في رمضان سنة 86 [124]. وبعد أن أقام بها أشهراً وافته الأنباء بمصرع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وجلوس ابنه الوليد على عرش الخلافة في شوال السنة.

توحيد العمل بالسياسة الإسلامية وربطها بمركز الخلافة:

كان الوليد فتى بني مروان صليب الرأي شديد الملوكية، حريصاً على تثبيت السلطة المركزية في الخلافة دون أن يدع فيها تساهلاً أو هوادة[13]. فكتب بذلك إلى عمّاله وأمرهم أن لا يبرموا أمراً دونه إذا لم يتبيّنوا رأيه فيه، توحيداً للسياسة وصبغها بالصبغة الأموية الخالصة. ثم ترادفت كتبه على العمال بمشاريع الإصلاحات، كالتنبيه للتعمير وإقامة الأوابد والاعتناء ببناء المصانع وتعبيد الطرق، وحفر الآبار وإنباط المياه. ومما يذكر في ذلك بمزيد الإعجاب: الأمر بتحجير أصحاب العاهات ومنعهم من الاتصال بالناس وأن يعطى للعمي والمقعدين والمجذومين كفايتهم من بيت المال وأن لا يكونوا عالة على غيرهم يتكفّفون الناس، وجعل لكلّ مقعد خادماً ولكلّ ضرير قائداً. وممّا يؤثر عن سياسة الوليد الترفع بها عن قبول الوشايات وسماع النمائم، ومن

---

(12) ابن الأثير ج 4 ص 428.

(13) وكان القصد من ذلك إحداث التجانس في الآراء والمفاهيم بين المسلمين. (المؤلف).

ذلك: أنه لما قحطت إفريقية واشتدّ انحباس الغيث عنها خرج موسى يستسقي بالناس فخطبهم ولم يذكر اسم الوليد، فقيل له في ذلك، فأجاب، هذا مقام العائذ بالله لا يليق أن يذكر فيه أحد ولا يدعى إلا الله. فنقل عنه هذا القول إلى الوليد فلم يتحرّج منه، بل أعرض عن القائل واشتدّ في تأنيبه وقال: لا تعد لمثلها، فقد أصاب موسى وما أنا في مقام ذكر الله[14]؟!.

2 ـ فتح الأندلس

اهتمام موسى بردّ ممتلكات إفريقية التي كانت لها على عهد الفينيقيّين:

كانت خطّة الدولة الأموية في المغرب قائمة على استرداد ممتلكات إفريقية القديمة خلف البحار وهي لها حدود طبيعية، وامتلاكها ضروري لسلامة البلاد من الغارة عليها، لذلك شمّر موسى على ساعد الهمّة، بعد أن فرغ من تطويع البربر على استردادها. فأمر دار الصناعة بإعداد مائة مركب، ولما تم تجهيزها دعا عساكره أن يتأهبوا للغزو في البحر وأعلمهم أنه خارج بنفسه معهم، كما حكى عنه ذلك ابن قتيبة في غبّ الناس في الكون معه، ولم يتخلّف شريف ولا عظيم إلا تجنّد وركب الأسطول ولما لم يبق لإقلاعه إلّا رفع الشراع، أمر برمح وعقد عليه لابنه عبد الله ولاية الأسطول، ثم أذنه بالمسير على بركة الله إلى سردينية[15]. وأراد موسى بإعلان خروجه في هذه الحملة، أن لا يتخلّف عنها أحد من أهل الجلد والنكاية والشرف، حتى ركبوا

(14) ابن الأثير ج 4 ص 428، والسلاوي ج 1 ص 44.
(15) ابن قتيبة، المرجع السابق، ج 2 ص 70.

جميعاً. وبذلك سمّيت غزوة الأشراف. ثم سار عبد الله بن موسى بهذه القوة الهائلة وهي أوّل غزوة بحريّة غزاها المسلمون في أوروبا، بعد استقرارهم في إفريقية، وكان بها من الجنود نحو الألف، فحطّ على سردينية وأصاب بها من الروم مغانم كثيرة، ثم عاد منها ظافراً إلى إفريقية.

ولما كتب موسى إلى الوليد بالبيعة استأذنه بإعادة الغزو على السواحل الروميّة، فأذنه بمناوشتهم دون مناجزتهم. فأمر موسى بإخراج الأسطول وقسمه إلى عمارتين: عيّن على إحداهما عيّاش بن أخيل وجعل على الأخرى طريف بن زرعة البربري. سيّر الأول لإشغال صقلية[16] والثاني إلى جزر الأندلس، فشتى ابن أخيل في البحر ثم حطّ على شركوزة، فانتعشت بذلك أحلام الذين كانوا ينتظرون مصير تلك البلاد للمسلمين. ثم عادت العمارة إلى إفريقية، وقد خلفت بها ما لا يعادله دكّ الحصون واستنزال المعاقل. وسار طريف إلى الجزر الجنوبية من الأندلس القريبة من شواطىء المغرب.

وليس موسى، في انتباهه ويقظته، من يغفل عن اتخاذ تلك التدابير وهو العالم بما تضطغنه الأمم النصرانية للإسلام بعد أن دَحَرها في المشرق والمغرب، وإليه أمره وصيانة مقدراته في بلاد المغرب ولا يرتاب في تحفزها إليه عندما يتحيّنون الفرصة. لذلك لم يفتأ عن تعقّبها في تلك الأطراف وإجلاء القوطيين من الأندلس إلى ما وراء جبال البرتات.

وفعلاً فقد نزل طريف بعساكره جزيرة قريبة من ناحية

(16) ابن عذاري، ج 1 ص 36.

المغرب عرفت باسمه إلى هذا العهد أنزل بها مائة فارس وأربعمائة من المشاة المعروفين برماة الحدق، واتخذها قاعدة لأعماله العسكرية في إشغال تلك الجزر.

كانت هذه الغارة البحرية على جنوب أروبة بمثابة إنذار صارخ لسكّان تلك السواحل بأن الحضارة العربية قد أطلّت عليهم مرّة ثانية من أفق المشرق حاملةً لواء النور الإلاهي لا الدُّمى والزجاج التي حملها أوّل مرّة سلفهم من الفينيقيين. وفي ذلك تنبيه لمن حثّهم بها منهم بأن ساعة بعثهم قد اقتربت وأنهم سيعودون أحياء من أرماسهم -التي وأدهم فيها الرومان، فإذا هم قيام ينظرون يستبشرون بنعمة من الله ورضوانه.

وما كان طارق ذلك القائد الجليل الذي رفعه الإسلام إلى منزلة الأبطال وخوّله أسمى مراتب الشرف ليألو جُهْداً في تحقيق تلك الأمنية الإسلامية في بلاد القوط، فقد كان جادّاً على الدعاية لها في دواخل الأندلس بالتشويق والوعود والصلات والمؤازرة في النوائب حتّى أمال الله خلقاً منهم وحبّب إليهم الدخول تحت رعاية الإسلام، فتبادروا إلى موسى بن نصير يستنجزونه الوفاء لهم بذلك. فكانوا ينتظرونه وهم على أحرّ من الجمر.

سعى ذوو الشأن من الأندلسيّين في طلب حماية الإسلام على بلادهم لما رأى عظماء الإسبان ما يتمتع به أهل المغرب من الرفاهية وما أصابوا من حظوظ في السياسة على عهد الإسلام وكفّ أيدي الولاة عن المظالم اغتبطوا بهم وتمنّوا لو تنال بلادهم مثل ذلك ويتخلّصون من عسف ملكهم لذريق[17] وحاشيته.

---

(17) لذريق هو آخر ملوك القوط بإسبانيا، كان أبوه دوق قرطبة تنصبّ عليه غيطشة =

فكتب بذلك الكونت أليان حاكم الجزيرة الخضراء إلى موسى بن نصير (وكانت له سابقة مع عقبة) يلتمس منه التعجيل بإرسال العساكر لاستنقاذ البلاد من حكم القوط وتعهّده بالمساعدة التامّة في ذلك. فكتب موسى إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يستأذنه في ذلك، فردّ عليه الوليد أن لا يعجل، وأن يختبر الأندلس بالسرايا قبل الغزو كي لا يغرّر بالمسلمين أو يورّطهم.

غزو الأندلس ومخالفة طارق لرأي أمير المؤمنين فيما أشار به على موسى:

لما أبطأ جواب موسى على الكونت كتب إلى طارق يدعوه إلى عبور الأندلس بجنوده، حتى لا ينتبه القوط للأمر ويعدّوا له عدّته. فرأى طارق أن الفرصة سانحة، وهو القريب من تلك البلاد يرى فيها ما لا يراه أمير المؤمنين وهو بعيد عنها، وأشفق من انفلات الأندلس من بين أيديهم، وقد أحسن صنعاً بذلك إحساناً لا تعادله الطاعة العمياء في غير منفعة، وأبى أن يعود لمشاورة أميره، خيفة أن يبعث إليه بالإصرار على ترك الفتح، لما يعلم من إيثار أمير المؤمنين ولا يريد أن يفتات عليه في أمر من الأمور. فانتخب اثني عشر ألفاً من المقاتلين وأحضر لهم الكونت أليان مراكب تجارية نقلتهم من العدوة إلى الأندلس، فوجاً بعد فوج، دون أن يشعر القوط بذلك وجاز طارق في أثرهم فنزل

ملك البلاد وسمل عينيه. فثار عليه لذريق وهزمه واستولى على عرش إسبانيا مكانه. فاتفق أولاد غيطشة مع الكونت أليان والي سبتة على الاستنجاد بالعرب وإجازتهم إلى الأندلس. (المؤلف).

فرضة من الأندلس واقعة على جبل هناك دعي باسمه «جبل طارق» وكان ذلك في غضون سنة 92 [711][18]. وبعد ذلك أمر طارق بإغراق المراكب لينقطع بذلك أمل العساكر في الرجوع. ثم قال لهم: «سيروا على بركة الله، لا وقاء لكم بعد اليوم إلا تحت ضباة السيوف، العدوّ قبلكم والبَحر وراءكم، فإما النصر وإما الموت حرقاً أو غرقاً، فاختاروا منها لأنفسكم ما شئتم»[19].

وهكذا جاز طارق بلاد الأندلس وأمر جنوده أن يخترطوا سيوفهم وأن ينادوا بالتهليل والتكبير، وتقدّموا لغزو البلاد إلى أن التقت بهم أجناد القوط ودارت بينهم معارك عنيفة كُتِب فيها النصر لطارق في واقعة حاسمة عرفت بواقعة وادي الطين قتل فيها ملك القوط لذريق[20] في منسلخ الليلة الرابعة من شوال السنة. ثم أرسل فريقاً كبيراً من جيشه إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته، وكان قد استولى قبل ذلك على مدينة استجّة صلحاً. كما أرسل فريقاً آخر لفتح أوريولة جنوب شرقي الأندلس. ومضى طارق بمعظم جيشه مسرعاً إلى طليطلة ليصل إليها قبل أن يتحصّن بها أنصار لذريق.

فأما الجيش الذي سار إلى قرطبة فقد دلّهم راعٍ على ثغرة في سورها فدخلوا منها إلى المدينة وملكوها. وأما الذين قصدوا

---

(18) ابن الأثير ج 4 ص 449، والسلاوي ج 1 ص 43، وابن عبد الحكم ص 73.

(19) أورد هذه الخطبة ابن قتيبة (المرجع السابق ج 2 ص 74).

(20) لا يجزم ابن عذاري بموت لذريق ويكتفي بقوله: «ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثّة، وإنما وجد له خفّ مفضّض فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل، والله أعلم». (البيان ج 2 ص 10).

أوريولة، فلقيهم حاكمها تدمير ومعه عسكر كثير، فقاتلهم عليها قتالاً شديداً ثم انهزم فقُتِل من أصحابه بشر كثير، فأمر تدمير بتجنيد النساء فأجبْنه ولبسن السلاح ثم صالح بعد ذلك على المدينة[21].

وفي الجملة فقد توقّفت جميع الفرق من فتح المدن التي قصدت إليها وانهزم ملك القوط في الأندلس. أما طارق فإنه لما وجد طليطلة فارغة خاوية على عروشها ضمّ إليها اليهود[22] وترك

(21) ابن الأثير، ج 4 ص 446.

(22) لما نزل المسلمون الأندلس حرّروا اليهود من الاضطهاد المسيحي. وقد قصّ علينا دوزي ما كانوا يعاملون به قبل مجيء المسلمين. قال: إن رجال الدين الكاثوليكي كانوا يرهقون اليهود عسراً ويبالغون في إيذائهم واستشهد على ذلك بقول المؤرخ الفرنساوي ميشلي قال: كان الناس في القرون الوسطى كلّما سألوا: لماذا هذا العالم الذي ينبغي أن يكون المثل الأعلى من الفراديس في ظلّ الكنيسة، نراه انقلب جحيماً. أجابتهم الكنيسة: «إن هذا من غضب الله الذي يرى أن قتلة ربّنا لا يزالون وافرين».

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة 616 في أيام الملك سيسبوت وتقرر إعطاء اليهود مهلة سنة ليتنصّروا، فإن لم يتنصروا في خلال تلك السنة نفوا إلى خارج إسبانيا وضبطت أملاكهم وجلد كلّ منهم مائة جلدة فتنصّر منهم تسعون ألفاً من مجرّد الرعب. ولكن المتنصرون لبثوا يخفون أولادهم ويدينون بدين موسى. فقرر مجمع الأساقفة الرابع المنعقد في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لأجل تنشئتهم في النصرانية. ثم في المجمع السادس في طليطلة قرر الأساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك إسبانيا إلا على شرط إنفاذ قرارات المجامع الأسقفية عن اليهود. وبرغم هذا كلّه بقي يهود كثيرون في تلك البلاد. ولكن استمرّ المسيحيّون يعذّبونهم نحواً من ثمانين سنة إلى أن فرغت جعبة اصطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة ودّ البربر في إفريقية ووعدهم هؤلاء بالإجازة إلى الأندلس لأجل نجدتهم. وكان ذلك زمن الملك أجيكا الذي بلغه هذا الخبر، فجمع الأساقفة وبعد أن استوثقوا من صحّة الخبر قرّروا استعباد اليهود بأجمهم وضبط جميع أملاكهم وقضي على=

معهم جنوداً يحرسونهم وسار هو إلى وادي الحجارة فقطع الجبل من فجّ فيه، حتى انتهى إلى مدينة جليقة فاخترقها وانتهى إلى مدينة استرقة ثم عاد إلى طليطلة ووافته إليها الجنود التي كانت معسكرة على استجّة بعد أن فرغوا من المدن التي توجّهوا إليها[23].

فتوحات موسى بن نصير في الأندلس:

وهنا انتبه طارق إلى واجبه فكتب إلى مولاه موسى بن نصير يبشّره بهذه الفتوحات الجليلة التي قام بها في الأندلس. ولمّا وصله كتابه فارق القيروان في رجب سنة 93 [712] وركب إلى الأندلس بعد أن استخلف على إفريقية ابنه عبد الله. وعبر إلى طارق في رمضان السنة ومعه عشرة آلاف مقاتل من خيرة الجنود الإفريقية. وكان على حربه القائد الجليل حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. فلما عبر الجزيرة الخضراء أمر الأدلّاء أن يسلكوا به غير الطريق التي سلكها طارق وقصدوا به جهات لم تُفتح، فساروا إلى مدينة سرفوزة[24] وهي أحصن مدن الأندلس، فتقدّم إليها أليان وخاصّته على حال المنهزمين ومعهم السلاح، فأخلوهم المدينة. فأرسل موسى إليهم الخيل، ففتحوها لهم،

اليهود بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً لهم. ولما جاز المسلمون إلى إسبانيا، كان اليهود في أشدّ العذاب فحرّروهم وأعادوا لهم حريتهم. (المؤلف).

(23) ابن عبد الحكم ص 75، وابن الأثير ج 4 ص 456، والبلاذري ص 331، وابن قتيبة ج 2 ص 75.

(24) بل «قرمونة»، كما أشار إلى ذلك ابن الأثير ج 4 ص 447.

ودخلها المسلمون وملكوها بهذه الحيلة الحربية[25].

ثم سار موسى إلى إشبيلية وهي من أجلّ مدائن الأندلس بنياناً وأفخمها آثاراً، فحاصرها أشهراً وفتحها وهرب مَنْ بها فأنزلها موسى اليهود المضطهدين، كما فعل طارق بطليطلة وسار إلى مدينة ماردة، فحاصرها وقد كان أهلها مستعدّين للقائه فقاتلوه قتالاً شديداً حتّى كمن لهم موسى ليلاً في مقاطع الصخر مع قسم من جنوده ولم يرهم الأندلسيون. فلما أصبحوا زحف عليهم جنود المسلمين خارج الكمين على عادتهم. فصمد لهم الأندلسيّون ولم يشعروا حتى خرج عليهم الكمين من الخلف وأحدقوا بهم وحالوا بينهم وبين المدينة وأحدثوا فيهم قتلاً ذريعاً، ثم دخلوا المدينة وأقاموا بها أشهراً تحت الحصار، فزحف إليهم المسلمون بالدبّابات وثقبوا أسوارها. فخرج إليهم أهلها فقتلوهم جميعاً عند البرج، ولذلك سمّي برج الشهداء. ثم سار إليها موسى ففتحها صلحاً يوم عيد الفطر سنة 94 [يونيو 713] وأحال إلى المسلمين جميع أموال القتلى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقة وأموال الكنائس وحليّها، ثم نكث أهل إشبيلية العهد فاجتمعوا وقتلوا من بها من المسلمين. فسيّر إليهم موسى ابنه عبد العزيز فملكها عنوة وسار عنها إلى كبكة وباجة فملكهما وعاد إلى إشبيلية ثم فتح ماردة[26].

وعقب هذه الفتوحات العظيمة، قصد موسى لقاء طارق في

(25) ابن الأثير ج 4 ص 447.

(26) نفس المرجع.

طليطلة، فخرج للقائه. ويذكر المؤرخون في هذا اللقاء هنات ارتكبها موسى مع قائده لإقدامه على مخالفة أمر أمير المؤمنين، رأينا أن نضرب صفحاً عن ذكرها وأن نكتفي بهذه الإشارة تفادياً من التطويل. ثم توجّه موسى إلى سرقسطة ومدائنها وأوغل منها في بلاد الإفرنج. ولما كان عليها وافاه مغيث الرومي رسولاً من قبل الوليد يأمره بالقفول إليه، فساءه ذلك ومطل الرسول. وهو لا يريد أن يترك شبراً من أرض دخلها جند العدوّ. فسار يغزو ويفتح حتى بلغ صخرة بَلَاي على بحر المحيط[27]. فقدم عليه رسول آخر اسمه أبو نصر لقيه في لكّ بجليقة. فخرج للقائه على الفج المعروف بفجّ موسى ووافاه طارق من الثغر الأعلى فأقفله معه ومضيا إلى المشرق.

وجاء في كتاب بهجة النفس أن المسلمين لما بلغوا مدينة لُوطون لم يتركوا شيئاً من الأندلس لم يتغلّبوا عليه إلا جبال قرقشونة[28] وجبال بَنْبلُونة وجبال قشتالة وهي أفدح غلطة وقعت في تاريخ الفتوحات الإسلامية وكان الاستيلاء عليها ضرورياً. ولو تمّ لقضي نهائيّاً على النصرانية في الأندلس. ولكن العدول عنها جعلها معقلاً حصيناً للصليبيّين وملجأ لجنودهم، يتحصّنون فيه ثم يغيرون منه على البلاد آناً فآناً، وهي تمدّهم من الخلف إلى أن اشتدّ بأسهم فأرحلوا المسلمين عن قسطيلة، ثم ما زالوا يطاردونهم من مكان إلى مكان إلى أن أجلوهم عن الأندلس

(27) نفس المرجع، ص 448.

(28) وهي من البلاد الإفرنسية. (المؤلف).

وأدالوا منهم. وتلك عاقبة الأغلاط، تكون صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً وتعظم إلى أن تصير وبالاً على الأمم.

اتّهام موسى بالخلع وادّعاء الاستقلال:

بينما كان موسى عانياً بالجهاد في فرنسا بعد أن فرغ من الأندلس ومقارعة النصرانية في عقر ديارها وتركيز سلطان الإسلام فيها، كان أعوان الشرّ والهزيمة يمشون في دمشق بالنمائم ونشر الأخبار الكاذبة عن عزمه على خلع الأمويّين. وكان كتب إلى الوليد وهو على طليطلة يبشّره بالفتح مع عليّ بن رباح وسيّر معه وفداً من قوّاد الجنود فوصل إلى دمشق والتهمة مستفحلة في ذهن أمير المؤمنين وازدادت حين أبطأت عليه كتب موسى. فأمر الوليد قاضي المدينة أن يعلن عزل موسى عن الولاية ويدعو عليه دبر كلّ صلاة. ولما وصل الوفد دمشق دخل المسجد لصلاة العصر فسمع القاضي يدعو على موسى، فاعترضه عليّ بن رباح رسول موسى وقال رافعاً صوته: أيها الناس الله في موسى والدعاء عليه! والله ما نزع يداً من طاعته ولا فارق جماعة وإنه لفي خدمة أمير المؤمنين والذبّ عن حرمات المسلمين والجهاد في سبيل الله. وإني لأحدثكم عهداً به، وما قدمت إلا من عنده، وإن عندي خبره، وما أفاء الله على يده لأمير المؤمنين ما تقرّ به أعينكم، ويسرّ خليفتكم.

ولما بلغ خبر الوفد إلى الوليد وأنه آت من قِبَل موسى أرسل إليه يدعوه، فأدخل عليه ثم سأله، ما وراءك؟ فقال: كلّ ما يسرّ أمير المؤمنين، تركنا موسى بالأندلس وقد أظهره الله ونصره وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد. وقد أوفدني إلى أمير

المؤمنين في نفر من وجوه من معه من القوّاد لتبشير أمير المؤمنين. ثم دفع إليه كتاب موسى فقرأه الوليد، فلما أتى على آخره خرّ ساجداً لله تعالى ثم رفع رأسه فأتاه الخبر بفتح كاشمير فسجد مرة أخرى، ثم رفع رأسه فأتاه الخبر عن فتح السند فخرّ ساجداً للثالثة، قال عليّ بن رباح وظلّ ساجداً حتى ظننت أنه لا يرفع رأسه أبداً، ثم جلس للوفد فأكرمه وسمع أخباره وأقرّ موسى على الولاية[29].

سبب رجوع موسى عن متابعة الفتح:

أخبر عبد الرحمان بن سلام وكان من جنود موسى قال: كنت فيمن غزا مع موسى غزواته كلّها فلم ترد له راية قط ولا هزم له جيش. وروى ابن صخران أن أسقفاً من أساقفة الأندلس قال: إنا نجد صفاتك في كتب الحدثان عندنا كأنك صيّاد تصيب بشبكتين. لك رجل في البرّ ورجل في البحر تضرب بهما ههنا وههنا فتصيب. فسرّ موسى بقوله وأعجبه.

وقال عبد الحميد بن حميد: إن موسى لما وغل وجاوز سرقسطة اشتدّ ذلك على عساكره وقالوا: أين تذهب بنا، حسبنا ما في أيدينا. وكان موسى حين دخل إفريقيّة وذكر عقبة بن نافع قال: لقد غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدوّ وهو محيط به عن يمينه وعن شماله، وأمامه وخلفه! أما كان معه رجل رشيد يردّه. فسمعه حبيش الشيباني قال: فلما بلغ موسى ذلك المبلغ، قام حبيش فأخذ بعنان فرسه ثم قال: إني سمعتك أيها الأمير وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرّر بنفسه وبمن معه، أما كان معه

(29) ابن قتيبة ج 2 ص 75-76.

رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم. أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم وأعرض مما آتاك الله عزّ وجلّ من فتح وتدويخ؟ إني سمعت من النّاس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبّوا الدعة. فضحك موسى وقال: أما والله لو انقادوا إليّ لقدمت بهم إلى رومية من هذا الطريق[30].

قفول موسى من الأندلس وقدومه على الوليد:

لما أحسّ موسى بضجر من كان معه من الجيش وقد أمضى في صحبته سنتين في الفتح كرّ راجعاً بهم إلى المغرب، وقبل خروجه من الأندلس أمر بضمّها إلى ولاية إفريقية واستخلف عليها ابنه عبد العزيز[31]. ولما عبر إلى سبتة استخلف على المغرب ابنه عبد الملك. واستخلف على إفريقية وملحقاتها الآنفة ابنه الأكبر عبد الله ثم غادر القيروان سنة 98 [717]. وكانت ولايته لإفريقية على التحقيق اثنتي عشرة سنة قضاها في الفتوح والتأسيس وطبع البلاد على الطابع الإسلامي، وكان معه من بنيه مروان وعبد الأعلى وعبد الملك، ومائة من وجوه العرب وأشرافهم منهم: عياض بن عقبة، وعبد الجبّار بن أبي سلمة والمغيرة بن أبي بُردة، وزرعة بن أبي مدرك، وسليمان بن نجدة، ومائة من وجوه البربر وأمرائهم فيهم أبناء كسيلة وبنو قَصْدَر، ومن دانة ملك السوس وملك ميورقة وعشرون أميراً من أمراء جزر الروم ومائة من أمراء الأندلس من قوطيّين وإفرنج ومعه هدايا ممّا في كلّ بلد من بزها ودوابها وطرائفها، من جملتها عشرون تاجاً

(30) نفس المرجع.

(31) ابن عذاري ج 1 ص 38.

لملوكها محمولة على 130 عجلة، فأقبل يجرّ الدنيا وراءه جرّاً لم يسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به[32].

سعي وليّ العهد سليمان بن عبد الملك في تأخير قدوم موسى على الوليد[33]:

كان قدوم موسى على الوليد وهو في آخر شكاته من وجعه الذي توفي به، فبعث إليه سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على الرملة يأمره أن يتمهّل في مسيره وأن لا يتعجل بالدخول إلى دمشق لأن الوليد بآخر رمقه ليكون أوّل قادم عليه يوم يتولّى الخلافة. فلما أتى موسى الكتاب قال: حببت والله ما غدرت ولا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت، ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حيّاً لم أتخلّف عنه وإن عجلت به منيّته فأمره إلى الله. فرجع الرسول إلى سليمان فأخبره بذلك فقال: لئن ظفرت بموسى لأصلبنّه ولآتينّ على نفسه وهو صاغر.

وصف مقابلة الوليد لموسى بن نصير ومن جاء معه[34]:

كان الوليد ينتظر مقدم موسى وهو في طريقه إليه فكتب إليه يأمره بالعجلة في مسيره خوفاً أن تدركه منيّته قبل أن يقدم عليه وإنه يريد أن يراه. ولم يكن لموسى ما يثبطه عن لقاء الوليد فأقبل حتى دخل عليه في يوم جمعة، والوليد جالس على المنبر في المسجد الأموي وكان موسى أوصى من بحاشيته من الملوك والأمراء أن يلبسوا تيجانهم وثياب زيانتهم، فلبس ثلاثون منهم

(32) ابن قتيبة ج 2 ص 82.

(33) ابن عذاري ج 1 ص 40، وابن عبد الحكم ص 82.

(34) ابن عبد الحكم ص 82. أمّا ابن الأثير (ج 4 ص 458)، فقد ذكر أنّ موسى قد وصل إلى دمشق بعد وفاة الوليد.

تيجانهم وأمر أبناء أمراء البربر أن يتهيّأوا بهيئاتهم وكذلك أبناء ملوك الروم والإسبان أن يتهيّأوا بمثل ذلك فتهيّأوا جميعاً ولبسوا تيجانهم. وأمر برصف الجواهر واليواقيت واللآلىء والزبرجد والجزغ والوضاء والكساء المنسوج بالذهب والمحرش باليواقيت والجواهر، فوقف الجميع بباب الوليد ينتظرون رجوعه. وأقبل موسى بالمتوّجين حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد مكانه على المنبر يخطب وهو موهوق وقد أثرت فيه العلّة وإنما كان متحمّلاً لأجل اقتبال موسى ومن معه. فلما رآهم التفت إليهم وقال الناس بعدما أقلعوا إليه بأعناقهم، موسى! موسى! ثم أقبل حتى سلّم على الوليد ووقف الثلاثون بالتيجان عن يمين المنبر وشماله، ثم أخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر لما أيّده الله به وتصره. ولما انتهى من الخطبة نزل وصلّى بالناس، فلما فرغ من الصلاة جلس ودعا بموسى فأفرغ عليه من الخلع المزركشة ثلاث مرّات وأجازه بخمسين ألف دينار وفرض لولده جميعاً في الشرف وفرض لخمسين ممّن كانوا معه كذلك. ثم رجع الوليد إلى القصر بين صفوف الجنود، ولما دخل القاعة عرض عليه موسى ملوك البربر والروم والإسبان والإفرنج. ثم أدخل عليه من كانوا في معيّته من وجوه البلاد من قريش وغيرهم من العرب فأحسن جوائزهم وفرض لهم في ديوان العطاء. وقد بدت دمشق ذلك اليوم في أبهى حلّة من الزينة وأقيمت فيها قباب الريحان تنويهاً بشأن موسى. وأقام في ضيافة الوليد أربعين يوماً وفي ختامها أدركته الوفاة[35].

---

(35) ابن قتيبة ج 2 ص 90.

عزل موسى بن نصير عن الولاية:

حين أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك بعد وفاة أخيه الوليد طلب موسى فأوتي به فعنّفه بلسانه ومما قاله: أعليّ اجترأت؟ وأمري خالفت، والله لأفلنّ عددك، ولأفرقنّ جمعك، ولأبدّدن مالك، ولأضعنّ منك ما كان يرفعه غيري ممّن كنت تمنّيه أماني الغرور وتخدعه من آل أبي سفيان وآل مروان.

فأجابه موسى: والله يا أمير المؤمنين ما تعتلّ عليّ بذنب سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على ولاء النعمة. فأما ما ذكر أمير المؤمنين من أنه يفلّ عددي ويفرّق جمعي ويبدّد مالي ويخفّض حالي، فذلك بيد الله وهو يتولّى نعمة الإحسان عليّ وبه أستعين. ويعيذ الله عزّ وجلّ أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من مكروه لم أستحقه، ولم يوجب ذنباً اجترمته؟! أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائي، ولا قدر جزائي، وأنا بعيد الأثر في سبيل الله، العظيم الغناء عن المسلمين مع قدمة آبائي مع آبائك ونصيحتي لهم. فأمسك سليمان قليلاً ثم أمر به وكان في يوم صائف شديد الحرّ فوقف تحت العراء وما زال كذلك حتى سقط على الأرض، وعمر بن عبد العزيز حاضر ينظر إلى موسى وقد رآه مغشيّاً عليه وحكي في ذلك فقال: ما مرّ بي يوم كان أعظم عندي، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم الذي رأيت فيه الشيخ موسى وما كان عليه من النجدة وبعد الأثر في سبيل الله وما فتح الله على يديه من الممالك إلى أن قال: فكتمني سليمان، وقال: يا أبا حفص ما أظنّ إلا قد خرجت من يميني؟ فقال عمر: يا أمير المؤمنين شيخ كبير بادن وبه سمنة قد أهلكته

وأنت على ما فيه من السلامة لك من يمينك وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله العظيم الغناء عن المسلمين. قال عمر: والذي منعني من الكلام فيه هو ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه وهو لحوح لجوج. فلما قال لي ما قال: حمدت الله تعالى على ذلك وعلمت أن الله قد أحسن إليه وأن سليمان ندم على ما صنع به[36].

فقال سليمان: من يضمّه؟ فقال يزيد بن المهلّب وكانت له عليه يد من قبل: أنا أضمّه يا أمير المؤمنين. فقال سليمان: ضمّه إليك يا يزيد ولا تضيّق عليه. فانصرف به يزيد وقدّم إليه دابّة ابنه مخلد فركبها موسى وأقام لديه أيّاماً حتى تقارب ما بين موسى وسليمان وحرّرت وثيقة بذلك[37] وبعد التقاضي سأل يزيد موسى

(36) ابن قتيبة ج 2 ص 84-85.

(37) نص وثيقة الصلح: هذا ما قاضى عليه عبد الله سليمان أمير المؤمنين قاضاه على مبلغ أربعة آلاف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وخمسين ديناراً ذهباً يؤديها إلى أمير المؤمنين وقد قبض منها أمير المؤمنين مائة ألف وبقي على موسى سائر ذلك أجّله أمير المؤمنين إلى سير رسوله إلى ابن موسى الذي بالأندلس يمكث بها شهراً وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحداً حتى يقبل راجعاً بالمال إلا ما كان من إفريقية وما دونها. وليس لموسى أن يتكثر بشيء مما كان عليه من العمل منذ استخلف الله أمير المؤمنين من ذمة أو فيء أو أمانة فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه ولا يحسبه موسى من غرامته. فإن أدّى موسى الذي سمّى أمير المؤمنين في كتابه هذا من المال إلى ما قد سمّى أمير المؤمنين من الأجل فقد برئ موسى وبنوه وأهله ومواليه وليست عليهم تبعة ولا طلبة في المال ولا في العمل، يقرون حيث شاؤوا. وما كان قبض موسى أو بنوه من عمال موسى إلى قدوم رسول أمير المؤمنين إفريقية، فهو من الذي على موسى من المال يحسب ممّا عليه، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين فليس منه في شيء. وقد خلّى أمير المؤمنين بين موسى وبين أهله =

كم تعدّ مواليك وأهل بيتك، قال: هم كثير، قال: أيكونون ألفاً؟ قال موسى: نعم ألفاً وألفاً حتى ينقطع النفس. لقد خلفت من الموالي ما أظن أن أحداً خلف مثلهم، قال له يزيد: إنك لعلى مثل ما وصفت وتعطي يدك؟! ألا أقمت بدار عزّك وموضع سلطانك، وبعثت بما قدمت به، فإن أعطيت الرضا أعطيت الطاعة، وإلا كنت على التخيير من أمرك، فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما تناولوا طرفاً من أطرافي إلى أن تقوم الساعة. ولكنّي آثرت حقّ الله ولم أر الخروج من الطاعة والجماعة. ولما تقاضى سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير على ذلك المبلغ من المال أمر سليمان يزيد بن مهلب بتخلية موسى وابنيه والكفّ عنهم.

3 ـ ارتباك أحوال الدولة المروانية في المشرق والمغرب

الدولة الأمويّة في عهد سليمان بن عبد الملك:

لم يكن سليمان في صلفه وعنجهيّته كأبيه عبد الملك في بعد النظر وقوّة السياسة واستقامة الرأي، ولا كأخيه الوليد في الاعتداد بالنفس وحسن التقدير للأمور، بل كان ضعيف الرأي،

= ومواليه وليس له ظلم أحد منهم. غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه ولا شيئاً من الذي قد أباه عليه أول يوم. شهد أيوب بن أمير المؤمنين وداود بن أمير المؤمنين وعمر بن عبد العزيز وعبد العزيز بن الوليد وسعيد بن خالد ويعيش بن سلامة وخالد بن الريان وعمر بن عبد الله ويحيى بن سعيد وعبد الله بن سعيد. كتبه جعفر بن عثمان في جمادى الآخرة سنة 99 هـ [انظر ابن قتيبة، ج 2 ص 93].

وأنت على ما فيه من السلامة لك من يمينك وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله العظيم الغناء عن المسلمين. قال عمر: والذي منعني من الكلام فيه هو ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه وهو لحوح لجوج. فلما قال لي ما قال: حمدت الله تعالى على ذلك وعلمت أن الله قد أحسن إليه وأن سليمان ندم على ما صنع به[36].

فقال سليمان: من يضمّه؟ فقال يزيد بن المهلّب وكانت له عليه يد من قبل: أنا أضمّه يا أمير المؤمنين. فقال سليمان: ضمّه إليك يا يزيد ولا تضيّق عليه. فانصرف به يزيد وقدّم إليه دابّة ابنه مخلد فركبها موسى وأقام لديه أيّاماً حتى تقارب ما بين موسى وسليمان وحرّرت وثيقة بذلك[37] وبعد التقاضي سأل يزيد موسى

---

(36) ابن قتيبة ج 2 ص 84-85.

(37) **نص وثيقة الصلح**: هذا ما قاضى عليه عبد الله سليمان أمير المؤمنين قاضاه على مبلغ أربعة آلاف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وخمسين ديناراً ذهباً يؤديها إلى أمير المؤمنين وقد قبض منها أمير المؤمنين مائـة ألف وبقي على موسى سائر ذلك أجّله أمير المؤمنين إلى سير رسوله إلى ابن موسى الذي بالأندلس يمكث بها شهراً وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحداً حتى يقبل راجعاً بالمال إلا ما كان من إفريقية وما دونها. وليس لموسى أن يتكثر بشيء مما كان عليه من العمل منذ استخلف الله أمير المؤمنين من ذمة أو فيء أو أمانة فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه ولا يحسبه موسى من غرامته. فإن أدّى موسى الذي سمّى أمير المؤمنين في كتابه هذا من المال إلى ما قد سمّى أمير المؤمنين من الأجل فقد برى موسى وبنوه وأهله ومواليه وليست عليهم تبعة ولا طلبة في المال ولا في العمل، يقرون حيث شاؤوا. وما كان قبض موسى أو بنوه من عمال موسى إلى قدوم رسول أمير المؤمنين إفريقية، فهو من الذي على موسى من المال يحسب ممّا عليه، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين فليس منه في شيء. وقد خلّى أمير المؤمنين بين موسى وبين أهله=

كم تعدّ مواليك وأهل بيتك، قال: هم كثير، قال: أيكونون ألفاً؟ قال موسى: نعم ألفاً وألفاً حتى ينقطع النفس. لقد خلفت من الموالي ما أظن أن أحداً خلف مثلهم، قال له يزيد: إنك لعلى مثل ما وصفت وتعطي يدك؟! ألا أقمت بدار عزّك وموضع سلطانك، وبعثت بما قدمت به، فإن أعطيت الرضا أعطيت الطاعة، وإلا كنت على التخيير من أمرك، فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما تناولوا طرفاً من أطرافي إلى أن تقوم الساعة. ولكنّي آثرت حقّ الله ولم أر الخروج من الطاعة والجماعة. ولما تقاضى سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير على ذلك المبلغ من المال أمر سليمان يزيد بن مهلب بتخلية موسى وابنيه والكفّ عنهم.

3 ـ ارتباك أحوال الدولة المروانية في المشرق والمغرب

الدولة الأمويّة في عهد سليمان بن عبد الملك:

لم يكن سليمان في صلفه وعنجهيّته كأبيه عبد الملك في بعد النظر وقوّة السياسة واستقامة الرأي، ولا كأخيه الوليد في الاعتداد بالنفس وحسن التقدير للأمور، بل كان ضعيف الرأي،

= ومواليه وليس له ظلم أحد منهم. غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه ولا شيئاً من الذي قد أباه عليه أول يوم. شهد أيوب بن أمير المؤمنين وداود بن أمير المؤمنين وعمر بن عبد العزيز وعبد العزيز بن الوليد وسعيد بن خالد ويعيش بن سلامة وخالد بن الريان وعمر بن عبد الله ويحيى بن سعيد وعبد الله بن سعيد. كتبه جعفر بن عثمان في جمادى الآخرة سنة 99 هـ [انظر ابن قتيبة، ج 2 ص 93].

قليل التدبير في العواقب، وكان حكمه مشوباً بالذّهل ودخائل النفس وهي التي جعلته يعجل بأكابر رجاله وأعاظم قوّاده أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح المشرق وموسى بن نصير ممهّد المغرب وفاتح الأندلس وعبد العزيز بن موسى بن نصير خلف أبيه على الثغور المواجهة لبلاد الإفرنج ومن إلى هؤلاء من الأكابر الذين رفعوا شأن الدولة ومهّدوا لانتشار الإسلام في تلك الأقطار التي أشغلوها. وأسند مناصبهم للضعفة والعجزة من الرجال العاديّين الذين لم تصقلهم التجارب.

فقد ولّى على خراسان وما وراء النهر أشرس بن عبد الله السلمي سنة 109 [728] وليس له من المؤهلات السياسية إلا أنه كان رجلاً تقيّاً نزيهاً وكانوا يلقّبونه بالكامل، لا همّ له إلا حمل الناس على الإسلام من غير تبصّر في العواقب. فأثار بذلك في ولايته مشاكل كان الواجب أن يكون بمفازة منها. فإنه لما قدم خراسان قال: ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجّهه إلى ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فأشاروا عليه بأبي الصيداء صالح ابن طرف، فلما قدم عليه ولّاه على ما وراء النهر. فاشترط عليه أبو الصيداء من أسلم ترتفع عنه الجزية. وكان خراج خراسان وبلاد ما وراء النهر موظّفاً على الرقاب. فوافقه أشرس على طلبه من غير تدبّر في العواقب. فقال أبو الصيداء لأعوانه: إني خارج للعمل فإن لم يف لي أحد بشرطي أعنتموني عليه. فوافقوه على ذلك. فشخص إلى سمرقند وعليها الحسن بن أبي العمرّطة الكندي. فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فتسارعوا إليه وأقبلوا على الإسلام.

فكتب نموزك أحد ملوك الأتراك إلى أشرس أن الخراج قد انكسر وأن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الدين وإنما دخلوه تعوّذا من الجزية. فكتب أشرس إلى ابن أبي العمرّطة : أن في الخراج قوّة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن، فارفع عنه خراجه.

فامتثل ابن أبي العمرّطة لأمر أميره وأبدى الشدة في ذلك. فتعالت منهم الأصوات بالشكوى. فأمر أشرس برفع يده عن الخراج وصيّره إلى هاني بن هاني وضمّ إليه الأشحذ. فقال ابن أبي العمرّطة لأبي الصيداء: لست الآن من الخراج في شيء، فدونك وهانئاً والأشحذ! فقام أبو الصيداء يمنعهم أخذ الجزية ممّن أسلم. فذهب دهاقين بخارى إلى أشرس يسألونه: ممّن يأخذون الخراج؟ وقالوا قد صار الذين كانوا يؤدونها عرباً (أي مسلمين) وكتب هانىء أيضاً إلى أشرس: أن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد، فممّن نأخذ الخراج؟.

فكتب أشرس إلى هانىء وإلى بقيّة العمال: خذوا الخراج ممّن كنتم تأخذونه منهم. فأعادوا الجزية على من أسلم. فامتنعوا عن أدائها. واعتزل سبعة آلاف ممن تظاهر بالإسلام من أهل الصغد، فنزلوا على 7 فراسخ من سمرقند. وخرج إليهم أبو الصيداء في جماعة من القوّاد وانضمّوا إليهم فاشتدّ بذلك الارتباك فخاف أشرس وأسرع بتنحية ابن أبي العمرّطة عن الجنود، وعيّن مكانه المجشر بن مزاحم السلمي.

ولما رأى أصحاب أبي الصيداء ما نزل به اجتمعوا وولّوا أمرهم أبا فاطمة ليقاتلوا الآمرين بإيجاب الخراج على من أسلم. فقال لهم المجشر: كفّوا الآن حتى أكتب إلى أشرس ويأتينا أمر، فنعمل به وكتب إلى أشرس: فردّ عليه بأن يأخذ الخراج منهم، وأعاد هانئاً إلى عمله وأشرك معه سليمان بن أبي السري. فألحّ هانىء في جباية الخراج واستخفّ بعظماء الترك والعجم وامتهن أكابر الدهاقين وأخذ الجزية من جميع الذين كانوا أسلموا حتى من الضعفاء والمساكين. وبسبب ذلك ارتدّت بلاد الصغد، واستجاشوا الترك، وتشعبت بينهم الفتن إلى أن جلس هشام بن عبد الملك على عرش الخلافة فأمر بتدويخهم. وهكذا كان ضعف السياسة وسوء التدبير سبباً في انحطاط الدولة وزوال هيبتها من المشرق، كما حدث مثل ذلك في المغرب بعد أن بلغت أوج عظمتها في أيام الوليد.

تآمر سليمان بن عبد الملك مع قوّاد إفريقية على قتل عبد العزيز بالأندلس:

بينما كانت الفتن تعصب في المشرق وهي نائمة في المغرب، إذ بلغ عبد العزيز ما فعله سليمان بأبيه لغير سبب، فتكلّم في ذلك بكلام خفيف نقل عنه مبالغاً فيه إلى سليمان، فتوجّس منه شرّاً فكتب إلى جماعة من قوّاد الجيش بالقيروان، حبيب بن عبيدة وابن وعلة التميمي وسعد بن عثمان بن ياسر، وعمرو بن زياد اليحصبي، وعمرو بن كُثير، وعمرو بن شرحبيل: كتب إلى كلّ واحد منهم يعلمه بما بلغه عن عبد العزيز بن موسى وما همّ به من الخلع، وأعلمهم أنه كتب إلى عبد الله بن موسى

يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز وأعلمه أنه إنما دعاهم إلى ما أحبّ من مكانفته لأنه بإزاء العدوّ، وأعطاهم العهود أن من قتله منهم فهو أمير مكانه.

وكتب إلى عبد الله بن موسى أني نظرت فإذا عبد العزيز بإزاء عدوّ يحتاج فيه إلى الغناء والبلاء، فسأل أمير المؤمنين عمّن ينجده بهم، فأخبر أن معك رجالاً منهم فلان وفلان ذكرهم بأسمائهم، فاشخصهم إلى عبد العزيز.

وكتب سليمان إلى عبد العزيز: أما بعد فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيله من العدوّ وحاجتك إلى الرجال أهل النكاية والغناء، فذكر له أن بإفريقية رجالاً منهم، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك. فولّهم أطرافك وثغورك واجعلهم أهل خاصّتك. ثم عاد سليمان وكتب إلى أولئك القواد: أني وطأت لكم الأمور وبعثت بكتاب إلى الأندلس بالسمع والطاعة لكم. فإذا ولّاكم أطرافه فاقرأوا عهدي على من قبلكم من المسلمين ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه[37].

تنفيذ هذه المؤامرة الفظيعة:

فلما قدم الكتاب على عبد الله بن موسى بإفريقية لبّى الأمر وهو يجهل ما فيه من كيد. وأشخص القوّاد إلى الأندلس. فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بكتاب سليمان وهم في إلطاف وإكرام. فقرّبهم عبد العزيز وأدناهم وحباهم وقال لهم: اختاروا أيّ نواحيّ وثغوري شئتم. فضربوا الرأي بينهم وقالوا: إن نحن قبلنا ذلك ثم رجعنا إليه من أطرافه لم نأمن أن يستميل معه

(37) ابن قتيبة، ج 2 ص 95-96.

جمهور الناس وفي يديه الأموال والقوة من مواليه وغيرهم ولكن ينبغي إعمال الرأي الآن في الفتك به. وقال قائل منهم: إن ههنا رجلاً إن دخل معنا استقام لنا الأمر ووصلنا إلى ما أردنا. وهو أيوب بن حبيب بن أخت موسى، فلقوه وراودوه على مواطئتهم، وقالوا له: إن قتلته فأنت الأمير مكانه، فقبل وبايعوه على ذلك. ثم إنهم أتوا عبد الله بن عبد الرحمان الغافقي وهو يومئذ سيّد أهل الأندلس صلاحاً وفضلاً فكاشفوه بأمرهم ثم أقرأوه كتاب سليمان. فقال لهم ناصحاً: لقد علمتم يد موسى عندكم جميعاً كبيركم وصغيركم، وإن ما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه الرجل ولم ينزع يداً من الطاعة ولم يخالف فيستوجب القتل. وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى. فأطيعوني ودعوا هذا الأمر. فأبوا ومضوا على رأيهم وأجمعوا على قتله. فوقفوا له يوماً حتى خرج لصلاة الصبح ودخل المحراب وأحرم وقرأ فاتحة الكتاب ثم استفتح يقرأ سورة «الواقعة» فضربه حبيب بن أبي عبيدة ضربة (فدهش) ولم يصنع شيئاً. فقطع عبد العزيز الصلاة وخرج. فتبعه المتآمرون حتى قتله ابن وعلة التميمي. فذهب عبد العزيز شهيد الظلم وسوء السياسة، رحمه الله.

وأضحى الناس ولا حديث لهم إلا اغتيال الأمير المظلوم وقد أعظموا ذلك. فأخرج القتلة كتاب سليمان بذلك لتبرير موقفهم. ولكن الشعب ظلّ ساخطاً على فعلتهم فلم يحفل أحدٌ بالكتاب وأجمع الناس على استفظاع الجريمة. واتّفقوا على البيعة لعبد الله بن عبد الرحمان الغافقي[38]. وخفّ القتلة من

(38) ابن قتيبة، ج 2 ص 96-97.

الأندلس مع حبيب بن عبيدة برأس عبد العزيز إلى سليمان بن عبد الملك. ولم يلبث سليمان أن كشف عن أمر عبد العزيز فألفى ما بلغه باطلاً، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة. فندم على تعجله بالأمر وأبى أن يلاقي وفد القتلة. فأخرجوا من الشام دون أن ينظر في شيء من حوائجهم، وأسقط عن موسى بقيّة المال الذي كان قاضاه عليه. وكان يقول: ما ندمت على شيء ندمي على قتل عبد العزيز، ويميني على أن لا أولّي موسى شيئاً من ملكي، ما مثل موسى أستغني عنه! ولخوفه من عبد الله ابنه على ما صنع بأبيه وأخيه عزله عن الولاية وولّاها عبد الله بن كريز[39].

4 ـ ولاة إفريقيـــة
(بعد عزل عبد الله بن موسى)

ولاية عبد الله بن كريز على إفريقية وملحقاتها[40]:

قلّده سليمان بن عبد الملك الولاية بعد عزله عبد الله بن موسى فدانت له بالطاعة ولم يختلف عليه اثنان. وكانت ولايته

(39) نفس المرجع، ص 98-99. ولكن ابن قتيبة روى أن سليمان كان يقول: «ما ندمت عن شيء ندامتي أن لا كنت خلواً من اليمين على موسى في أن لا أوليه شيئاً. ما مثل موسى أستغني عنه».

(40) لقد أشارت المصادر القديمة إلى أنّ الذي تولّى على إفريقية بعد عزل عبد الله ابن موسى بن نصير، هو محمد بن يزيد القرشي. انظر ابن الأثير ج 4 ص 39، وابن عبد الحكم ص 86، وابن عذاري ج 1 ص 44، والسلاوي ج 1 ص 46. وورد ذكر عبد الله بن كريز في «المؤنس» لابن أبي دينار، الطبعة الثالثة، ص 38.

مترامية الأطراف من برقة إلى السودان والمغرب وبحر الزقاق إلى بلاد قشتالة من أرض الأندلس. وانقطع في عهده شغب النصارى وثيار البربر فمنهم من دخل في الإسلام ومنهم من أطاع وضربت عليه الجزية فأداها.

وكانت إفريقية يومئذ بها كثير من النصارى من أهل الذمّة حافظوا على نصرانيتهم إلى ما بعد المائة الرابعة ثم أسلموا جميعاً ولكن الديانة الغالبة كانت هي الإسلام.

ولاية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[41]:

واستمرّ عبد الله بن كريز في ولايته إلى أن توفّي سليمان بن عبد الملك[42] وتخلّف عمر بن عبد العزيز فنحّاه وولّى مكانه إسماعيل بن عبد الملك بن عبد الله بن أبي المهاجر[43] مولى بني مخزوم، وكان كأميره بارّاً تقيّاً عادلاً. وتعدّ ولايته من أجمل أيام الدهر على إفريقية وملحقاتها. وقد امتاز عهده الميمون بنشر العلم والتهذيب وتوزيع الفقهاء والمعلّمين على البلاد واستقدم لهذه الغاية الشريفة طائفة من فقهاء التابعين انتهت إليهم الإمامة والرئاسة في العلم وحفظ السنة واللغة وأيام العرب، أمدّه بهم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وكانوا عشرة قدموا برئاسة أبي عبد الرحمان عبد الله الحُبْلي ومنهم عبد الرحمان بن نافع التنوخي وسعيد بن مسعود التجيبي[44]، وأبو عبد الرحمان عبد الله

(41) جاء في رواية ياقوت في المعجم ابن أبي الهواجر. (المؤلف).

(42) توفّي سليمان بن عبد الملك سنة 99 هـ /717 م.

(43) ابن عبد الحكم ص 87، وابن الأثير ج 4 ص 40، وابن عذاري ج 1 ص 45، والبلاذري ص 331.

(44) ابن عذاري ج 1 ص 45-46.

ابن يزيد العامري وحيان بن حَبْلة القرشي وموهب بن جبير المعافري وطلق بن جَامَان الفارسي وبكر بن سواد وزياد بن أنعم أبو عبد الرحمان وإسماعيل بن عبيد المعروف بتاجر الله. وقد فتح الله بهم على إفريقية أضعاف ما فتحه السيف، فإنهم أقرّوا الدين في نصابه وأعادوا السيف إلى قرابه، وحلّ العلم والاجتهاد محلّ الجلاد والطراد، حسبما نقلته الأخبار ودلّت عليه الكتب والآثار، ناهيك بما بلغت إليه القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وإشبيلية من الشهرة وبعد الصيت في العلم والمعرفة وما كان لعلماء هذه الأمصار من التعمّق في حل عويصات المسائل والتبحّر في الفنون والتأليف فيها، وغير ذلك من المقوّمات لمعنويّات الإسلام وإرساخها في البلاد. وفي أخريات أيام هذا الأمير أخرج قائد أسطوله محمد بن أوس لمعاودة غزوة جزيرة صقلية، فنال من سواحلها ثم عاد إلى إفريقية ظافراً يحمل أكاليل النصر.

ولما تمهّدت الأمور في إفريقية والأندلس، عاد الأمير إسماعيل إلى المشرق واستخلف بعده محمد بن يزيد الأنصاري[45]، ولم يؤثر عنه شيء جدير بالذكر لقصر أيام ولايته، غير توليته الحرّ بن عبد الرحمان القيسي على الأندلس.

ولما توفّي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[46] واستخلف

---

(45) رأينا أن المصادر القديمة تشير إلى أن محمد بن يزيد قد تقلد ولاية إفريقية قبل ابن أبي المهاجر. (انظر الإحالة رقم 40).

(46) توفي عمر بن عبد العزيز سنة 101 هـ /719 م وقدم يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية سنة 102 هـ/720 م.

بعده يزيد بن عبد الملك، ندب إلى ولاية إفريقية يزيد بن أبي مسلم.

ولاية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجّاج[47]:

كان يزيد من أشدّ الولاة عصبيّة وأكثرهم تشيّعاً لمذهب الحاكميّة العربية وكراهيّة المضيّ على سياسة التشريك والمساواة التي ألفها سكّان هذه البلاد من الولاة السابقين فشرع في تغييرها وأخذ في تجريد الأفارقة ممّا كان لهم من حقوق وضمانات منذ تعلقوا بالإسلام.

كان يزيد قبل أن يتقلّد ولاية إفريقية، تقلب في مناصب كثيرة بولايات العراق على عهد رجل الدولة والسياسة الفذّ الحجّاج بن يوسف الثقفي إلى أن ارتقى إلى مرتبة الوزارة، وورث منه عزمه ونشاطه في إدارة السياسة وولاية الأحكام في الولايات. فأراد إرجاع معاملة من أسلم من أهل الذمة في إفريقيّة إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام، كما صنع أستاذه في العراق، فردّهم إلى رساتيقهم وقراهم ووضع الجزية على رقابهم. فلما شرع يزيد في ذلك بإفريقية تآمر عليه مسلمو البربر فقتلوه وأعادوا إلى الولاية سلفه ابن يزيد الأنصاري لمُمَالأته لهم. وكان على بعض الفرق من الجنود. وكتبوا بذلك إلى يزيد بن عبد الملك وقالوا في كتابهم: إنّا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يُرضي الله والمسلمين فقتلناه وأعدنا عاملك السابق مكانه. فكتب إليهم يزيد يداورهم ويصانعهم: إني لم

(47) انظر ابن عذاري ج 1 ص 34، وابن عبد الحكم ص 214.

أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم. وأقرّ ابن يزيد على الولاية. ولما سكنت الثائرة صرفه عنها وعيّن مكانه بشر بن صفوان الكلبي[48].

ولاية بشر بن صفوان بن نوفل الكلبي:

لم يستقرّ بشر بن صفوان في ولايته إلا مدّة يسيرة درس فيها حال الأهالي وما أحدثته فيهم تدابير السياسة العنصرية، حتى رجع إلى المشرق سنة 105 [723] للاتفاق مع ولاة الأمور في دمشق على اتخاذ طريقة صالحة يجري عليها في حكم البلاد، فبلغته وهو في الطريق وفاة يزيد بن عبد الملك وولاية أخيه هشام الخلافة. وكان من أشدّ الخلفاء الأمويّين تصلّباً في أمر العنصرية وحاكمية العرب. فردّ بشر إلى عمله، بعد أن زوّده بالأوامر المتعلّقة بتنسيق السياسة العنصرية في جميع الولايات[49].

ويرى هؤلاء المروانيّون أن المساواة في الحقوق السياسية ضعف تدبير يفضي إلى فناء العنصرية العربية في العناصر الأخرى الداخلة في الإسلام بالنظر لكثرة أمم الأعاجم وقلة العرب. ولم يجدوا لوقايتهم من هذا الخطر الداهم غير تحصينهم بالامتيازات وجعلهم عنصراً متفوّقاً في الدولة. ومهما كان لهذا التغيير من مبرّرات، فقد كان شديد الوقع في نفسيّة تلك العناصر وغير بعيد أن يتحوّل ذلك إلى قلق يجتثّ أسس الوحدة الإسلامية التي تركّز فيها نظام الإسلام.

---

(48) قدم بشر بن صفوان إلى إفريقية سنة 103 [721].

(49) انظر ابن عذاري ج 1 ص 48، وابن عبد الحكم ص 90، والسلاوي ج 1 ص 47.

لـذلـك كـان الإقـدام على هـذا الانقـلاب في شكـل الديمقراطية الإسلامية من الخطورة بمكان، إذ يجعل كلّ عنصر يعمل للانفصال وطلب الانفراد بكيـانه. وهـذا لم يفت نظر السوّاس المروانيّين، بل هم الذين أقدموا عليه ورأوه أهون شرّ من انتزاع الدولة من أيدي العرب. وإنما اعتمدوا في ذلك على الكفـاح وحسبوا أن منطق القوّة الغاشمة يقطع كلّ خلاف. وقد كانت لهم خطة أخرى هي أدنى للسلامة وضمان السيادة، خطّة التعريب التي شرع فيها عمر بن عبد العزيز ومشى عليها ابن أبي المهاجر، وهي خطّة الإسلام نفسه. لكن ما الحيلة والعرق كما قيل دسّاس، والعرب يأنفون أن يغمر عنصريّتهم الموالي.

ذلك مذهب يزيد بن عبد الملك الذي رسمه للسياسة المروانية، بعد أن استوحاه عن يقين من تقارير الولاة، بكثرة إقبال الأعاجم على الإسلام والتعرّب، وتبعه في ذلك عن بصيرة ثابتة أخوه هشام.

عاد بشر إلى إفريقية وكان يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى في تنفيذ خطّة محفوفة بالمصاعب وهو يعوقه عنها أمران:

الأول: ضعف حجّته في إقرار ما لا يرى فيه الناس مساغاً من شريعتهم التي استحوذت على قلوبهم عن إيمان وبصيرة بصلاحيتها لأنفسهم وفيه من النصوص المحكمة ما يكفي لردّ هذه الخطة الهوجاء.

والثاني: الخوف من إيقاظ الفتنة النائمة باسم العنصريات، وقد أطفأها الله بالإسلام. فتهيّب الصراحة بذلك وفضل التكتّم إلى أن مات سنة 109 [727] واستخلف بعده على الولاية ابن

قرط الكلبي[50]، وكان عصبيّاً صليب الرأي مغامراً عكس ما كان عليه بشر من مسايرة ولين. فأظهر أحقّية العرب في التفوّق والامتياز بالوظائف والعطاء. وتهاون بحقوق البربر، فأحدث مسلكه اضطراباً وقلقاً في البلاد. ولما بلغ خبره هشاماً عجّل بعزله لمنع الفتنة وولّى عبيدة دون أن يحدث تغييراً في السياسة.

ولاية عبيدة بن عبد الرحمان السلمي:

قدم عبيدة وهو ابن أخي أبي الأعور السلمي في صفر سنة 110 [728][51] ولم يعدل عن اتّباع السياسة العنصرية بل ألحّ فيها وأشغل الأفارقة عن معارضته بصرف اهتمامهم إلى الفتح في الخارج، فأمر قائده المستنير بن الحارث بالخروج في الأسطول لغزو صقلية. فمكث إلى أن أدركه الشتاء، فأصابته ريح فيها إعصار فأغرقت المراكب ولم ينج منها إلاّ مركبه، ألقته الزوبعة على طرابلس. فعدّ عبيدة ذلك تقصيراً من القائد تسبّب عنه فقد الأسطول والأرواح، فكتب إلى عامله في طرابلس بالقبض على المستنير وإرساله مسجوناً إلى القيروان. ففعل ولما وصل شهّر به وألقاه في السجن، جراء تفريطه وإهماله واستمرّ في سجنه إلى أن تقلّد الولاية عبيد الله بن الحبحاب، فأطلقه وولاّه على تونس[52].

(50) وهو نُغَاش بن قرط الكلبي، حسبما ذكره ابن عبد الحكم ص 91، وفي رواية أخرى، العبّاس بن باضعة الكلبي، ابن عذاري ج 1 ص 48.

(51) ابن عبد الحكم ص 91، وابن عذاري ج 1 ص 49، وابن الأثير ج 5 ص 108.

(52) ابن عبد الحكم ص 92.

فتوح المسلمين في بلاد الإفرنج

بالغارات إلى أن يكون قد حضر هو بنفسه بمعظم الجنود. فوقع من عثمان على منافس شديد يناوئه في الإمارة، ولم يكن مرتاحاً إلى عمل يبتدئه عبد الرحمان وينال به حسن الذكر. وقد انضاف إلى حسده غرامه بمفليجة ابنة أود دوق أكيتانية، التي سباها في إحدى غاراته على فرنسا وكانت فاتنة فائقة الجمال فتزوّجها وعقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها الدوق على بلاده من غارات العرب[55].

فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمان الغافقي إلى عثمان بن أبي نسعة بالزحف إلى دوقيّة أكيتانية ومناجزة صهره، وقع في حيص بيص، وكتب إلى الأمير في ذلك قائلاً: إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضائه. فغضب عبد الرحمان من تلكّؤ عامله من الزحف وأفهمه أن العهد الذي قطعه من تلقاء نفسه للفرنساويّين دون موافقة أميره عليه لا يعدّه موثقاً له تترتب عليه حقوق، وأن عليه أن يمتثل أمره ويخرج للجهاد بدون مراجعة.

عند ذلك قطع عثمان أمله من صدّ عبد الرحمان الغافقي عن الغارة في بلاد حميه، فقلب ظهر المجنّ وأرسل إلى حميه

---

(55) لم يشر المؤلف إلى المراجع التي استقى منها هذه الرواية. إذ أن جميع المصادر المعروفة تذكر أن الذي صاهر أود وتحالف معه هو زعيم بربري يدعى «مونوسة» (انظر د. حسين مؤنس، المرجع المذكور ص 250-251). أما عثمان بن أبي نسعة الخثعمي فقد عيّنه عبيدة بن عبد الرحمان والياً على الأندلس من شعبان 110 هـ/ نوفمبر - ديسمبر 729 م إلى ذي القعدة 111 هـ/ يناير - فبراير 730 م. (المرجع المذكور، ص 213).

ينذّره بذلك ليأخذ حذره. فبلغ عبد الرحمان خبر هذه الخيانة من عثمان فأرسل جيشاً إلى باب جبال البرانس (البرنيت) بقيادة ابن زيدان وأمره إن تمكّن بالقبض على عثمان وإرساله إليه ليرى فيه رأيه، وإن أبى الطاعة يهدر دمه.

فوصل ابن زيدان بعسكره بغتة إلى مقرّ عثمان وهو ينوي القبض عليه، ففرّ هذا منه إلى الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته الإفرنسية التي كان لا يفارقها ولا يصبر عليها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في إثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرّق عنه أصحابه في تلك الأوعار ولم يبق معه أحد إلا زوجته الحسناء، فدافع عنها وعن نفسه دفاع الأبطال، حتى وقع قتيلاً جزاء بغيه[56]. وكانت هذه الواقعة الغرامية التي تغلّب فيها الحبّ على الواجب من الوقائع المؤسفة في حروب الفتوحات الإسلامية وهي واقعة في سنة 113 هـ وفي سنة 730 م.

خروج عبد الرحمان للجهاد:

ولمّا وصل خبر مصرع عثمان إلى دوق أكيتانية علم أن الحرب واقعة لا محالة فتأهب للدفاع عن بلاده، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال البرانس اندلاق السيول من الأعالي، لا يقف أمامه شيء إلا كسحه، فاستولوا على الأراضين من نافارا إلى بوردو وأخذوا هذه المدينة عنوة. ولما فرغ الأمير

---

(56) يبدو أن هذه الرواية مشكوك في صحّتها. فقد أشار ابن القوطية (تاريخ افتتاح الأندلس ص 20) إلى وجود عثمان بن أبي نسعة في الأندلس في مدة ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي. ومن المعلوم أن هذا الوالي قد تقلد ولاية الأندلس من سنة 125 إلى سنة 127 هـ (745-746 م).

عبد الرحمان الغافقي من فتح بوردو تقدم إلى الشمال فوجد دوق أكيتانية في طريقه صامداً لقتاله يحاول صدّه في مضيق دردون، غير أن غزوات المسلمين لا يقف في سبيلها شيء، فانهزم أود وفرّ مع فلوله وانقطع أمله في الملك فالتجأ إلى شارل مارتيل ملك الإفرنج يستصرخه رغم ما كان بينهما من عداوة مكينة لردّ الغارة الإسلامية على النصرانية، فبادر شارل لإجابته، لأن مصير أوروبا كان مرتبطاً بمصير فرنسا في هذه الحرب، فلو تغلّب فيها المسلمون لما وقفوا دون سواحل بحر البلطيق، فامتدّ الصريخ في كلّ فرنسا وزحفت مقاتلة النصرانية من كلّ صوب، وانضم الجمع تحت لواء شارل مارتيل. وقد كان حين هجم المسلمون على الجنوب الغربي من فرنسا بقيادة موسى بن نصير، رأى غير هذا الرأي: فقد فزع إليه يومئذ أمراء الإفرنج وشكوا له ما حلّ بهم من إقدام المسلمين على امتلاك بلادهم، وأوضحوا له العار الذي يلحق بهم من كون جيش كالجيش العربي مجهّز بأسلحة خفيفة يتغلّب على جيوش شائكة بأثقل الأسلحة! فأجابهم: دعوهم الآن يفعلون في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذي يجرف كلّ ما يقف في وجهه، وهمّ اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعاً، ومن إقدامهم حصوناً، لكنهم بعد أن تمتلىء أيديهم من الغنائم وبعد أن يألفوا نعيم الحضر ويستولي الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق في صفوفهم، حينئذ نزحف إليهم ونتغلّب عليهم ونترك جمعهم شريداً ودفاعهم حصيداً.

ولما بلغه في هذه المرّة ما حدث بين العرب والبربر من الخلاف والتوتّر بشأن السياسة العنصرية، لم يتردّد في حربهم.

فتقدم إليه العرب إلى أن وصلوا إلى قريب من مدينة تور. وهناك علم الأمير عبد الرحمان الغافقي أن جيشاً عظيماً زاحف لقتالهم ودفعهم. وكان عبد الرحمان رضي الله عنه مع شدّة بأسه وغرامه بالحرب وولوعه بالفتح، عاقلًا حازماً بصيراً في العواقب بعيد النظر في الأمور السياسية ففكّر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم والأسلاب لكنه خاف من إغضاب جنوده فيما لو حاول أن يكرههم على ذلك، وقد تفتّر همّتهم وتلفس[57] نفوسهم، فرجع عن عزمه معتمداً في ذلك على ما تأمّل في نفوسهم من شجاعة وصبر.

وكان رحمه الله يحاول بعد تدويخ فرنسا أن يجتاز منها إلى إيطاليا وألمانيا فالقسطنطينية ويلحق جميع هذه الممالك بحكم الإسلام. فتقدّم غير آبه لعدوّه وأخذ تور عنوة بمشهد من جنود شارل مارتيل وخيّم بساحتها.

معركة بلاط الشهداء:

وفيما تقول المصادر الأروبية أن الجيشين التقيا بين تور وبواتيه، وكان الأمير عبد الرحمان الغافقي هو المهاجم، فدارت بينهما المعركة مدة طويلة قبل أن يترجح النصر لأحدهما على الآخر. ولما رأى عبد الرحمان أن الخلل قد بدأ يتمشى في صفوف جنوده وخاف الهزيمة، ألقى بنفسه في وسط المعمعة يصطليها بهمّته ودخل بين صفوف الأعداء أنفسهم يغامر بحياته مغامرة الجندي الباسل إلى أن خرّ هناك شهيد العظمة والكرامة الحربيّة فوق بلاط الشهداء.

---

(57)يقال لفست تلفس لفساً، إذا غثيت. (المؤلف).

ذكر مؤرخونا أن سبب الهزيمة هو أن الجنود كانوا وضعوا غنائم في المخيّم وراءهم، فانحرف فريق من جند الإفرنج وهاجموا المخيّم فخاف العرب على غنائمهم. وبينما كانت المعركة دائرة وهي في أشدّ معمعاتها، ترك عدد كبير من فرسانهم ساحة القتال وذهبوا لحماية الغنائم. وبذهاب هؤلاء خفّت كفّة المسلمين في ميدان القتال، حيث كان الميزان منتصباً، وكان أقلّ شيء يرجّح كفّة الواحدة على الأخرى. لهذا حسب عبد الرحمان كما قلنا للغنائم حسابها وخاف أن تكون سبباً لبوار العرب، ومن المقدور أن وقع ما يخافه. ويقول مؤرخو النصرانية: أنّ عدد قتلى المسلمين في هذه الواقعة المحزنة كان 360.000، وهو بعيد التصديق وإنما هو ضرب من الدعاية والتهويل.

فلما رأى المسلمون مصرع قائدهم الجليل نزل بهم الوهن، وخمدت جمرة بأسهم، فأذرع الفرنساويون فيهم القتل وطرحوا منهم بالعراء ألوفاً، وما زالوا يعملون السلاح في أقفيتهم إلى أربونة. وروى لنا المقري في نفح الطيب أن هذه النكبة حصلت في رمضان سنة 114 وفي سنة 732 م [أكتوبر][58]، وكانت كما لا يخفى من أشأم وقائع التاريخ الإسلامي.

ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى إفريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فأسرع عبيدة السلمي أمير إفريقية بتدارك الأمر فقلّد عبد الملك بن قطن الفهري ولاية الأندلس خلف فقيد الإسلام الأمير عبد الرحمان الغافقي وأنفذ معه جيشاً كثيفاً لرأب

(58) المقري، نفح الطيب، ج 2 ص 59.

صدع ذلك الثغر وبعث إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك يخبره بالفاجعة.

مواصلة الغزو بعد معركة البلاط:

لما علم هشام بن عبد الملك بتلك الأنباء المؤسفة شمر عن ساعد الجدّ للأخذ بالثأر وأمر بتكرار الغزو على فرنسا وأخذها بالسيوف من كلّ ناحية. ولكن أنّى له بذلك وجند المسلمين في الأندلس مهزوم، وفتنة العنصرية مشتعلة في إفريقية؟!.

ومع ذلك فقد تمكّن عبد الملك بن قطن عقب وصوله إلى الأندلس من تدارك صدع تلك الهزيمة. فإنه سار بالجنود إلى البرنيت ودوّخ من كان به من العصاة واستردّ معظم البلاد التي فتحتها سيوف المسلمين. وقدم يوسف[59] عامله على أربونة على جيش الفتح. فاتفق هذا مع مورند دوق مرسيليا سنة 734، وبعد هذا الاتفاق زحف المسلمون بجيش جرّار وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة أرل، وأنزلوا ديار الرسل والعذراء على الطاعة وهدّموا ضريح سان سيزر ثم تقدّموا إلى أواسط بلاد البروفانس وحاصروا مدينة برتيا المعروفة اليوم بسان ريمي واستولوا عليها وساروا منها نحو أفنيون. وحاول جند الأفينيُونيّين صدّهم في ممرّ دوارنس، فلم يتوقّفوا بعد أن ذلّل المسلمون كلّ ما كان أمامهم من العقبات. وظلّت جنودهم رابضة في البروفانس بضع سنوات.

ولما أتيح هذا النصر المبين لعبد الملك بن قطن في

(59) الغالب على الظن أن يوسف الفهري هو الذي تقلّد ولاية الأندلس فيما بعد. (د. حسين مؤنس، المرجع السابق ص 278).

الأرض الفرنساوية عاد ظافراً إلى جبال البرنيت.

وفي أواخر سنة 114 [732] خرج عبيدة السلمي من القيروان لاحقاً بالشام، وحمل معه هدايا كثيرة من الجواري المتخيّرة والإماء وكانت عدّتهن على ما أطبق عليه المؤرخون 700، فضلاً عن الخصيان والعبيد والخيل والدوابّ وكلّ طريف من الأواني والحلي النفيسة من الذهب والفضة واللآليء. واستخلف حين انصرافه على إفريقية وملحقاتها عقبة بن قدامة التجيبي. ولما لقي أمير المؤمنين استعفاه من الولاية فأعفاه. وكتب إلى عامله بمصر بولاية عبيد الله ابن الحبحاب على إفريقية وملحقاتها، وكان يومئذ على خراج مصر.

6 ـ صراع العرب والبربر

ولاية عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول[60]:

كان عبيد الله بن الحبحاب نبيلاً جليلاً، بدأ كاتباً صغيراً في ديوان الرسائل ثم تقلّب في مناصب الخلافة إلى أن تقلّد ولاية الخراج في مصر، ثم تناهت به الرئاسة إلى الولاية على إفريقية وهي من أعظم ولايات الخلافة المروانية، واجتمع له فيها ما لم يجتمع لأحد قبله، وصارت القيروان على عهده عاصمة لعدّة ممالك تابعة لها في إفريقية وأُروبا فساسها في أوليات عهده بدراية وحكمة، وتولّاها بعزيمة وهمة. ولم ينكسه شيء من الفطانة والحذق غير تصلّبه في تنفيذ أمر سياسة الحاكمية العربية

(60) قدم عبيد الله بن الحبحاب إلى إفريقية سنة 116 هـ/734 م.

رجل، فلم يزل يغاورهم ويقاتلونه حتى هلكوا جوعاً، وترامت طائفة منهم على الطاعة وبقي الملك في ثلاثين رجلاً، وكان عيشهم بالعسل يستخرجونه من شقوق الصخرة، فتركهم المسلمون شفقة لهم. وقالوا يومئذ: ثلاثون علجاً، ما عسى أن يكون أمرهم؟ وليتهم أتوا عليهم، فإن معظم النار من مستصغر الشرر، ولو أنهم فعلوا ذلك لقضي الأمر في الأندلس ولبقيت بلداً إسلامياً إلى الأبد.

وفي أيام عقبة حصّن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق حتى ضفاف نهر الرون وشحنوها بالمقاتلة وفي ذلك الوقت أعادوا المعارك في بلاد دوفينية، وخربوا بلدة سان بول المعروفة بالثلاثة قصور، ودونيزير، واحتلوا مواقع أخرى بالأندلس وأصبحت جميع البلاد المجاورة لمدينة فيين (VIENNE) على ضفّتي الرون تابعة لهم.

ولكي ينال المسلمون ثأرهم في بلاط الشهداء، احتلوا مدينة ليون من جديد وبثّوا منها الغارات على بلاد برغونية. فأخذ شارل مارتيل يتأهب لقتالهم وقد كان واتاه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت قائمة عليه فسرح أخاه شلدبراند بجيش إلى ليون وأرسل يستصرخ ملك اللومبارديّين لقتال المسلمين، فجاء شلدبراند وحاصر المسلمين في أفنيون وتبعه شارل مارتيل بنفسه بجيش جديد، وجاء ملك اللومبارديين بجيش ثالث من إيطاليا فاستولوا على أفنيون عنوة واستأصلوا من كان بها من المسلمين. وتقدم بعد ذلك شارل مارتيل إلى أربونة، وكان عليها من قِبَل عقبة بن الحجاج هرثمة. فلما وصل الخبر

بذلك إلى عقبة أرسل جيشاً في البحر لنجدة حامية هذه البلدة. فتقدم إليها شارل مارتيل وقاتل من بها من المسلمين قتالاً عنيفاً ثم ارتدّ عنها صاغراً بعد أن خرب مدناً كثيرة. ومع ذلك فإن سيادة المسلمين على بلاد البروفانس بقيت على حالها لم تتغيّر إلى أن داهمتها أساطيل إفريقية في عهد حملات المسلمين منها على فرنسا.

ولما عاد عقبة بن الحجاج إلى سرقسطة جاءه الخبر بأن البربر ثاروا في إفريقية، وتلقى أمراً من عبيد الله بن الحبحاب بعبور البحر وأولاه قيادة الجيش الذي سيّره لقمع الثورة. فعبر طنجة واشتدّت بوصوله عزائم العرب في إفريقية، فأسند أمر الأندلس إلى عبد الملك بن قطن فانتهز الأشتوريون ظهور القلق في إفريقية وخرجوا من جبالهم وطردوا العرب الذين يلونهم. فزحف إليهم عبد الملك بجيش وهزمهم ولما أخمدت ثورة البربر، رجع عقبة إلى الأندلس، وكان قد ضعف، فكتب إلى أمير إفريقية باستخلاف عبد الملك بن قطن ومات ودفن بقرطبة[61].

وبعد أن اطمأن عبيد الله بن الحبحاب على الأندلس، أخرج حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازياً بلاد السودان من وراء السوس بعد أن بلغ الصحراء الكبيرة وملك أهمّ المدن التي مرّ بها في طريقه. فسيّره عبيد الله سنة 117 [735]

(61) دامت مدة ولاية عقبة بن الحجاج من سنة 116 هـ/734 م إلى سنة 123 هـ/741 م.

على الأسطول إلى جزيرة سردينية ففتح منها حصوناً كثيرة، ولما قفل عنها سيّره لفتح صقلية فحطّ عليها سنة 122 [740]، وكان معه ابنه عبد الرحمان بن حبيب، فجعله على الخيل وسيّره للفتح فظفر بكلّ من لقيه، ثم قصد مدينة سركوزة فنصب عليها الحصار إلى أن صالحه أهلها على الجزاء والطاعة ثم عاد إلى أبيه.

وكان حبيب عقد العزم على أن يرابط على صقلية إلى أن يملكها جميعاً، ولكن القلاقل التي حدثت في المغرب بسبب اشتداد فتنة السياسة العنصرية دعته إلى الرجوع عن عزمه والإسراع بتلافيها. فقد كتب إليه ابن الحبحاب يدعوه إلى إفريقية، بسبب الارتباكات الحاصلة فيها[62]. فإنه لما نفّذ الشطر الأول من السياسة العنصرية فيما يتعلق بالوظائف والعطاء، شرع في تطبيق الشطر الثاني وهو تخميس أعشار البربر. فانتدب لذلك عمر بن عبد الله المرادي وألحقه بولاية إسماعيل، فجدّ في الأمر وزعم أن البربر فيء المسلمين وهو ما كان يتحاماه جميع الولاة الذين تداولوا على هذه الولاية قبله منذ جلوس يزيد بن عبد الملك على عرش الخلافة إلى أيام عبيدة[63]. فعقد البربر عزمهم على الاحتجاج على هذه السياسة الجائرة أمام ولاتهم، فلم يسمعوا صراخهم، فولّوا وجوههم شطر أمير المؤمنين، بعد أن كانوا من أطوع الناس للولاة وأبعد ما يكونون على الانشقاق منذ تيامنوا بالإسلام في عهد موسى بن نصير.

---

(62) ابن عذاري ج 1 ص 54، وابن الأثير ج 5 ص 141.

(63) ابن عبد الحكم ص 94-95، والسلاوي ج 1 ص 48-49، وابن الأثير ج 5 ص 141، وابن عذاري ج 1 ص 52.

شكوى البربر إلى هشام من عسف الولاة

لم يكن للمنازع السياسيّة المتوثبة في المشرق التي أثارتها أحزاب الخوارج والشيعة أدنى تأثير في البربر، بل كانوا يصدّون عنها ويمنعونها أن تصل إليهم، مع أن رسل الثوار لا ينفكون عنهم ولا عن دعوتهم إلى الانضمام إليهم وافتتانهم في طاعتهم بما كانوا يلاقونه في عهد هذا الانقلاب، وهم يردّون عليهم بأن لا يخالفون أيمتهم بما يجتني العمال ولا يحمّلون وزر ذلك عليهم. فيقولون: ويلكم وهل يعمل هؤلاء بغير أمر أولئك؟!.

فيردّون عليهم: هذا قولكم ونحن لا نريد مخالفتهم حتى قبورهم. لذلك أجمعوا أن يبعثوا وفداً إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك يرفع إليه ظلامتهم ويطالب بإنصافهم. فانتخبوا من بينهم 17 رجلاً وخرجوا في أربعين وكان بين المنتخبين رجال خرجوا قبل ذلك إلى المدينة المنوّرة وتلقوا العلم عن أكابر التابعين وهم: مَيْسرة بن مطغري الحقير[64]، ومغرور بن طالوت، وطريف البرغواطي، فقصدوا الشام، ولما وصلوا دمشق طلبوا الدخول على هشام وانتظروه سنة كاملة وهو لا يجيبهم حتى يئسوا من لقائه. فأتوا الأبرش الكلبي وزيره وقدموا له عريضة ذكروا فيها شكواهم قالوا فيها:

إن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب، أنفلهم دوننا وقال: هم أحقّ به. فقلنا: ذلك أخلص لجهادنا. لا نأخذ منه شيئاً إن كان لنا فهم منه في حلّ، وإن لم يكن لنا لا نردّه.

(64) ابن خلدون، العبر (طبعة دي سلان) ج 1 ص 150.

وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخّر جنده. فقلنا لبعضنا: تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد والمثوبة. ومثلكم من كفى إخوانه. فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم.

ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السّخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد. فاحتملنا ذلك وخليناهم وما يريدون. وقلنا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين؟.

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة من بناتنا وتخميس زكاتنا. فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنّة، ونحن مسلمون. والآن أحببنا أن نعلم: أذلك عن رأي أمير المؤمنين أم لا؟ فقال الأبرش: أفْعَل إن شاء الله، فلما ملّوا الانتظار ولم يأذن لهم هشام كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنّا فأخبروه. ثم ودّعوهم ورجعوا إلى إفريقية يقصّون على إخوانهم ما لقوه في دمشق من الإخفاق.

ولما عادوا انتحلوا مذهب الصفرية وبايعوا ميسرة بن مطغري بالخلافة وتعاهدوا على قتال العرب ككفّار مرتدّين عن الإسلام. وقاموا يدعون البربر للثيار فتداعوا إليهم من كلّ صوب مسلمهم وكافرهم. فتقدّم بهم ميسرة وقصد طنجة فقاتلهم عمر ابن عبد الله المرادي فقاتلوه واستولوا على المدينة[65]. ثم زحفوا إلى السوس وعليه إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب فقتلوه.

(65) ابن عذاري، ج 1 ص 52.

ولما وصل خبر هذه الثورة إلى هشام ورفعت إليه أسماء الثوّار فإذا هم من أعضاء الوفد الذين وفدوا إليه وأبى أن يلاقيهم.

حرب العرب والبربر التي أثارتها المسألة العنصرية في إفريقية:

ثم استتبعت هذه الفتنة العمياء حروب بين العرب والبربر، وقد هلك فيها منهم خلق لا يحصى وتعطّلت بسببها الفتوحات وزاد في ضرامها هشام وأعوانه بإصرارهم على تنفيذ تلك السياسة مهما كلّفهم الأمر.

ولما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل ابنه وعامله كتب إلى قائد جنوده، حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري يأمره بالإقلاع عن صقلية والأخذ بالحركة إلى تونس[66] وندب جيوشه في البرّ وسيّرها بقيادة خالد بن حبيب الفهري إلى أرض البربر وأوصاه بالنكاية في الذين التفّوا حول ميسرة بن مطغري. ولما وصل حبيب أردفه به فتقدّم خالد حتى عبر وادي شلف ومضى إلى أن لقي جيش ميسرة قرب مدينة طنجة فوقع بينهما قتال عنيف لم يسمع بمثله كان فيه الفوز للبربر على العرب. وانهزم خالد بصورة فظيعة وعاد ميسرة إلى طنجة. ولكن البربر استنكروا سيرته فقتلوه وولّوا أمرهم خالد بن حميد الزناتي.

ولما سمع خالد بن حميد بقدوم خالد بن حبيب ومعه حماة العرب خفّ إلى لقائه وكان بينهم قتال عصيب صبرت فيه العرب صبر الكرام. وظهر خلفهم كمين من البربر ضاعف تلفاتهم فانهزموا من الموقف وكره خالد بن حبيب أن يتبعهم أمام البربر

(66) ابن عذاري، نفس المرجع، وابن عبد الحكم ص 94.

فدعا إليه من العرب من أنف الحياة، فتقدّموا إليهم في ثلّة قليلة وصبروا للقائهم إلى أن قتلوا جميعاً وفقد العرب بمقتلهم أهمّ قوّادهم وأكبر حماتهم[67].

ولما انتشرت أخبار هذه الواقعة الفاجعة انتقضت البلاد وخرج الأمر من أيدي الولاة واختلطت الأمور على عبيد الله بن الحبحاب وانتقض عليه من أطاعه من البربر، ولما بلغ ذلك إلى هشام بن عبد الملك قال: لأغضبنّ للعرب غضبة مضرية ولأسيّر جيشاً للبربر يكون أوّله عندهم وآخره عندي[68]. وكتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالشخوص إليه. فخرج إلى دمشق في جمادى الأولى سنة 123 [741] وعيّن هشام بدله كلثوم بن عياض القشيري.

ولاية كلثوم بن عياض القشيري:

سيّر هشام من دمشق عامله الجديد على إفريقية كلثوم بن عياض وسيّر معه جيشاً عدّته 12000 مقاتل[69] وكتب إلى جميع البلدان التي على طريقه بالمسير معه إلى إفريقية، فوصل في جيش لجب وعلى مقدّمته ابن عمّه بلج بن بشر وكان فضّاً بذيئاً. ولما خرج أهل القيروان يستقبلونه لقيهم بالجفاء والتكبّر. وأراد إنزال العساكر الذين جاءوا معه في منازلهم. فكتب أهلها إلى حبيب بن عبيدة وكان مرابضاً على مجاز وادي شلف بمقربة من

(67) ابن عذاري ج 1 ص 54-55، وابن عبد الحكم ص 94-95، وابن الأثير ج 5 ص 142.

(68) ابن الأثير ج 5 ص 142.

(69) ابن عذاري ج 1 ص 56.

تاهرت يشكون إليه بلجاً وكلثوماً، فكتب حبيب إلى كلثوم يقول: إن بلجاً ابن عمك فعل كيت وكيت فمُرْه بالرحيل عن القيروان وإلاّ رددنا أعنّة الخيل إليك.

فكتب كلثوم يعتذر إليه وسأله أن يقف على وادي شلف إلى أن يوافيه. ثم سار إلى حبيب وعلى مقدمته بلج بن بشر فاستخفّ بحبيب وانتقصه وجرى بينهما نزاع وقال: هذا الذي يحوّل أعنّة الخيل إلينا؟ فقام إليه عبد الرحمان بن حبيب وقال: يا بلج هذا حبيب فإن شئت فاعرض له. فتصايح الناس: السلاح! السلاح! وكادت تنشب بينهم الفتنة لولا أن تداركها العقلاء وفصلوا بين الجندين. لكن بقيت الأحنة كامنة في الصدور وهي التي كانت سبباً في هلاكهم جميعاً زيادة عما جرّه ضعف رأي كلثوم وبلج في تدابيرهما الحربية والسياسية، ولذلك تُمْنَى الدول حين اندبارها بالضعَفة وذوي الهزال العقلي.

سار كلثوم إلى وادي سبُو في ثلاثين ألفاً من خيرة الجنود فيهم عشرة آلاف من صرح الأمويّين والباقون عرب أقحاح من أصَلاب مختلفة[70]. فنهد إليهم خالد بن حميد الزناتي فخفّ بلج للقائهم فتقدم إليه الصفرية من البربر عراة الأجسام، فأكبّوا عليه ساعة واحدة حتى هزموه واتبعوه إلى معسكر كلثوم فناشبهم القتال وكانوا يتعاورون الانتصار أيّاماً حتى انكشفت خيل العرب والتفت الرجال بالرجل فقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وسليمان بن أبي المهاجر وغير هؤلاء من وجوه القوّاد وأمراء العرب[71]، وبلغ عدد

---

(70) ابن عذاري، المرجع السابق.

(71) ابن عذاري، نفس المرجع، وابن عبد الحكم ص 98-99.

قتلى العرب في هذه الواقعة الأليمة ثمانين ألف مقاتل. وانهزم من بقي منهم، فذهب جند الشام إلى الأندلس وجند مصر إلى إفريقية وخلا بعد هؤلاء الجوّ للبربر، فكانت فتنة عظيمة تقلّص على إثرها ظلّ الدولة المروانية من إفريقية والمغرب ولم تقم لها فيهما قائمة بعد.

تعيين حنظلة بن صفوان الكلبي على ولاية إفريقية وملحقاتها:

لما بلغ هشاماً مقتل كلثوم وانهزام جنوده أمام عصبيّة البربر التي أثيرت فتنتها في الإسلام، ندب إلى إفريقية عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي أخا بشر، فجدّ إليها السير حتى وصل إلى القيروان في ربيع الأول سنة 124 هـ [742](72).

فبعث إليه أهل الأندلس أن يرسل إليهم عاملاً، فوجّه إليهم أبا الخطّار حُسَام بن ضِرَار الكلبي بأمر من هشام، فسار في البحر من تونس إلى الأندلس. ولم يطل مكث حنظلة بالقيروان حتى زحفت إليه الصفريّة(73) من البربر في فلين عظيمين أحدهما بقيادة عكاشة الخارجي والثاني بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهوّاري، وكان افتراقهما من الزاب. أخذ عكاشة على طريق مجّانة فنزل القيروان. وأخذ عبد الواحد على طريق الجبال وكان على مقدمته أبو قـرّة المغيلي. فرأى حنظلة أن يبدأ بقتال عكاشة قبل أن يلتحق به

(72) ابن عبد الحكم ص 102، وابن الأثير ج 5 ص 143.

(73) هم أتباع زياد بن الأصفر وقولهم في الجملة كقوله الأزارقة في قتال المسلمين كفراً وإباحة دمائهم. وقد قاتلهم عبد الله بن زياد في أيام يزيد بن معاوية حتى ظفر بهم ولم تنطف جمرتهم بالمشرق حتى اشتعلت بالمغرب على أيدي البربر. (المؤلف).

عبد الواحد الصفري فزحف إليه بجنوده وكانوا على تعبئة حسنة فالتقوا بالمكان المعروف بالقرن من جبل وسلات ودار بينهما قتال شديد فانهزم عكاشة بمن معه وقتل من البربر ما لا يحصى وعاد حنظلة إلى القيروان خوفاً عليها من عبد الواحد وسيّر إليه جيشاً عظيماً عدتهم 40.000(74). فلما قاربوه لم يجدوا شعيراً لخيولهم فأطعموها حنطة ثم لقوه من الغد، فانهزموا من عبد الواحد وعادوا إلى القيروان. وهلكت دوابّهم بسبب أكل الحنطة، فلما وصلوا نظروا وإذ قد هلك من خيولهم 20.000 فرس(75).

وسار عبد الواحد فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع كان يعرف يومئذ بالأصنام وقد اجتمع لديه 300.000 مقاتل، فحشد إليه حنظلة كل من كان بالقيروان من المسلمين وفرّق فيهم السلاح والمال فكثر جنوده. فلما دنا الخوارج مع عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القيروان وتصافّوا للقتال. وخرج علماء المسلمين يحضّون جنود حنظلة على الجهاد وقتال الخوارج ويذكّرونهم بما سيفعلونه بالنّساء من السبي وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل، فكسر الناس أغماد سيوفهم وخرج النساء من خلفهم يحثثنهم فدبّت الحمية فيهم وحملوا على الخوارج حملة الكواسر وثبت بعضهم لبعض فاشتدّ اللزام وكثر الزحام وصبر الفريقان لبعضهم إلى أن انهزم الخوارج والبربر وكثر الارتياث فيهم وانتصر العرب عليهم انتصاراً ظاهراً وتبعوهم إلى جلولاء يقتلونهم وهم لا يعلمون أن عبد الواحد قد قتل حتى حمل رأسه إلى حنظلة بن صفوان، فخرّ

---

(75) حسب رواية ابن الأثير ج 5 ص 144.

الناس سجّداً لله تعالى. وقد قال المؤرخون إنه لم يقتل في أي حرب من حروب الفتوح أكثر من هذا، فقد أمر حنظلة بإحصاء القتلى فعجز الناس عن عدّهم حتى عدّوهم كيلا بالقصب فكان عدد القتلى 180.000، وأسر عكاشة وحمل إلى حنظلة فأمر بقتله وأراح بذلك الناس من شرّه، وكانت هذه الواقعة في سنة 124 هـ [742](76).

ونقل عن الإمام الليث بن سعد قوله: ما غزوة كنت أحبّ أن أشهدها بعد غزوة بدر أحبّ إليّ من غزوة الأصنام والقرن(77). وبعد هذه الكارثة المهولة كتب حنظلة بن صفوان إلى هشام يبشّره بالنصر الذي أحرزه على البربر. ولكن كان من ورائه تفكّك وحدة المسلمين وزهد العناصر غير العربية في الإسلام وانصراف بعضها عنه.

نتائج سياسة التفوّق:

لقد كانت هذه السياسة من أشأم ما أخرجه المروانيّون من النتائج، ولا شكّ أنها كانت اجتهاداً خاطئاً، والغريب أنهم كانوا يعلمون أن من ورائهم أحزاب الشيعة والخوارج لا يلقون من أعمالهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها ولهم دعاة هدّامون يمشون بآرائهم في البلدان، تحت ستار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيّ شيء أشدّ في إثارة الحفائظ على المروانيّين من إنكار حقّ الناس في المساواة؟ فقد كانت الدعاية بذلك بمثابة النار تلقى في الهشيم،

(76) حسب رواية ابن الأثير ج 5 ص 144-145.

(77) انظر ابن الأثير ج 5 ص 145، وابن عذاري ص 64.

فقد عجلت بتقويض الدولة الأموية من الأساس وهي في شرخ الشباب والقوة وألوت عنها القلوب في فارس وبلاد الترك والتتر والبربر.

سمعنا فيما قدّمنا شكاية البربر في إفريقية تصطخب في دمشق على عهد هشام، ونسمع شكاية الخراسانيّين تتعالى بها أيضاً ولكن في سنة 100 [719] على عهد عمر بن عبد العزيز، وقد وفد إليه ثلاثة رجال: اثنان عربيان والثالث تركي اسمه سعيد أخو خالد، فلما تقدّموا إلى أمير المؤمنين تكلّم العربيّان والتركي ساكت. فقال له عمر: ما أنت من الوفد؟.

قال: بلى يا أمير المؤمنين،

قال: فما يمنعك من الكلام؟

فقال: عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق! ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج! وأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا يقول: أتيتكم حفياً وأنا اليوم عصبي، والله لرجل من قومي أحبّ إليّ من مائة من غيرهم. وهو يُعَدّ سيفاً من سيوف أمير المؤمنين.

فقال عمر: مثلك فليوفد!

وكتب من ساعته إلى الجرّاح عامله على خراسان بإنصاف الأعاجم. وقال: انظر من صلّى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية، وأجْرِ للمقاتلين أعطياتهم. فسارع الناس إلى الإسلام. فقيل للجرّاح إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام وإنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان. فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر يسأله رأيه. فردّ عليه أن الله بعث محمّداً داعياً ولم يبعثه خاتناً. فكلّ من ادّعى

الإسلام فصدّقوه. ولكن هل كان هذا التساهل من عمر مرضياً لأهل خراسان؟ الحقّ أنهم لا يريدون إلّا ما كان يريده البربر، يريدون الاستقلال، وما كانت شكواهم في الحقيقة إلا تقيّة وستاراً.

سوء مناوي البربر مع العرب كما يذكرها العرب عنهم:

ذكر المؤرّخ ابن القطّان أن البربر لما أقدموا على ثورتهم ضدّ العرب اتفقوا فيما بينهم، على قسمة إفريقية وسبي النساء العربيّات وافتكاك أموال العرب واستعباد رجالهم. ولذلك خفّوا إلى مهاجمة القيروان في 300.000 مقاتل إسوة في ذلك بالكاهنة وكسيلة من قبلها. ولكن العرب هزموهم وقتلوهم شرّ قتلة وعصموا أنفسهم ونساءهم وأموالهم من الاستباحة والتلف.ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله.

انفصال إفريقية عن الدولة الأموية:

لم يستقرّ الأمر لحنظلة بن صفوان الكلبي في إفريقية بعد انتصاره في القيروان. والبربر كالعرب لا يمسكون عن الأخذ بالثأر، وقد أفنت الحروب معهم أجناد العرب. وقلوب السكان التوت عن الطاعة للمروانيّين. فقد خرج على حنظلة عبد الرحمان بن حبيب ابن أبي عبيدة الفهري، فرحل إلى المشرق وترك له البلاد فالتفّ حوله العرب ومن بقي على إسلامه من البربر فدخل بهم القيروان سنة 129 [747] وأعلن فيها استقلاله عن الدولة المروانية لمنع انقسام البربر عن العرب. ومما ساعده على ذلك اشتغال المروانيّين بمناهضة الفتن الناشبة في المشرق التي أثارها عليهم الخوارج والعباسيّون. ولكن البربر لم يطابقوا العرب في إفريقية على ما كانوا

يريدون من تأسيس حكومة إقليمية تنهض بمصلحة البلاد دون نظر إلى تفرقة بين العناصر، بل كانوا يريدون تأسيس حكومة بربرية محضة لا شائبة فيها للعرب.

كلمة جامعة عن الدولة الأمويّة للإمام ابن حزم الأندلسي:

وصفها الإمام وصفاً موجزاً مختصراً لكنه كان جامعاً فقال عنها: كانت دولة عربية على علاّتها لم يتخذوا قاعدة ولا قصبة. إنما كان سكنى كل منهم داره وضيعته التي كانت له قبل خلافته. ولا كلّفوا المسلمين أن يخاطبوهم بألفاظ العبودية والملك، ولا بتقبيل أرض ولا رجل. أنما كان غرضهم فتح الممالك وضبط الملك والتولية والعزل في داني البلاد وأقاصيها، في الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والشام والحجاز واليمن والعراق وخراسان وأذربيجان وبلاد اللاّن والجبل والترك والصين والهند وعُمَان وحضرموت وسائر بلاد الدنيا.

7 ـ ظهور أديان بربرية لمناهضة الإسلام والعرب في إفريقية[78]

طريف البرغواطي وأتباعه:

إن إخفاق الثورة البربرية عن ملاحقة العرب والتخلص من سلطانهم على البلاد قد فتح مصارع الكيد في أدمغة دهاة البربر لمناهضة الإسلام قبل العرب، كما فعلوا بالنصرانية، بعد أن أحاطوا بأسباب إخفاقهم وتبينّ لهم أنها دينية محضة، وأن العرب إنما تفوّقوا

(78) يعتمد المؤلف هنا رواية ابن عذاري، ج 1 ص 60-61.

عليهم بالدين الذي امتلك قلوب الكثيرين منهم فأرادوا نبذه وأن يتّخذوا لأنفسهم ديناً يعزّزون به وطنيّتهم ويستغنون به عن الإسلام. وبذلك يتخلصون من حكم العرب.

ومن أعظم دهاتهم الذين كانوا يرون هذا الرأي طريف البرغواطي[79] الذي أسلفنا ذكره في وفد البربر إلى هشام، فإنه بعد موقعة العرب مع ميسرة بن مطغري الحقير على طنجة ذهب إلى بلاد تمسنة وانقطع بها لوضع الدين وترتيب عقائده وأحكامه. ولما أتمّ كتابته سلمه لابنه صالح وأمر أن يحمل البربر عليه.

ولما كان الوقوف على تاريخ هذه النحلة يهمّ تاريخنا القومي من الوجهتين العلمية والسياسية، رأينا أن نستعرض بعض الإفادات عنه، وهي مقتبسة من [كتاب] أبي صالح زمّور بن موسى ابن هشام بن وَارْدزين البرغواطي، كتبه إلى أمير المؤمنين الحكم المستنصر الأموي، وهو من أئمة هذه النحلة ومتولّي صلاتها ولا ينبئك مثل خبير. وكان قد أُرسِل من قِبَل مولاه أمير برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي يحيى محمد بن معاد ابن اليسع بن صالح بن طريف البرغواطي في شوال سنة 352 هـ [963].

أخبر زمّور: أن طريفاً أبا ملوكهم احتلّ بلاد تمسنة، وكان إذ ذاك ملكاً لزناتة وزواغة، فقدّمه البربر على أنفسهم وولي أمرهم. وكان يُظهر الإسلام إلى أن هلك فخلفه ابنه صالح وكان

(79) هو طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق، انظر البكري، المسالك والممالك، ص 135.

مع أبيه في حرب ميسرة الحقير وهو صغير ويعرف بالعلم والنباهة. فتنبأ فيهم ودعاهم إلى دين برغواطة. وادّعى صالح أنه أنزل عليه قرآنهم الذي يقرأونه. (قال زمّور): وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرآن محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلّمه شرائعها وفقّهه في أحكامها. وأمره ألّا يظهر ذلك إلّا إذا قوي وأمن. وخرج صالح إلى المشرق ووعد أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجّال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلّي خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وتكلّم لهم في هذا النحو كلاماً كثيراً نسبه إلى موسى، وإلى سطيح الكاهن وإلى ابن عبّاس، وزعم أن اسمه في العربية صالح، وفي السريانية مالك وفي الأعجمية عالم وربْيَة وفي البربرية وِرْيَاوري (أيّ الذي ليس بعده شيء).

(قال زمّور): فتولّى إلياس الأمر بعد خروج أبيه. وكان يظهر الإسلام ويخفي النحلة التي عهد إليه بها أبوه خوفاً وتقيّةً. وكان طاهراً عفيفاً لم يتلبّس بشيء من الدنيا إلى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة وترك جملة من الولد منهم يونس. فتولى الأمر بعد أبيه وأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل في سبيل نشرها خلقاً كثيراً، وقتل من صنهاجة خاصّة في وقعة واحدة ألف وغد[80].

(قال زمّور): ورحل يونس إلى المشرق وحجّ ولم يحجّ أحد من أهل بيته قبله ولا بعده، ومات يونس بعد أن ملك 44 سنة

(80) الوغد عندهم المنفرد الذي ليس له أخ ولا ابن عمّ، وذلك في البربر قليل، وإنما أحصوا الأقلّ ليستدلوا به على الأكثر. (المؤلف).

وانتقل الأمر عن بنيه بقيام ابن عمّهم ابن غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف عليهم، فاستولى على الملك بدين آبائه واشتدّت شوكته وعظم أمره وكانت له وقائع كثيرة في البربر مشهورة قال عنها أبو عبيد البكري: «لا تنسى مع الأيام»، منها واقعة تيمغيسن وكانت مدينة عظيمة أقام القتل في أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى الخميس حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم ومنها وقعته بموضع يقال له بَهْت، عجز الإحصاء عن عدّ من قتل فيها.

(قال زمّور): وكانت لأبي غفير من الزوجات 44 وكان له منهنّ من الولد عددهن. ومات أبو غفير بعد أن ملك 29 وذلك سنة 300 [912] وولي الأمر بعده من بنيه عبد الله أبو الأنصار وكان سخيّاً ظريفاً يفي بالعهد ويحفظ الجار ويكافىء على الهدية بأضعافها. ومن أوصافه أنه كان أفطس شديد الأدمة ناصع البياض طويل اللحية وكان يلبس السراويل ويلتحف عليها ولا يلبس القميص ولا يعتمّ إلا في الحرب. ولا يعتمّ أحد في بلده إلا الغرباء. وكان يجمع جنده وحشمه في كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله. فتهاديه القبائل وتتألّفه. فإذا استوعب هداياهم وألطافهم فرّق أصحابه وسكنت حركته. فملك بهذه السياسة 42 سنة في دعة ولما هلك دفن في مِسْلاخة وبها قبره.

وولي بعده من بنيه ابنه منصور بن عيسى بن أبي غفير وهو ابن 22 سنة وكانت ولايته سنة 341 [952]، فسار بسيرة أبيه، ودان بديانتهم، واشتدّت شوكته، وعظم سلطانه. وكان أبوه وقاه قبل موته بموالاة خلفاء الأندلس وكذلك كان يوصي جميعهم المرشح للملك من بعدهم.

وحكى عنه زمّور أنه قال: يا بنيّ أنت سابع الأمراء من أهل بيتك وأرجو أن يظهر صالح بن طريف في عهدك كما وعد.

النحلة البرغواطية:

أساسها الإقرار بالنبوّات والتسليم بنبوّة صالح بن طريف ونبوّة جميع الذين تولّوا الأمر من بعده من ولده، وأن الكتاب الذي أخرجه لهم وحي من الله تعالى، لا يشكّون فيه. وقد فرض فيه عليهم صوم رجب، وحرّم صوم رمضان، وأوجب خمس صلوات في اليوم، وخمس صلوات في الليلة، والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم، وجعل الوضوء غسل السرّة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرّات والأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين. وفرض عليهم بعض الصلوات بالإيماء من غير سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، يسجدون ثلاث سجدات متصلة، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر. وطريقة إحرامهم في الصلاة أن يضع المصلّي إحدى اليدين على الأخرى ويقول بالبربرية: (إبسمن يَكْش) باسم الله، (مقرياكِش) الكبير الله ثم الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ثم يقول المصلّي: (مقرياكش) 25 مرّة (والحسن يالش) مثل ذلك ومعناه الواحد الله، و(أرْدِمْ ياكِش) معناه ليس مثل الله شيء. ويجمعون يوم الخميس ضحى النهار. وفرض عليهم صيام يوم من كل جمعة، وصيام الجمعة الأخرى التي تليه أبداً، وليس عندهم في الصلاة آذان ولا إقامة. وتعرف عندهم أوقات الصلاء بزُقاء الديك ولذلك حرّموا أكله ويلعقون بصاقه

تبرّكاً ويستشفون به مرضاهم. وجعل عليهم من الضرائب العشر من جميع الحبوب. ولا يأخذون من المسلمين شيئاً. وأباح لهم في الأنكحة أن يأخذوا من النساء ما استطاعوا مُبَاعَلتهنّ والإنفاق عليهن بلا عدّ ولا حدّ. وحرّم عليهم تزوّج بنات الأعمام إلا بعد ثلاثة جدود. كما حرّم عليهم التسرّي ومناكحة المسلمين. وأباح لهم أن يطلّقوا ويراجعوا ما أرادوا. وجعل لهم حدوداً جعل فيها حكم السارق القتل إما بالإقرار أو بالبيّنة. ورجم الزاني ونفي الكاذب (ويسمّونه أمغيرْ) والديّة عندهم مائة من البقر. وحرّم عليهم أكل رؤوس جميع الحيوانات وأكل السمك ما لم يذكّ وأكل البيض. أما الدجاج فمكروه إلا في حالة الاضطرار.

أما الكتاب الذي دعا إليه صالح بن طريف فهو مشتمل على 80 سورة أكثرها منسوب إلى أسماء الأنبياء المعروفين من لدن آدم، أوّلها سورة أيوب وآخرها سورة يونس. وفيه سور أخرى كسورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة ياجوج وماجوج وسورة الدجّال وسورة العجل وسورة هاروت وماروت وسورة طالوت وسورة نمروذ وما أشبه ذلك. وفيه سور أخرى بأسماء الحيوانات وهي: سورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش الذي يمشي على 8 أرجل وسورة عجائب الدنيا.

وهاكم نموذجاً من قرآنهم معرّباً من أوّل سورة أيوب: «باسم الله الذي أنزل الله به كتابه إلى الناس ليبيّن لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية. أبى الله ليس يطيق إبليس كما يعلم الله. أي شيء يغلب الألسن في الأقولة؟ ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه أبا اللسان الذي أرسل به الحق إلى الناس. أعني

ما مات. انظر محمّداً كان حين عاش استقام الناس كلّهم الذين صحبوه ولما مات فسد الناس. كذب من يقول: إن الحقّ يستقيم وليس ثمّ رسول الله». وهي سورة طويلة. ومن عقائدهم الإيمان بالعلم العظيم وليس بعده شيء.

ثم تكلّم زمّور عن القبائل التي اعتنقت هذه النحلة وسمّاها وعدّ منها: جراوة وزواغة والبرانس وبني أبي ناصر ومنجصة وبني أبي نوح وبني واغمر ومطغرة وبني بورغ وبني درّ ومطماطة وبني زكْسِنْت وبرغواطة وهي وحدها تزيد على 10.000 فارس.

أما القبائل البربرية التي دانت بالطاعة وكانت مسلمة وانضافت إليهم فهي: زناتة الجبل وبنو بِلِّيت ونمالة، وأونسِنْت وبنو يفرن وبنو ناغيت وبنو النعمان، وبنو فلوسة وبنو كونة وبنو سَبْكَر وأصّادة ورُكانة وأزمين ومنادة وماسينة ورُصَانة وترارته ويخرج من هذه القبائل نحو 12.000 فارس.

ولم تزل برغواطة ومن والاها معلنة في بلادها بدينها. وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرني بعد سنة 420 [1030] فغلبهم على بلادهم واستوطنها وحملهم على الإسلام. وعفا أثر النحلة البرغواطية ولم تبق لها باقية.

وهذا تميم كان من خيار المسلمين في البربر، عُرِف بالجدّ وإيثاره للعدل حتى حدّ واحداً من بنيه لاغتصاب بُنيّة بوادي سَلّة إلى أن مات تحت الحدّ، وقد شاء الله أن ينقذ على يديه تلك القبائل البربرية التي اتبعت النحلة البرغواطية ويعيدها للإسلام. فقضى على تلك النحلة التي دامت 293 سنة عشرة في طريق الإسلام والعرب.

ديانة المتنبي عاصم بن جميل مقدم ورفجومة:

ظهرت نحلته في سنة 127 [745] أيام عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة ولقيت منه إفريقية كلّ ضرّ وبلاء. فكان يدّعي النبوءة والكهانة، فبدّل الدّين وغيّر العقائد وزاد في الصلاة وأسقط ذكر رسول الله من الأذان وأوجب قتال العرب واستباحة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ديانة المتنبّي البربري حـمّ:

لم تكن فتنة اختراع الأديان في البربر وصرفهم عن الإسلام لتقف عند النحلتين السالفتين بل تلتهما نحلة ثالثة أظهرها المتنبّي أبو محمد حمّ بن أبي خلف بن حريز بن عمرو بن وَاجِفْوَال بن وازِزْوَال. وقد نعته مسلمو البربر بالمفتري لما ذاقوا وبال الأمر من برغواطة وابن جميل ما ذاقوه.

وبنو واجفوال رهط حمّ ينزلون على نهر راس وهو على 3 أميال من مدينة تطوان، ظهر بالمكان أواخر المائة الثالثة من الهجرة وانضمّ إليه بشر كثير من البربر الذين كانـوا مفتونين بكراهية العرب، وأقرّوا له بالنبوّة، وجعلوا شريعته ناسخة لجميع الشرائع التي تقدّمتها والمغزى من ذلك مفهوم.

وادّعى حمّ أنه أنزل إليه كتاب بالبربرية وتفرّد أبوعبيد البكري بنقل آيات منه جعلها حمّ لصلواتهم منها: حلني من الذنوب يا من يحل البصر ينظر في الدنيا، حلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر.

ومنها أيضاً: آمنت بحميم وبأبي خلف، آمن رأسي وعقلي

وما أكنّه صدري وما أحاط به دمي ولحمي وآمنت بتازفيت (عمّة حمّ).

ومن تكاليف هذه الديانة جعل الصلاة كما هي عند المجوس مرّتين عند طلوع الشمس وعند الغروب، يسجدون على بطون أكفّهم. وافترض صوم يوم الخميس كلّه وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر. فمن أكل فيهما كانت كفارته خمسة أثوار لحمّ. وجعل عليهم صوم 27 يوماً من رمضان وأبقى فرض صوم ثلاثة أيام والفطر الرابع. وجعل العيد اليوم الثاني من الفطر، وجعل الزكاة العشر من كلّ شيء. وأسقط الحجّ والطهر والوضوء وأحلّ أكل لحم الخنزير وقال: إنما حرّم ذكورها في قرآن محمّد. وحرّم أكل الحوت ما لم يذكّ. وحرّم أكل البيض من جميع الطيور.

وكان مآل دين حمّ كما آل إليه دين عاصم وبرغواطة. ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾[81]. وهكذا زالت من إفريقيّة والمغربين جميع الأديان الاصطناعية، وبقي الإسلام ثابتاً فيها، ومن خرج منه رجع إليه لما علموا أنه الحقّ من ربّهم فاتّبعوه.

8 - ارتباك الأحوال في الأندلس

ولاية عبد الملك بن قَطَن [للمرة الثانية]:

لم تكن الارتباكات السياسية منحصرة في المغرب وحده بل تجاوزته إلى الأندلس، فقد ثار الناس على عقبة بن الحجّاج

(81) سورة الرعد، الآية 17.

السلولي فخلعوه، ثم قتلوه وأعادوا للولاية عبد الملك بن قطن، وذلك في صفر سنة 123 هـ [يناير 741][82].

ذكرنا فيما تقدم ما حدث لبلج بن بشر سنة 117 [734] في المغرب وقد لبث محصوراً ومضيّقاً عليه من البربر إلى سنة 123 [741]. ولما بلغه رجوع عبد الملك بن قطن إلى الولاية كتب إليه يطلب منه إنقاذه ومن معه وذلك بإرسال مراكب يجوزون فيها إلى الأندلس. وذكر له ما نزل بهم من الشدة والبؤس حتى أكلوا دوابّهم ولم يبق لهم شيء يستعينون به على معاناة الحصار فسكت عبد الملك عن إجابته على الإجازة إلى الأندلس. لما كان يعلم من خطله وسوء رأيه، ووعده بإرسال المدد لكنه لم يفعل إلى أن تفاقمت دعوة البربر بالأندلس فاضطرّ عبد الملك إلى الاستعانة ببَلَج ومن معه من أمجاد العرب. فاستشار رجاله في جوازه فخوّفوه منه. فقال: أخشى أن يقول أمير المؤمنين أغضى عن جنودي وتركهم عرضة للهلاك. فكتب إليهم أن يجيزهم بشرط أن لا يقيموا في الأندلس إلا سنة واحدة ثم يرجعوا إلى إفريقية. ولما أجابوه إلى ذلك أذن لهم بالجواز، وحين وصولهم إلى الأندلس رأى عبد الملك ما نزل بهم من الفقر والعراء وسوء الحال فأطعمهم وكساهم وأحسن إليهم. ولما استقامت أمورهم أبوا أن يلازموا الهدوء، فقصدوا قوماً من البربر كانوا يقيمون بشذونة فقاتلوهم وغنموا دوابّهم وأسلحتهم وأموالهم وصلحت بذلك حالهم. ولما علم بذلك عبد الملك بن قطن

---

(82) ابن عذاري ج 1 ص 55، وابن عبد الحكم ص 94، وابن الأثير ج 5 ص 142.

ركب إلى قرطبة وأمر بلْجاً ومن معه أن يخرجوا من الأندلس فأجابوه إلى ذلك وطلبوا منه مراكب يسيرون فيها من غير طريق الجزيرة الخضراء خوفاً من لقاء البربر، فامتنع عبد الملك من ذلك وقال ليس لدينا من مراكب إلا في الجزيرة. فقال بَلَج: نخاف من لقاء البربر والمرور بمكان يلاقوننا فيه. وأبى عبد الملك أن يسمع لهم. فلما أدركوا منه الجدّ ثاروا إليه واحتجزوه في ذي القعدة من السنة. فأشار على بلج رفقاؤه بقتله فأخرجه من قصره كأنه فرخ لكبر سنّه وكان في التسعين، فقتله وصلبه وهرب ابناه قطن وأميّة قبل قتله. فلحق أحدهما بماردة والآخر بسرقسطة[83] وبعد هروبهما خرجا يستنجدان بأهل البلاد والبربر فاجتمع لهما جند كثير قيل إنه بلغ 100.000 مقاتل. فسمع بلج والذين معه فساروا إليهما واقتتلوا قتالاً شديداً وجرح بلج جراحات بالغة ثم ظفر بابني عبد الملك بن قطن والبربر وقتل منهم خلقاً كثيراً وعاد إلى قرطبة مظفّراً منصوراً. فبقي بها سبعة أيام ومات من جراحاته. وكانت وفاته في شوّال السنة [أغسطس 742] بعد أن اغتصب الولاية أحد عشر شهراً. فلما مات قدم أصحابه عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي، فقام بالأمر بعده. وثار عليه البربر بناحية ماردة فغزاهم فأكثر فيهم القتل وأسر منهم ألف رجل وأتى بهم إلى قرطبة ليقتلهم بها إخافةً لأهلها[84].

قدوم أبي الخطّار حسام بن ضِرار الكلبي أميراً على الأندلس:

في رجب سنة 125 [مايو 743] قدم الأندلس أبو الخطار

---

(83) ابن الأثير، ج 5 ص 188.

(84) نفس المصدر، ج 5 ص 194.

حسام بن ضرار الكلبي عاملاً عليها من قِبَل حنظلة بن صفوان الكلبي المتولّي على إفريقيّة كما تقدّم. فدخل قرطبة فرأى متولّيها ثعلبة بن سلامة أحضر الأسرى من البربر فدفعهم إليه ولم يقتلهم فكانت ولايته سبباً لفكاكهم ونجاتهم. وكان عساكر الشام الذين بالأندلس يريدون الرجوع إلى بلادهم مع ثعلبة بن سلامة. فلم يزل أبو الخطّار يحسن إليهم ويستميلهم حتى رضوا بالإقامة فأنزل كل قوم على شبه منازلهم بالشام. فلما رأوا بلداناً تشبه بلدانهم أقاموا بها وتعزّز بإقامتهم مركز العرب في الأندلس.

ظهور الخلاف في الأندلس بين المضريّة واليمنيّة:

لما تولّى أبو الخطّار على الأندلس جنح لليمنية وتعصّب لهم على المضريّة، فأظهر له المضرية السوء وما زالوا يناوئونه ويكايدونه إلى أن ثاروا عليه سنة 127 [745]. وسبب ذلك أنه اختصم كناني وغسّاني، فاستعان الكناني بالصميل بن حاتم بن ذي الجوشن الضبابي. فكلّم فيه أبا الخطار، فاستغلظ له أبو الخطار، فأجابه الصميل، وأمر به فأقيم وضرب قفاه، فمالت عمامته. فلما خرج قيل له: نرى عمامتك مالت؟ فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها. وكان الصميل من أشراف مضر[85] دخل الأندلس مع بلج فشرف فيها بنفسه وأوليته. فلما جرى له ما ذكرنا جمع قومه وأعلمهم بما أصابه. فقالوا له: نحن لك تبع. فقال: أريد أن أخرج أبا الخطار من الأندلس. فقال له بعض أخصّائه: افعل ما تريد واستعن بمن شئت، وإيّاك وأبا عطاء القيسي. وكان من أشراف قيس يحسد الصميل ويناظره في الرئاسة. وقال له

(85) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص 37.

آخر: الرأي أنك تأتي أبا عطاء وتشدّ به أمرك، فإنه رجل تحرّكه النخوة والحميّة، وينصرك على خصمك. وإن تركته مال إليه، وأعانه عليك ليبلغ فيك ما يريد. والرأي أيضاً: أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن معد. فانصاع أبو الخطار وسار من ليلته إلى أبي عطاء. وكان يسكن مدينة استجة. فتلقاه أبو عطاء وسأله عن سبب قدومه، فأعلمه، فلم يكلّمه أبو عطاء بل قام من ساعته فتقلّد سلاحه وركب فرسه، وقال له: انهض الآن حيث شئت، فأنا معك. وأمر أهله وأصحابه باتباعه. فساروا إلى مورور وبها ثوابة بن سلاّمة الحذّاني، وكان مطاعاً في قومه وكان يلي إشبيلية وغيرها لأبي الخطار ثم عزله. فحقد عليه. فدعاه الصميل إلى نصرته ووعده بإمارة الأندلس إذا أُخْرِج منها أبو الخطار. فأجابه إلى نصره ودعا قومه فلبّوه وسار بهم إلى شذونة[86]. ولما بلغ خبرهم أبا الخطار استخلف وخرج لقتالهم فالتقوا في رجب السنة وصبر الفريقان لبعضهم وأظهر الثوّار أشدّ قتال عرفته الجنود، وأسرفوا في قتل عساكر أبي الخطّار. ولما علم عبد الملك بن قطن بالواقعة تقدم بأنصاره إلى قرطبة فأخرج منها خليفة أبي الخطار وانتهب كلّ ما وصلت إليه يده فيها. ولما اتصلت أخبار قرطبة بأبي الخطار انهزم في موقفه وسار ثوابة بن سلامة والصميل إلى قرطبة فملكاها وجلس ثوابة على عرش الإمارة. فثار عليه عبد الرحمان بن حسّان الكلبي، فاستجاش اليمنية واجتمع له خلق كثير منهم وأقبل بهم إلى قرطبة، وخرج إليه ثوابة فيمن معه من اليمنية والمضرية مع الصميل. فلما تقاتل الفريقان صرخ

---

(86) ابن عذاري، ج 2 ص 35.

رجل من مضر: يا معشر اليمنية ما بالكم تتعرّضون للحرب على أبي الخطّار وقد جَعَلْنا الأمير منكم (يقصد بذلك ثوابة، فإنه من اليمن)، ولو أن الأمير منّا لكنتم تعذرون في قتالكم لنا، وما نقول هذا إلّا تحرّجاً من إراقة الدماء ورغبة في العافية للعامّة. فلما سمع الناس كلامه قالوا: صدق والله، الأمير منّا، فما بالنا نقاتل قومنا؟ فتركوا القتال، وافترق الناس عن بعضهم، فهرب أبو الخطار حتى لحق بباجة الأندلس، ورجع ثوابة إلى قرطبة، وسمّي ذلك العسكر «عسكر العافية»[87]. وتقلد ثوابة إمارة الأندلس سنتين[88] ثم توفّي. فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار، وامتنعت مضر من ذلك، وعلى رأسهم الصميل وافترقت الكلمة وخلت الأندلس من أمير يتولّاها. فقدّم أصحاب الشأن عبد الرحمان بن كثير اللخمي لولاية الأحكام، فلم يغن عنهم شيئاً[89]. ولما تفاقم الأمر أجمعوا رأيهم على يوسف بن عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري. فوليها يوسف سنة 129 [ديسمبر 746 - يناير 747]. واستقرّ الأمر بين الزعماء أن يليها سنةً ثم يرد الأمر إلى اليمنيّين فيولون من أحبّوا من قومهم. فلما انقضت السنة أقبل أهل اليمن بأمرهم يريدون أن يولوا رجلاً منهم. فسار إليهم الصميل وقتل منهم خلقاً كثيراً في موقعة مشهورة تعرف في كتب التاريخ بموقعة شقندة. وفيها قتل أبو الخطار[90]. اقتتلوا بالرماح حتى تقطّعت وبالسيوف حتى

(87) ابن الأثير، ج 5 ص 257-258.

(88) من رجب 127/ إبريل 745 إلى المحرم 129/ سبتمبر - أكتوبر 746.

(89) ابن عذاري، ج 2 ص 51.

(90) ابن عذاري، ج 2 ص 52-53.

تكسّرت ثم تجاذبوا بالشعور حتى تنصّلت وأخيراً تمّ الأمر ليوسف دون غيره ولم يعترضه أحد. وكان ذلك سنة 130 هـ [747].

وبسبب هذه الفتن توالى القحط على الأندلس وتضعضعت أحوال البلاد وجلا عنها أهلها وألمّ بها الانحطاط من كلّ جانب مدّة ست سنين. وفي سنة 136 [753] اجتمع تميم بن معبد الفهري وعامر العبدري بمدينة سرقسطة وحشدا معهما الناس فحاربهما الصميل، ثم سار إليهما يوسف الفهري فقتلهما وبقي يوسف متغلّباً على الأندلس حتى أدال منه عبد الرحمان بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك المعروف «بصقر قريش» وفصل هذه الولاية عن إفريقية بعد أن كانت ملحقة بها مدّة 46 سنة من سنة 92 [711] إلى سنة 138 [756][91].

9 ـ ولاية عبد الرحمان بن حبيب وثـورة البـربـر

قيام عبد الرحمان بن حبيب بن عبيدة الفهري بالأمر في إفريقية وملحقاتها:

أحسّ عبد الرحمان بن حبيب بن عبيدة أن حياة البلاد التي تملكها آباؤه بدمائهم لإقرار الإسلام فيها على وشك الاضمحلال، وأن رجوع البربر إلى طاعة الأمويّين بعيدة الوقوع، وقد يئسوا من إنصافهم، فسار إلى الأندلس سنة 122 [741] بعد مقتل أبيه وكلثوم بن عياض، وأراد أن يتغلب عليها فلم يتوفق

(91)نفس المرجع، ص 53-54.

لذلك، فلما ولي حنظلة إفريقية ووجّه إليها أبا الخطار يئس منها، فعاد إلى إفريقية ونزل بتـونس في جمادى الأولى سنـة 126 [مارس 744]، فدعا الناس إلى نفسه، فأجابوه بالطاعة فسار بهم إلى القيروان، فأراد من بها من الجند قتاله فمنعهم حنظلة بن صفوان وكان لا يرى قتال مسلم إلا إذا كان مرتدّاً أو خارجيّاً. وبعث إليه حنظلة رسالة مع جماعة من أعيان القيروان ورؤساء القبائل يدعوه إلى مراجعة الطاعة فقبض عليهم وأخذهم معه إلى القيروان وقال: إن رمانا أحد من أهلها بحجر واحد قتلت من كان تحت يدي منهم أجمعين، وفضّل حنظلة الخروج إلى الشام عن إراقة دماء المسلمين واستولى عبد الرحمان بعد خروجه على ولاية إفريقية. ولكن الحروب التي دارت فيها قبل ذلك عقبها طاعون جارف لازم البلاد سبع سنين. ولما جلس مروان بن محمد بن مروان الجعدي على عرش الخلافة بعث إليه بكتاب يقرّه على الولاية[92].

ثورة العرب والبربر على عبد الرحمان بن حبيب:

لم تنتسق الولاية لعبد الرحمان حتى ثار عليه جماعة من أكابر العرب والبربر، فقد خرج عليه عروة بن الوليد الصدفي واستولى على تونس. وأقام أبو عطاف عمران بن عطّاف الأزدي بتيفاش وأعلن العصيان. وثار عليه برابرة الجبال ونابـذ ثابت الصنهاجي بباجة[93].

ولما رأى عبد الرحمان كثرة الخارجين عليه، لجأ إلى

(92) ابن الأثير، ج 5 ص 235.

(93) نفس المرجع، ص 236.

الحيلة في مقاومتهم فأخرج أخاه إلياس وجعل معه 600 فارس وقال له: سِرْ حتى تجتاز بحدود أبي عطاف الأزدي، فإذا رآك عسكره ففارقهم وسِرْ إلى ناحية تونس، كأنك تريد مناجزة عروة ابن الوليد، فإذا أتيت موضعاً سمّاه له فقف به حتى يأتيك كتابي فافعل بما فيه.

فسار إلياس ودعا عبد الرحمان رجلاً من خاصته وأعطاه كتاباً وقال له: امض حتى تدخل عساكر أبي عطاف، فإذا أشرف عليهم إلياس وسمعتهم يدعون السلاح والخيل، فاصبر حتى إذا فرقهم ووضعوا سلاحهم وأسنوه فسر إليه وسلمه كتابي. فمضى الرجل ودخل عسكر أبي عطاف وقاربهم إلياس فتحركوا يريدون مقاومته. ولما رأوه فارقهم وتوجّه نحو تونس، أمسكوا عنه وقالوا: اتركوه، قد دخل بين فكّيْ أسد، نحن من ههنا وأهل تونس من هناك، وأمنوه. فسار ذلك الرجل إلى إلياس فسلمه كتاب أخيه فإذا فيه أنّ القوم قد أمِنوك فسر إليهم وهم في غفلتهم، فعاد إلياس إليهم وهم غافلون، فلم يتمكّنوا من أخذ سلاحهم حتى دهمهم فقتلهم وقتل أبا عطاف، وقد دارت هذه الواقعة سنة 130 [747] وأرسل إلى أخيه عبد الرحمان يبشّره بذلك.

وكتب إليه عبد الرحمان يأمره بالمسير إلى تونس ويقول: إنهم إذا رأوك حسبوك أبا عطاف فأمِنوك. فإذا تقدّمت إليهم ظفرت بهم. فسار إليهم إلياس فوجد الأمر كما قال عبد الرحمان إلى أن دخل تونس وكان صاحبها عروة بن الوليد في تلك الساعة في الحمّام، فلم يلحق أن يلبس ثيابه حتى غشيه إلياس فالتحف بمنشفة ينشف بها بدنه وركب فرسه عرياناً وهرب. فصاح به

إلياس: أين الفرار يا فارس العرب؟! فرجع إليه فضربه إلياس واحتضنه عروة حتى سقطا إلى الأرض وكاد عروة ينال من إلياس، فأدركه مولى له فقتله واجتزّ رأسه وسيّره إلى عبد الرحمان وأقام إلياس بتونس[94].

وبلغ عبد الرحمان أن ثائريْن من الأباضية خرجا عليه بطرابلس اسمهما عبد الجبار والحارث وقتلا من لم يجبهما من أهل البلد جماعة كثيرة، فسار إليهما بنفسه سنة 131 [748] وقاتلهما إلى أن قتلهما وأقام بطرابلس إلى سنة 132 [749] وبنى بها سور المدينة ثمّ رجع إلى القيروان. ولم يطل مقامه بها حتى علم بخروج زناتة بتلمسان واتخاذها قاعدة لأعمال الخوارج، فعبّأ جنوده وسار إليها وأقام عليها حتى افتكّها وأعاد أهلها إلى الطاعة ثم كرّ راجعاً إلى القيروان.

وفي سنة 135 [752] أخرج جيشاً إلى صقلية فغزاها ثم غزا سردانية، وبعد الانتصار عقد معهما صلحاً على الجِزَاء والطاعة. ثم أقلع عنهما عائداً إلى إفريقية. وهكذا كان عبد الرحمان موفّقاً في جميع حروبه مع البربر والرّوم ولم ينهزم له أمامهم جيش، بل دوّخهم جميعاً وفرض عليهم الطاعة[95].

سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية:

بلغ عبد الرحمان مصرع مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء المروانيّين في بلد أبو صير بمصر وانتقال الخلافة للعباسيّين ببيعة أبي العباس السفّاح، في الكوفة. فخطب له وسوّد، ثم قدم

(94) ابن الأثير ج 5 ص 237، وابن عذاري ج 1 ص 66.

(95) ابن الأثير ج 5 ص 237-238، وابن عذاري ج 1 ص 73.

عليه جماعة من بني أميّة لاجئين. وكان في من قدم عليه منهم العاص وعبد المؤمن ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك. فتزوّج إلياس أخو عبد الرحمان ابنة عمّهما. فبلغ عبد الرحمان أنهما يسعيان بالإفساد عليه فقتلهما. فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس: إن أخاك قتل أختانك ولم يراقبك فيهم وتهاون بك، وأنت سيفه الذي يضرب به، وكلّما فتحت فتحاً كتب إلى الخلفاء أنّ ابنه حبيباً فتحه، وقد جعل له العهد وعزلك عنه. ولم تزل تغريه على أخيه بمثل ذلك حتى أثارته(96).

ولمّا توفي عبد الله السفاح وتولّى بعده أبو جعفر المنصور أقرّ عبد الرحمان على إفريقية وأرسل إليه خلعة سوداء، شعار دولتهم فلبسها. وأرسل إليه عبد الرحمان هدية نفيسة قال عنها ابن عذاري المراكشي: فيها بِزّة وكلاب. وكتب إليه أن إفريقية صارت اليوم كلّها دار إسلام وقد انقطع السبي والجزية، فلا تطلب منّي شيئاً من ذلك. فغضب عليه المنصور وكتب إليه يتوعّده إن لم يرسل إليه الجواري والمال. فأنف عبد الرحمان من كتاب المنصور. فدعا أهل الشورى وقرأه عليهم وهو على المنبر وقال: كنّا ظننّاه يدعو إلى الحقّ ويأمر به فبايعناه على العدل وإقامة الدين، فإذا به خلاف ما ظننّاه، وهذا كتابه يُتلى عليكم. لذلك لست أرى له طاعة في أعناقنا وإنّي أخلعه كما أخلع نعلي هذه ورماه من رجله ومزّق خلعته وهو على المنبر. فوافقه الناس على الخلع(97).

---

(96) ابن الأثير ج 5 ص 238، وابن عذاري ج 1 ص 67-68.

(97) ابن عذاري، ج 1 ص 76.

اغتيال عبد الرحمان بن حبيب بيد أخيه إلياس:

اغتنم إلياس فرصة الخلع للعباسيّين للقيام على أخيه. فاتّفق مع جماعة من وجوه القيروانيّين على قتل عبد الرحمان وتـولّيه مكـانه وإعـادة الدعـاء للمنصـور على المنـابـر. فبلغ عبد الرحمان ما كان مبيّتاً له فأمر أخاه إلياس بالمسير إلى تونس فتجهّز ودخل عليه القصر يودّعه ومعه أخوه عبد الوارث ولما رأياه قتلاه. وكان قتله في ذي الحجة سنة 137 [مايو 755]، وكانت إمارته على إفريقية عشر سنين وسبعة أشهر. وبعد قتله ضبط إلياس أبواب القصر وأحكم منافذه ليأخذ ابنه حبيباً فلم يظفر به، بل تسلّل من يديه إلى تونس واجتمع على عمه عمران بن حبيب وأخبره بمقتل أبيه. وسار إلياس إليهما واقتتلوا قتالاً يسيراً ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب بن عبد الرحمان ولاية قفصة وقسطيلية ونفزة. ويكون لعمران تونس وصطفورة وجزيرة شريك ويكون سائر إفريقية لإلياس. وقد تمّ انعقاد هذا الصلح سنة 138 هـ [756].

فلما تصالحوا سار حبيب بن عبد الرحمان إلى عمه ومضى إلياس إلى تونس مع أخيه عمران ولم يلبث إلياس أن غدر به فقتله وأخذ منه تونس وقتل بها جماعة من أشراف العرب ورجع إلى القيروان[98].

الصراع بين إلياس بن حبيب وابن أخيه:

ولما استقرّ الأمر لإلياس بعث بطاعته إلى المنصور مع وفد

(98) ابن الأثير ج 5 ص 236، وابن عذاري ج 1 ص 77-78.

من أكابر القيروان منهم الإمام عبد الرحمان بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية. وبعد ذلك خرج حبيب إلى تونس فملكها، فخرج إليه إلياس في قوّة واقتتلوا قتالاً ضعيفاً حتى جنّهم الليل فترك حبيب خيامه وسار في عساكره إلى القيروان، فاستولى عليها وأخرج من كان بها من المسجونين السياسيّين، فكثر به جمعه وتبعه إلياس ففارقه أكثر جنوده وقصدوا حبيباً وانضمّوا إليه فعظم بذلك جنده وخرج إلى قتال عمه[99].

ولما التقى العسكران أشفق حبيب من إراقة دماء المسلمين وأكثر الناس كانوا معه. فبرز بين الصفّين ونادى عمه إلياس فخرج إليه ولما التقيا، قال له: لم نقتل صنائعنا ومَوالينا في أمر بيني وبينك، فَلْنَتَبَارزْ وحدنا، وأيّنا قتل صاحبه كان الأمر إليه واستراح من منافِسِهِ وحقن دماء المسلمين. فتوقّف إلياس أوّلاً. ثم برز إليه فاقتتلا قتالاً شديداً تكسّر فيه رمحاهما ثم سيفاهما ولم يلبث حبيب أن عطف على عمه فقتله ووقى بذلك المسلمين من حرب ضروس ودخل القيروان ظافراً منصوراً[100].

ظهور وَرْفجومة وقيام البربر بثورة عنيفة على الإسلام والعرب:

لما بلغ عبد الوارث مقتل أخيه إلياس فرّ بمن كان معه من الغاشية والأتباع إلى قبيلة ورفجومة، وهم من بربر نفزة. فكتب حبيب إلى عامله عليها عاصم بن جميل[101] بردّهم إلى القيروان.

---

(99) ابن الأثير، ج 5 ص 238.

(100) نفس المصدر ج 5 ص 239، وابن عذاري ج 1 ص 79.

(101) ابن عذاري، ج 1 ص 80.

فامتنع وخذله في ذلك فزحف إليه حبيب بن عبد الرحمان لتأديبه والقبض على عمّه عبد الوارث، فالتقاه عاصم بالجنود الورفجوميين الذين أضلّهم واستغواهم بنحلته وردّهم عن الإسلام. فاقتتلوا قتالاً صارماً وانهزم حبيب إلى قابس، فوصل القيروان خبر انهزامه وكان أهلها كارهين له. فكتبوا إلى عاصم ومشايخ ورفجومة يستقدمونهم إلى مدينتهم وهم يجهلون دخائلهم. وأتبعوا كتابهم بوفد يأخذون عليهم العهد والمواثيق بالدفاع والصيانة والدعاء إلى المنصور العباسي، فوعدهم عاصم بذلك وهو يبطن لهم الشرّ والكيد. فسار إليهم بمن تبعه من البربر والعرب حتى قاربوا القيروان، فعلم بمقدمهم شيعة حبيب فخرجوا لقتالهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، انهزم فيه جند حبيب فدخلها عاصم فاتحاً وأباحها لجنوده فاستحلّوا بها المحرّمات وسبوا النساء والذراري ثم سار عاصم يطلب حبيباً وهو مقيم بقابس، فأدركه بها فاقتتلوا ثم انهزم حبيب إلى جبل أوراس، فاحتمى به وقام بنصرته من كان هناك من المسلمين. فلحق به عاصم، فاقتتلوا به وبطش حبيب بعاصم فقتله وقتل أكثر أصحابه. ثم رجع حبيب إلى القيروان سنة 140 [757][102]، فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد خليفة عاصم الذي قام بعده بأمر ورفجومة (للانتقام من قاتل رسول البربر)، فاقتتل هو وحبيب، وقد فقد في هذه الواقعة أنصاره، فقتل رحمه الله بعد أن حكم البلاد ثلاث سنين وتقدّم الورفجوميّون إلى القيروان ووضعوا سيوفهم في رقاب أهلها وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة واستحلّوا

(102) ابن الأثير ج 5 ص 239-240، وابن عذاري ج 1 ص 80-81.

المحارم وارتكبوا جميع المناكر. فتغلّب البربر على إفريقية بعد انتصارهم وارتكبوا فيها كلّ الموبقات والمخازي وربطوا دوابّهم في جامع عقبة ولم يفلتوا أحداً وصلت إليه أيديهم من قريش وساموا غيرهم من العرب ألواناً من العذاب، ونكلوا بمن أسلم من البربر نكالاً عظيماً. وندم القيروانيّون على فعلتهم حيث لا يغني عنهم الندم.

الاستنجاد بالأباضيّة[103]:

دخل عبد الملك بن أبي الجعد إلى القيروان وفعل بها أضعاف ما فعله عاصم من الفساد والظلم وخبث الدين. ففارقها أهلها ولم يبق بها إلا ضعفاء الحال. واتّفق أنّ رجلاً من الخوارج الأباضية دخل القيروان لحاجة وكان قادماً من طرابلس، فرأى أناساً من الورفجوميّين قد اغتصبوا امرأة مسلمة قهراً في الطريق والناس ينظرون، فأدخلوها الجامع وأتوا عليها في بيت الصلاة واحداً بعد واحد. فترك الأباضي حاجته التي جاء من أجلها ورجع إلى طرابلس يريد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فأعلمه بذلك واستنجد به لإغاثة المسلمين. فخرج أبو الخطاب بمن معه من طرابلس لإنقاذ القيروان من هؤلاء العتاة وهو يقول: بيتك اللهمّ! بيتك اللهمّ! فاجتمع إليه الأباضيّون وأهل السنّة من كل مكان. ولما علم الورفجوميّون بمقدمهم أخرج لهم عبد الملك جيشاً لقتالهم فانهزموا من لقائهم وخذلهم القيروانيّون

---

(103) ابن الأثير ج 5 ص 240-241، إلا أن ابن عذاري ينسب إلى الصفريّة لا إلى الأباضية (ج 1 ص 81).

وكثر الارتياث فيهم حتى قتل عبد الملك الورفجومي وتبعهم أبو الخطاب وهو يسرف في قتلهم حتى محقهم ثم كرّ راجعاً إلى طرابلس. وقبل رجوعه استخلف على إفريقية عبد الرحمان بن رستم الأباضي الفارسي وذلك في صفر سنة 141 هـ [758][104].

(104) ابن الأثير ج 4 ص 240، ويضيف المؤلف كلمة «الأباضي».

والخوالف من البربر. وسيّر جيشاً إلى زويلة وودّان فافتتحهما من أيدي الأباضية وقتل مقدّم زويلة ابن سنان الأباضي. فلما رأى أهل العبث والخلاف منه ذلك خافوه خوفاً شديداً وأذعنوا له بالطاعة.

وثار عليه رجل من جنده يقال له هاشم بن الشاحج بقَمُّونية وتبعه كثير من الجند فسَيّر إليه ابن الأشعث حملة كبيرة فقتل قائدها وانهزم من معه. وجعل المضريّة من قوّاد ابن الأشعث يحرّضون من معهم على اللحاق بهاشم كراهية لابن الأشعث بدعوى أنه تعقب عليهم. فبعث إليه ابن الأشعث جيشاً ثانياً فاقتتلوا طويلاً وانهزم هاشم ولحق بتاهرت وجمع حوله طغام البربر فبلغ عدد جموعه 20.000 فسار بهم إلى تهودا فسيّر إليه ابن الأشعث جيشاً ثالثاً فانهزم هاشم وقتل كثير من جنوده، ثم فرّ إلى طرابلس. وقدم رسول من المنصور يلومه على إخلاله بالطاعة. فقال: ما خالفت ولكنني دعوت للمهدي بعد أمير المؤمنين، فأنكر عليّ ذلك ابن الأشعث وأراد قتلي. فقال له الرسول: إن كنت على الطاعة فمدّ عنقك فمدّه فضربه بالسيف فقتله، وكان ذلك في صفر سنة 146 [763]. وبذل ابن الأشعث الأمان لمن كان بصحبته من الجنود ثم فارقوه فعادوا. ولما تمكّن منهم قتلهم فغضب المضرية لنكثه بالوعد في حقّهم واجتمعوا على عداونه وخلافه وإخراجه من إفريقيّة.

ولما رأى ابن الأشعث الجدّ من العساكر في إخراجه رحل عن إفريقية واستعمل المضرية بعده على إفريقية عيسى بن موسى الخراساني على غير عهد من المنصور وكان تأميره لمدة ثلاثة

أشهر إلى أن يوافيهم من يقلده أبو جعفر أمر الولاية[4].

ظهور عبد الرحمان الداخل بالأندلس وانسلاخ هذه الولاية عن إفريقية:

خرج عبد الرحمان من العراق خفية بعد أن أهدر السفاح دم الأمويّين، فقصد المغرب إلى أن وصل إلى إفريقية فألحقته أم الأصبغ ببدر مولاه ومعه نفقة له وجواهر، فلما علم بمقدمه عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري والد يوسف الأمير بالأندلس لجّ في طلبه واشتدّ عليه فهرب منه فأتى مكناسة الزيتون بالمغرب وأهلها بربر، فلقي منهم شدة عظيمة ثم هرب منهم فأتى نفزاوة وهم أخواله، لأن أمه كانت جارية منهم، ومعه مولاه بدر فاتصل بقوم من الزناتيّين فأحسنوا لقاءه واطمأن إليهم. ثم أخذ في تدبير الصلة بينه وبين حزب الأمويّين في الأندلس وأعلمهم بقدومه ودعاهم إلى نصرته ووجّه إليهم بدراً مولاه، وأمير الأندلس يومئذ كما قدّمنا يوسف بن عبد الرحمان الفهري، فأتوه مذعنين. ثم انتقل من المغرب إلى كورة ريّة من أعمال الأندلس فبايعه عاملها إبراهيم بن شجرة[5] ثم عاد إلى إشبيلية فبايعه عاملها أبو الصباح يحيى بن يحيى. ونهد إلى قرطبة فبلغ خبره يوسف وكان غائباً عنها بنواحي طليطلة فوصله الخبر وهو راجع إلى قرطبة. فلما أتاها عبد الرحمان تراسل هو ويوسف في الصلح وكان يخادعه نحو يومين كان أحدهما يوم عرفة. ولم يشكّ أحد

---

(4) نفس المصدر، ج 5 ص 240-241.

(5) بل كان عامل موررور. أما عامل كورة رية فهو عيسى بن مساور، انظر ابن الأثير، ج 5 ص 378.

من أصحاب يوسف أن الصلح قد أبرم. وأقبل على إعداد الطعام ليأكله الناس على السماط يوم العيد. وعبد الرحمان مرتب خيله ورجله وعبر النهر بجنوده ليلاً، وما دنت ساعة العتمة حتى نشب القتال ليلة العيد وصبر الفريقان إلى أن ارتفع النهار وكانت الأضاحي بدل الخرفان أرواح المسلمين. وركب عبد الرحمان بغلاً لئلا يظنّ الناس أنه يهرب عند اللقاء. فلما رأوه كذلك اطمأنّت نفوسهم وكثر الارتياث في أصحاب يوسف، ثم انهزم على أسوأ حال وبقي الصميل ثابتاً مع عصابة من عشيرته يقاتل عبد الرحمان حتى هلك أصحابه ثم فرّ فيمن بقي منهم وكتب الفوز لعبد الرحمان[6].

ولما انهزم يوسف لحق بماردة ودخل عبد الرحمان قرطبة، فأخرج حشم يوسف من القصر ودخله ثم خرج في طلب يوسف فلما أحسّ يوسف به خرج من ماردة وخالفه في الطريق إلى قرطبة فدخلها وسار إلى القصر فأخذ جميع أهله وأمواله ولحق بمدينة البيرة. ولما انهزم الصميل لحق بمدينة شذونة. ولما ورد الخبر بذلك إلى عبد الرحمان رجع من فوره إلى قرطبة طمعاً في اللحاق بيوسف، فلم يجده بها فركب خلفه إلى البيرة. وكان الصميل قد لحق في تلك الأثناء بيوسف وتجمّع لهما بها جند فتراسلوا في الصلح. وقد تم بينهما على أن ينزل يوسف ومن معه بأمان وأن يسكن مع عبد الرحمان بقرطبة، ووضع ابنيه أبا الأسود محمداً وعبد الرحمان رهينة ثم سار إلى قرطبة فلما دخل تمثل:

---

(6) نفس المرجع.

فَبينا نسوس الناس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم سوقة نتنصب

ولم يلبث يوسف الفهري أن نكث عهده لعبد الرحمان. والسبب في ذلك على ما ساقه المؤرخون أن عبد الرحمان كان يضيّق عليه وينازعه في أملاكه، فإذا أظهر حجّة شرعية يردّها ولا يعمل بها. فخرج إلى ماردة واجتمع عليه هناك عشرون ألفاً من أشياعه فسار بهم إلى قتال عبد الرحمان، وخرج عبد الرحمان إليه من قرطبة إلى أن وصل إلى حصن المدوّر، وهناك تحوّل عند يوسف ورأى أن يسير إلى عبد الملك بن عمرو بن مروان وكان والياً على إشبيلية، وإلى ابنه عمر بن عبد الملك وكان والياً على المدوّر، فسار نحوهما وخرجا إليه بمن معهما من الجنود فلقياه فاقتتلوا قتالاً شديداً صبر فيه الفريقان وانهزم جند يوسف بعد أن قتل منهم خلق كثير. ومضى يوسف على وجهه شريداً يتردّد في البلاد إلى أن قتله بعض أصحابه في رجب سنة 142 [759] بنواحي طليطلة. وحمل رأسه إلى عبد الرحمان. أما الصميل فإنه، لما فرّ يوسف من قرطبة، أنف الفرار، فدعاه عبد الرحمان وسأله عنه، فقال:

لم يخبرني أين ذهب.
فقال عبد الرحمان: لا بدّ أن تخبرني!
فقال الصميل: لو كان تحت قدمي ما أخبرتك.

فسجنه عبد الرحمان مع ابني يوسف. فلما هربا من السجن أنف الصميل من الهروب معهما وبقي فيه إلى أن مات ولم يعلم خبر موته حتى دخل عليه رجال من مشيخة مصر

يزورونه، فوجدوه ميّتاً وعنده كأس. فقالوا وهم يخاطبون رفاته: يا أبا جوشن قد علمنا أنك ما شربت كأسك، ولكنك سقيته. ثم أمر عبد الرحمان بدفعه إلى أهله، فدفنوه[7].

ولما علم أبو جعفر المنصور العباسي باستيلاء الأمير عبد الرحمان الداخل على الأندلس هاله الأمر وأخذ يدبّر المكائد لإسقاطه وسيّر سنة 146 [763] العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس وأمره بلبس السواد والقيام بأمر الدولة العباسية للوقيعة بعبد الرحمان وأن يخطب للمنصور دون أن يذكر اسم عبد الرحمان. فاجتمع إليه خلق كثير بنواحي إشبيلية. فخرج إليه عبد الرحمان فالتقيا هناك، ثم تحاربا أيّاماً حتى انهزم العلاء وأصحابه وقتل منهم في المعركة نحو 7000 مقاتل في جملتهم العلاء، وأمر عبد الرحمان بعض خاصّته وكانوا في زيّ التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة ممن كانوا معه إلى القيروان، وإلقائها سرّاً بالسوق، ففعلوا ذلك، ثم أمر بحمل رؤوس أخرى إلى مكة. وكان المنصور بها يومئذ ومع الرؤوس لواء أسود وكتاب من المنصور إلى العلاء، وجده في مخبّئاته، مكايدةً للمنصور. وكانت هذه الواقعة سبباً في انقطاع أطماع العباسيّين في الأندلس وفصلها نهائيّاً عن إفريقية، بعد أن ظلّت تابعة لها مدة 45 سنة[8].

ولاية الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي على إفريقية:

لما علم أبو جعفر المنصور بتخلّي محمد بن الأشعث عن ولايته على إفريقيّة بسبب ثورة الجند عليه بعث إلى الأغلب بن

(7) ابن عذاري، ج 2 ص 77.

(8) ابن الأثير، ج 5 ص 440.

سالم بن عقال بن خفاجة التميمي عهده بالولاية على إفريقية، وكان معدوداً من أكابر الرجال ذوي الرأي والحصافة والمشورة والتدبير، وكان مع أبي مسلم لما خرج على الدولة الأموية، وقدم مع جند محمد بن الأشعث، فلما وافاه التقليد خفّ إلى القيروان في جمادى الآخرة سنة 148 [765] وأخرج منها جماعة من قوّاد المضرية، فاستقامت له الأحوال ودانت له البلاد بالطاعة. وبعد مدّة وصله كتاب من المنصور يأمر بمحاسنة الجند وإقامة العدل بين الرعيّة وتحصين القيروان وإحاطتها بخندق لوقايتها من الهجوم وترتيب حرس عليها وغير ذلك من ضروب الإصلاحات وتراتيب النظام.

ولكن عهد الطمأنينة لم يطل حتى عاد البربر إلى ثورتهم، فقد خرج عليه في سنة 150 [767] أبو قرّة الصفري وجمع حوله خلقاً عظيماً من البربر، ولما بلغ ذلك الأغلب بن سالم استخلف على القيروان سالم بن سوادة وسار بمن كان معه من القوّاد والجنود إلى الزاب لإخماد الثورة. فلما علم أبو قرّة بدنوّه فرّ من لقائه وتفرّقت عنه جموعه فدخل الأغلب بلاد الزاب بعد انطفاء جذوة الفتنة. ثم انتقل إلى تلمسان قاعدة زناتة. ولما أراد أن يتحوّل إلى طنجة كره الجند المسير معه وقالوا: ما لنا وتدويخ البلاد، وأبو قرّة قد هرب عنها. ثم جعلوا يتسلّلون من الجند وهم يتراجعون إلى القيروان التماساً للراحة، بحيث لم يبق معه إلا نفر قليل من الوجوه وأكابر القواد[9].

(9) ابن الأثير، ج 5 ص 448.

وكان الحسن بن حرب الكندي مقدم كُتّاب الجند تحدّثه نفسه بالإمارة، وكان يومئذ مقيماً بتونس، فكاتب الجند يمنّيهم ويدعوهم إلى نفسه فأجابوه إلى الطاعة فسار من فوره إلى القيروان ودخلها من غير مانع، وحبس سالم بن سوادة. فوصلت الأخبار بذلك إلى الأغلب وهو لم يزل على الزاب، فجدّ السير إلى القيروان، وكتب إلى الحسن يدعوه إلى الطاعة ويحذّره وبال المعصية فلم يقبل منه وأصرّ على الخلاف.

ولما أحسّ قوّاد الأغلب بقلّة من كان معهم من الجند قالوا له: ليس من الرأي أن تسير للقاء عدوّك وهو متحفّز للشرّ في هذه العدّة القليلة، ولكن الرأي أن تعدل إلى قابس، فإن أكثر من معه يجيء إليك لأنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجة لا غير، فتقوى بهم وتنكل بعدوّك، فأجابهم إلى ذلك وسار إلى قابس فكثر بها جمعه ثم خرج بهم إلى لقاء الحسن بن حرب فاقتتلوا اقتتالاً عنيفاً، فانهزم الحسن بعد أن قتل أكثر أنصاره ومشايعيه، فترك القيروان ومضى إلى تونس. ودخل الأغلب إلى القيروان.

ولم يكد يستقرّ المقام بحسن في تونس حتى حشد الجنود وجمع الناس من حوله ولما صار في عدّة عظيمة قصد الأغلب، فخرج إليه الأغلب في عدّة عظيمة واقتتلوا قتالاً عنيفاً، فأصيب الأغلب بسهم طائش، فقدم المخارق بن غِفار، وكان على ميمنة الجند، فأبلى في القتال بلاءً حسناً، وفي شعبان السنة انهزم الحسن إلى تونس فوجه المخارق الخيل في طلبه ففرّ من تونس ولجأ إلى قبائل كتامة، فأقام بها شهرين ثم كرّ راجعاً إلى تونس، فخرج إليه من كان بها من الجند فقتلوه وانهزم أصحابه. وفي

تلك الأثناء توفّي الأغلب من جراحاته، فدعي بالشهيد وشيّع جثمانه بحفل عظيم لا عهد لمثله بإفريقية[10]. وحمل جثمان الحسن إلى القيروان وصلب على أبوابها تنكيلاً به وزجراً لأمثاله.

ولاية عمر بن حفص بن أبي قبيصة المهلبي على إفريقية:

هو ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب، وإنما نسب إليه لشهرته، عيّنه المنصور لما بلغه قتل الأغلب بن سالم وخاف على إفريقية. وكان من أشجع القوّاد وأشدّهم بسالة ونكاية. قدم القيروان في صفر سنة 151 [768] ومعه خمسمائة فارس. فاجتمع وجوه البلد للقائه والحفاوة به. فأحسن إليهم ووصلهم. ومكث بالقيروان ثلاث سنين وأشهراً استقامت له فيها الأمور. ثم خرج إلى الزاب بأمر المنصور لبناء مدينة طبنة واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي وخرج في الجيش فاغتنم البربر فرصة خروجه وخلوّ القيروان من الجنود للثيار عليه والتخلّص من حكم العرب وتأسيس دولة بربريّة. وتلك كانت شنشنتهم من عهد كسيلة. فثاروا على حبيب ولما خرج للقائهم قتلوه[11].

ثورة البربر الاستقلالية على العرب:

لما قتل حبيب بن حبيب المهلبي بمدينة القيروان، رحل البربر إلى طرابلس وأجمعوا الرأي على أبي حاتم الأباضي «واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة». وكان عامل عمر بن حفص بن أبي قبيصة على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي.

---

(10) ابن الأثير ج 5 ص 449، وابن عذاري ج 1 ص 87.

(11) ابن عذاري، ج 1 ص 88.

فكتب إلى عمر يستنجده، فأمّده بالجنود فخرج فيهم لقتال أبي حاتم فهزمهم. فساروا إلى قابس فلحقهم أبو حاتم وحاصرهم بها، وعمر مقيم بالزاب على تعمير طبنة. وكانوا في اثني عشر عسكراً يسدّون الفضاء.

فقد كان أبو قرّة المغيلي الصفري في 40.000 وعبد الملك ابن سكرديد الصفري في 4.000 والمنصور الزناتي في 10.000 ويعقوب بن لبيب الأباضي في 12.000 وعاصم السامّرائي في 20.000 وعبد الرحمان بن رستم الفارسي الأباضي فـي 000 .15. ويذكر المؤرخون أنهم كانوا زهاء 300.000، وهو جيش كاف لاقتلاع جرثومة العرب من إفريقية لولا مهارة ساستهم وخبرة عمّالهم وقوّادهم.

رأى عمر بن حفص ما أحاط به من الجنود البرابرة وأنه لا طاقة له بدفعهم بالقوّة، فلجأ إلى الحيلة وهي أمضى سلاحاً بيد الدول الأثيلة، فقد بعث سرّاً إلى أبي قرّة المغيلي مقدم الصفرية يبذل له 60.000 درهم لقاء انصرافه عن القتال. فبعث إليه: كيف أرجع عن قتالكم وقد سلم إليّ الناس بالخلافة منذ أربعين سنة، وهل أبيع عربكم بعرض قليل من الدنيا؟.

ولما يئس عمر من استغواء أبي قرّة أرسل إلى أخيه يراوده ودفع إليه مقدماً 4000 درهم وثياباً موشّاة، على أن يعمل الحيلة في صرف الصفرية عن أخيه. فأجاب إلى ذلك، وارتحل من ليلته، وتبعته عساكر الصفرية وأبو قرّة لا يعلم ما بيّت له مع أخيه حتى رآهم ينفضّـون من حولـه وينصرفـون، فلم يسعـه غيـر ما وسعهم.

وبقيت جنود الأباضية مجتمعة على عبد الرحمان بن رستم حول مدينة تهودا، فتقدم عمر إلى مناجزتهم، فقاتلهم حتى ضعف شأنهم وانهزموا إلى تاهرت.

وسار أبو حاتم الأباضي منهزماً إلى القيروان فحاصرها وعاد عمر إلى طبنة، ولما طال حصار أبي حاتم على عاصمة إفريقية نحو ثمانية أشهر وقد كثر بها جمعه، مع أنه لم يكن معه يومَ تقدّم لحصاره غير 700 مقاتل وكان جند القيروان أثناء الحصار يخرجون كلّ يوم طرفي النهار يقاتلون البربر حتى جهدهم الجوع وأكلوا دوابّهم وكلابهم بل وحتى سنانيرهم وبيعت وقيّة اللحم بدرهم. ولحق كثير من أهلها بالخوارج. ولم يبق غير دخولهم إليها ظافرين، إذ أتاهم الخبر بقدوم عمر بن حفص من طبنة ونزوله بالمكان المعروف بالهرشي. فزحف إليه الخوارج بجموعهم وتركوا القيروان. فلما فارقوها تحوّل عمر صوب تونس فتبعه البربر. ولما علم بذلك عاد من فوره إلى القيروان وجدّ في السير حتى وصلها وأدخل إليها ما يحتاجه الناس من طعام ووقود ودوابّ وغير ذلك. فعاد إليها البربر ونصبوا عليها حصاراً شديداً وفي كلّ يوم يدور بين الفريقين قتال عنيف، حتى ضاق الأمر بعمر ومن معه، فقال لعساكره: الرأي أن أخرج من الحصار وأذهب إلى البلاد أجمع لكم الميرة. قالوا: إنّا نخاف بعدك غائلة العدوّ. قال: إذن أرسل فلاناً وفلاناً من القوّاد يأتوننا بذلك. قالوا: ذلك إليك. فلما خاطبهما في الأمر، قالا: لا نتركك في الحصار ونتخلّى عنك. عند ذلك صمّم على الاستقلال أو كسر البربر[12].

(12) ابن الأثير، ج 5 ص 459.

وبينما كان عمر يعاني أشدّ الكروب إذ وافاه الخبر من العراق أن المنصور قد أنجده بيزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب ومعه جند عدّته 60.000 مقاتل وأشار عليه بتوقيف القتال إلى أن تصل النجدة. فلم يفعل بل خرج إلى لقاء الأعداء وهو يقول لا خير في حياة الذلّ، فإنما هي ضجعة ثم أبعث إلى الحساب. وقاتل الخوارج العصاة إلى أن قُتِل رحمه الله شهيداً في منتصف ذي الحجّة سنة 154 [771]. وقام بالأمر بعده أخوه لأمه حميد بن صخر[13]، فدعا أبا حاتم إلى الصلح، على أن يجيبه إلى ما طلبه بشرط أن لا ينفض الخوارج أيديهم من البيعة للعباسيّين ولا ينزلوا عن سلاحهم وسوادهم[14]. فغضب أبو حاتم من هذه الشروط الوقحة وعدّها سبباً لإنزال النكاية بالغرب. فأمر بإحراق أبواب القيروان ودخلها عنوة وأفحش في قتل المسلمين وسبي النساء والذراري، وساقهم كالأغنام إلى الزاب. وكان ممن تبعه تقية عمر بن عثمان الفهري، فخرج يمانع عن العرب وأعادهم إلى القيروان وقتل أصحاب أبي حاتم، فعاد إليه

(13) ويؤكد ابن عذاري أن الذي خلفه هو أخوه جميل بن حفص (ج 1 ص 90).

(14) كتب أبو جعفر المنصور إلى عماله بلبس السواد شعار الدولة واتخاذ القلانس الطوال وكانوا يصنعونها بالقصب والورق ويلبسونها السواد، وفيها يقول أبو دلامة الشاعر متهكماً:

وكنا نرجى من إمام زيادة
فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها
دنان يهود جللت بالبرانس

(المؤلف). [نقلاً عن الطبري، انظر تاريخ الأمم والملوك، دار القموس الحديث، بيروت، ج 1 ص 284].

أبو حاتم، ففرّ منه إلى تونس. عند ذلك بلغ أبا حاتم مقدم يزيد ابن حاتم بالجنود من العراق، فتقدم أبو حاتم إلى طرابلس لقتال يزيد.

وذكر الإمام ابن جرير الطبري أن عدد البربر الذين تألبوا على قتال العرب في الواقعة كان 350.000 وكان عدد فرسانهم فقط 35.000.

وروى ابن القطّان في كتابه نظم الجمان في تاريخ القيروان أن عدد الوقائع التي تقاتل فيها العرب والبربر من لدن قتالهم مع عمر بن حفص إلى انقضاء فتنتهم 375 واقعة وهي فظائع منكرة لا يغتفرها لهم التاريخ.

ثأر أبي جعفر المنصور للعرب وتعيين يزيد بن حاتم بن أبي صفرة للولاية على إفريقية:

بلغ أبا جعفر المنصور ما نزل بالعرب في إفريقية من الخوارج ومقتل عامله عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي فعظمت عليه الكارثة فنهد إلى إفريقية يزيد بن حاتم في 60.000 مقاتل[15] كانوا من أفضل جنود خراسان والعراق والشام وجهزه على شحّه بالمال بـ 66.000.000 درهم[16]. ومع ذلك فقد أمر ابن حاتم أن يتجنّب الإثخان في البربر. وهو معدود من أكابر رجال الدولة وحاله في شجاعته وأصالة رأيه وبعد صيته وعراقته في المجد، معروف. وكان في بلائه وإقدامه على المهالك كثير الشبه بجدّه

(15) ابن الأثير ج 5 ص 460. ويذكر الطبري 50.000 ج 9 ص 285.

(16) يذكر الطبري ثلاثة وستين ألف ألف درهم (ج 9 ص 285).

المهلّب بن أبي صفرة مبيد الخوارج من الأزارقة في المشرق على عهد الدولة المروانية، فنهض إلى إفريقية سنة 155 [772]، فتلقته فلول العرب في الطريق. ولما وصل إلى طرابلس فارقها أبو حاتم في مكان وعر من الجبال متحكماً في الطرق وخندق على عسكره. وعبّأ يزيد جنوده وزحف إليه فالتقوا في ربيع الأول من السنة فاقتتلوا أشدّ قتال عرفته حروب الثورات فانهزمت البربر وقتل أبو حاتم وأهل نجدته. وطلبهم يزيد بن حاتم في كل مكان في السهل والجبل وقتلهم قتلاً ذريعاً، وقد أحصى ابن الأثير عدد من قتل منهم بثلاثين ألف في المعركة وحدها[17] وعكف قوّاد الجيش من المهالبة يتتبّعون الثوار الذين اشتركوا في قتل عمر بن حفص بن أبي قبيصة وأقاموا على ذلك شهراً كاملاً حتى أذاقوهم وبال أمرهم جزاء ما فعلوه وما ارتكبوه من اغتيالات وضحايا لتفكيك نظام الوحدة الإسلامية.

وقبل منصرف يزيد عن طرابلس بعد أن خلّصها من ظلم الخوارج، عيّن عليها سعيد بن شدّاد ثم تحرك إلى القيروان فدخلها في يوم مشهود يوم الإثنين لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة 155 [772]، فأحسن السيرة ونظّم الأمور وأصلح الاختلال الذي عقبته الثورة وجدّد ما تهدّم من مدن ومبانٍ ورتب الأسواق وجعل لكلّ صناعة سوقاً وأعاد إلى القيروان شبابها ونضارتها وجدّد فيها جامع عقبة بعد أن خرّبه الخوارج، وجعل البلاد ترفل في حلل الهناء والرخاء.

(17) ابن الأثير، ج 5 ص 461.

غير أنّ البربر ما كانوا يعدلون باستقلالهم شيئاً ولا يبالون بما يقدمونه لذلك من الضحايا ويأبون أن يخلدوا إلى الطاعة إلا بقدر ما يستجمون الراحة وسيجمعـون قواهم ثم يثورون ثورة كبيرة. فقد ثارت كتامة على يزيد بن المهلّب فسيّر إليهم جيشاً لجباً وقتل كثيراً منهم. ولمّا كفّوا عن الشغب أمّنهم وأحسن السيرة فيهم. ثم ثار صفرية سجلماسة وقبضوا على أميرهم عيسى ابن حزم فأوثقوه ووضعوه على قمّة جبل تحت العراء في أيام الشتاء إلى أن مات[18]. وقدّموا على أنفسهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن مدلان المكناسي جدّ مدرار. ثم قبعوا في ديارهم فتغاضى عنهم يزيد بن المهلّب. ثم تحرّكت هوارة طرابلس على عاملهم عبد الله بن السمط الكندي واجتمعت كلمتهم على رجل منهم يقال له أبو يحيى بن قرياس الهواري[19] وتواثبوا للشغب والفتنة فتلقاهم عبد الله بن السمط بجنوده على البحر فنكل بهم وفرّ أبو يحيى وبعث عبد الله خلفه السرايا يتعقبونه. ثم انتقضت ورفجـومة بـأرض الزاب سنـة 164 [780] وعليهـا أبـو أيـوب الهوّاري[20]. فسيّر إليهم يزيد جنداً كثيراً عليهم يزيد بن مجزأة المهلبي، فانهزم منهم يزيد وقتل كثير من جنده كما قتل عاملهم المخارق بن غبار فولّى مكانه المهلب بن يزيد المهلبي وأمدّهم يزيد بن حاتم بجند كثيـر واستعمل عليهم العـلاء بن سعيد المهلبي. ومضى المنهزمون إلى ورفجومة، فخرج إليهم المهلّب

(18) ابن عذاري، ج 1 ص 94.

(19) نفس المرجع.

(20) نفس المرجع، وابن الأثير ج 5 ص 461.

وقاتلهم قتالاً صعباً إلى أن انهزم أيوب وقتل من كان معه من البربر دون أن تقع تلفات تذكر في الجند. وبعد إخفاق البربر في هذه الثورات المهولة ركنوا إلى الطاعة خوفاً من صولة يزيد وطمعاً في استرضائه، وكان في ولايته مثلاً أعلى للنزاهة والشرف وسموّ الهمّة وبعد النظر وأثبت المؤرخون له على ذلك شواهد كثيرة، منها أنه بلغه أن أحد وكلائه زرع فولاً كثيراً في بعض غيطانه فأمر بإباحتها للناس وقال: لا ينبغي للحكّام أن يزاحموا العامّة في طرائق مكاسبهم، كما لا ينبغي للعامّة أن يزاحموا الحكّام في تدبير سياستهم. وذكروا له أيضاً أنه مرّ يوماً بضواحي القيروان، فنظر إلى أغنام كثيرة أعجبته ولما سأل عنها قيل إنها لابنه فأمر الناس بانتهابها فانتهبوها وزجر ابنه[21]. وكانت أيّام حكمه من أزهر أيام شمال إفريقيا. ومكث في الولاية غير مدافع ولا منازع خمسة عشر سنة وثلاثة أشهر عمل فيها لأربعة خلفاء من بني العباس وهم المنصور والمهدي والهادي والرشيد. وفي أخريات أيامه أصيب بوعك شديد في رمضان سنة 171 [788]، فاستخلف ابنه داود ثم لحق بربّه راضياً مرضيّاً بما أسداه لهذه البلاد من الأيادي التي منها قمع أطماع البربر في مناوأة العرب وكفّ أيديهم عن الشغب والثورة وصرفهم إلى الأعمال النافعة إلى التعمير والزراعة وتنمية الثروة وإنعاش البلاد، بعد أن كان بؤرة للفتن والقلاقل. وحكى عنه الإمام سحنون أنه كان يقول: ما هبت شيئاً قطّ كهيبة رجل واحد يزعم أني ظلمته، وأنا أعلم أنه لا راحم له إلا الله، ويقول بيني وبينك الله.

(21) ابن عذاري، ج 1 ص 98.

ولاية داوود بن يزيد بن المهلّب:

تقلّد داوود ولاية إفريقية بعهد من أبيه وخرج عليه أيام حكمه الأباضية من البربر، فكانت له معهم مواقف عديدة قاتلهم فيها على جبال خمير من ناحية باجة فسيّر لهم جيشاً عليه أخوه المهلّب، فتقدّموا إليه بزعامة نصير بن الصالح الأباضي فردّهم وقتل جماعة من قوّادهم. ثم أعادوا عليه الكرّة فندب إليهم سليمان بن يزيد في عشرة آلاف فأوقع بهم وهزمهم فكفّوا عنه. ومكث داوود في ولايته تسعة أشهر ونصفاً ماضي العزم، مهاب الطاعة، نافذ الأمر، إلى أن استعمل هارون الرشيد عمّه روح بن حاتم المهلبي، فتخلّى له عن الولاية وليس له من الهنات التي تذكر غير تهاونه بأمر إدريس الأكبر.

انفصال المغرب الأقصى عن إفريقية بعد الأندلس:

اتّفق المؤرخون على أن دخول إدريس الأكبر إلى المغرب كان سنة 170 [787]، وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب، وقد وصفه المؤرخ ابن عذاري المراكشي وصفاً جليلاً، فقال عنه: «كان مالكاً لشهواته، فاضلاً في ذاته، موثراً للعدل، مقبلاً على البرّ»[22]. قدم إلى المغرب بعد مقتل ابن عمه الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في واقعة فخ[23] أيام ولاية يزيد بن حاتم على إفريقية فآنس البربر

---

(22) ابن عذاري، ج 1 ص 101-102.

(23) فخ، اسم لوادي بمكة قتل فيه الحسين المذكور وكان خرج يدعو للبيعة إلى نفسه في ذي القعدة سنة 169 فبايعه جماعة من العلويّين بالمدينة على الخلافة وخرج إلى مكة. فلما كان بفخ لقيته جيوش العباسيّين وكان لقاؤهم في يوم التروية فأصيب بسهم وخرّ صريعاً. (المؤلف).

بمقدمه وأجابوا إلى طاعته وتعظيمه وتمّ له ذلك في سنة 173 [790] وكمل له الأمر ببيعة قبائل تازة سنة 174 [791]، فأعلن يومئذ استقلاله بالملك، وفصل بلاد المغرب عن إفريقية[24].

تعيين روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب على إفريقية:

لما بلغ هارون الرشيد وفاة يزيد بن حاتم ندب أخاه وعيّنه مكانه في الولاية، فقدم إليها في رجب سنة 172 [789] وكان على فلسطين[25] فأحضره الرشيد إليه فعزّاه في أخيه وقال له: قد ولّيتك مكانه لتحفظ صنائعه ومواليه ولتسير على سنّته.

كان روح بن حاتم من وجوه الدولة وقد تقلّب في أهمّ المناصب منها الحجابة للمنصور ثم تقلد الولايات العظيمة منها البصرة ثم الكوفة، فالسند وطبرستان وفلسطين وكان كبقيّة آله في السخاء والكرم وعلوّ الهمّة وبعد الصيت في الأدب، ومما يؤثر عنه في ذلك أنه بعث لكاتب له عطية بها 30.000 درهم ومعها توقيع لا يدرى أيهما كان أوقع في نفس الكاتب العطيّة أم التوقيع؟ فقد قال في التوقيع: بعثت لك بثلاثين ألف درهم، لا أستقلّها لك تكبّراً ولا أستكثرها تمنّناً، ولا أقطع عنك بها رجاء بعد، والسلام. وكان رحمه الله أكبر من أخيه يزيد غير أنه لما ولي القيروان غلبه الضعف وانتابته الشيخوخة فتوفّي ليلة الأحد سلخ 22 رمضان سنة 174 [791] ودفن بالقيروان إلى جانب أخيه يزيد[26].

---

(24) ابن عذاري، ج 1 ص 102.

(25) نفس المرجع.

(26) ابن الأثير، ج 6 ص 78.

وقبل وفاة روح كتب نصر صاحب بريد القيروان إلى الرشيد مع جملة من أكابر القوّاد يخبرونه بضعف روح بن حاتم، ويقولون: إن إفريقية ولاية واسعة الأطراف لا تستقيم بغير سلطان قاهر وحاتم لا فضل فيه للولاية. فكتب الرشيد عهده بولايتها إلى نصر بن حبيب المهلبي وكان على الزاب، وبعث به سرّاً يبلغه إليه. ولما مات روح قام صاحب البريد صحبة أبي العنبر فأوصل الكتاب إلى نصر وسلم عليه بالإمارة وأتيا به إلى القيروان وأعلنا قدومه إلى الناس وقرآ عليهم كتاب أمير المؤمنين بولايته عليهم فارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والطاعة لأمير المؤمنين وكانت ولاية نصر قصيرة لكنها خالية من الأحداث.

ولاية الفضل بن روح بن حاتم بن قبيصة المهلّبي على إفريقية:

في سنة 176 [792] عيّن الرشيد على إفريقية الفضل بن روح وكتب بعزل نصر بن حبيب، فقدم الفضل من العراق وكان قدومه في المحرم سنة 177 [793]، ولما وصل استعمل على تونس ابن أخيه المغيرة بن بشر، وكان مغروراً غير ذي تجربة ولا دراية بالسياسة فاستخفّ بالجند. وكان الفضل أيضاً غير محمود السيرة. وكان الجمهور يميل إلى نصر بن حبيب السابق. فاجتمع الجند بتونس وكتبوا إلى الفضل يستعفونه من المغيرة ابن أخيه فأبى أن يجيب إلى طلباتهم فقرّروا خلعه ونقض طاعته. فقال لهم محمد بن الفارسي أحد قوّاد جند الخراسانية: إن كلّ جمعية لا رئيس لها فهي إلى الهلاك أقرب. فالنصيحة أن تختاروا من بينكم رجلاً يدبر أموركم. فاتفقوا على تقديم قائد منهم يدعى عبد الله بن الجارود ويعرف «بعبد ربّه الأنباري» فقدموه عليهم،

وبايعوه على السمع والطاعة وأخرجوا المغيرة من الولاية. وكتبوا إلى الفضل يقولون: إنّنا لم نخرج أبداً عن طاعته ولكنه أساء السيرة فأخرجناه فولّ علينا من ترضاه[27].

مؤامرة جند تونس على الفضل ومكايدته:

لما وقف الفضل على شكاة جند تونس من عاملهم المغيرة ابن أخيه عزله واستعمل عليهم ابن عمه الفضل بن عبد الله بن يزيد بن حاتم وسيّره إليهم. فلما كان على مرحلة من تونس أرسل إليه ابن الجارود جماعة لينظروا في أيّ شيء قدم، وأمرهم أن لا يحدثوا حدثاً إلاّ بإذن. فساروا إليه، وقال بعضهم لبعض: إن الفضل يخدعكم بولاية هذا ثم ينتقم بإخراجكم ابن أخيه. فتآمروا على الفضل بن عبد الله ثم عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا من كان معه من القواد أسرى. فاضطرّ حينئذ عبد الله بن الجارود ومن معه إلى القيام في وجه الفضل والجدّ في إزالته. وانتدبوا ابن الفارسي لتنفيذ مؤامرتهم الآثمة. فجعل يكتب إلى كل قائد بإفريقية ومتولي مدينة يستغويهم ويستهويهم وكان يقول لهم: إنا نظرنا إلى صنيع الفضل في بلاد أمير المؤمنين وسوء سيرته فلم يسعنا إلا الخروج عليه لكي نرحله عنّا. ثم نظرنا فلم نجد أحداً أوَلى بنصيحة أمير المؤمنين لبعد صوته وعطفه على جنوده منك. فرأينا أن نجعل نفوسنا دونك فإن ظفرنا جعلناك أميرنا وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك علينا، وإن كانت الأخرى لم يعلم أحدٌ أننا أردناك والسلام[28].

(27) نفس المرجع، ج 6 ص 93.

(28) نفس المرجع، ج 6 ص 99.

وبهذه المؤامرة الخبيثة التي أحكموا تدبيرها أفسدوا جميع الجند على الفضل وكثرت اجتماعاتهم حتى بلغه خبرهم، فساق عليهم عسكراً كثيراً. وأراد أن يضربهم ضربة قاضية، ولكن دون أن ينتبه إلى أن عسكره قد فسد عليه فإنهم لم يتقابلوا مع جند تونس حتى انهزموا منهم وكرّوا منهزمين إلى القيروان وتبعهم ابن الجارود، فحاصر العاصمة يوماً واحداً ثم قام أهل القيروان وفتحوا أبوابها للثائرين فدخلها ابن الجارود بمن معه في جمادى الآخرة سنة 178[794] وأخرج الفضل من قصر الولاية ووكل به ومن معه من أهله من يوصلهم إلى قابس، فساروا يومهم. ثم أمر ابن الجارود بردّهم وقتل الفضل بن روح بن حاتم. وبمقتله انقرضت إمارة المهالبة من إفريقية والملك للّه وحده، بعد أن دامت 33 سنة. وبعد مقتل الفضل علم الجند بما كان يظهر ابن الجارود وأنه يريد أن يتغلّب بمكره على البلاد، فغضبوا لمقتل أميرهم البريء وأجمعوا على قتال ابن الجارود وحرمانه من الولاية. فسيّر إليهم جنوداً من قِبَله فانهزموا بمجرّد ما تلاقوا مع الجند الغاضب وعادوا إليه، واستولى الغاضبون على القيروان ثم تفرقوا من تلقاء أنفسهم، فوصل إليهم ابن الجارود، وبمجرّد ما لاقوه انهزموا وقتل جماعة من أكابرهم ولحق المنهزمون بالأربس وقدموا على أنفسهم العلاء بن سعيد عامل الزاب، وساروا مجتمعين إلى القيروان للانتقام من الخائن المرتاب.

وصول مندوب عالٍ من قِبَل أمير المؤمنين لتلافي الثورة ومكر ابن الجارود به:

لما بلغت أخبار ثورة الجنود في إفريقية إلى الرشيد أوفد لها

يحيى بن موسى، نظراً لما له من المنزلة عند العساكر الخراسانية وأمره أن يتقدّم إلى ابن الجارود فيتلطّف له ويستميله ليعاود الطاعة قبل وصول الوالي الجديد هرثمة بن أعين. فقدم يحيى القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود أخذ ورد في خروجه وقيامه ووجوب الطاعة لأمير المؤمنين. ودفع له يحيى كتاباً منه. فقال له ابن الجارود وهو يداوره ويخاتله: أنا على السمع والطاعة لأمير المؤمنين ولكن العلاء بن سعيد هجم علينا ومعه البربر. فإن تركت القيروان وثب عليها وملكها البربر، وحينئذ أكون قد ضيّعت بلاد أمير المؤمنين، وأرى من الأوفق أن أخرج لمناجزة العلاء فإن ظفر بي فشأنكم والثغور، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة بن أعين فأسلّم إليه البلاد وأسير إلى أمير المؤمنين.

ولم يكن ابن الجارود جادّاً في قوله، بل كان يماكر مندوب أمير المؤمنين ليكتسب الوقت حتى إذا ظفر بالعلاء، وقف في وجه هثرمة ومنعه من الدخول إلى البلاد. وقد علم يحيى بذلك فدعا محمد بن الفارسي ولمّا خلا به لامه على إخلاله بالطاعة ومسايرته لابن الجارود. فاعتذر له وأقسم أنه لم يزل على وفائه لأمير المؤمنين. ووعد ببذل نفسه لمقاومة ابن الجارود[29]. وفعلاً فقد سعى في استمالة الجنود. فأجابوه وانضمّوا إليه وخرج بهم لقتال ابن الجارود. ولما علم هذا منه بذلك أيقن بالهلاك فأوعز إلى رجل من أصحابه اسمه طالب وقال له: إنني سأدعو ابن الفارسي لأعاتبه، فإذا تواقفنا فاقصده أنت من خلف وهو غافل فاقتله. فأجابه طالب إلى ذلك.

(29) ابن الأثير، جـ 6، ص 94-95.

ولما تواقف العسكران دعا ابن الجارود محمد بن الفارسي وكلّمه في الموضع، فأتاه طالب من خلفه وحمل عليه وهو غافل فقتله وانهزمت جنوده. وتوجّه يحيى بن موسى من حينه لملاقاة هرثمة بن أعين على طرابلس وترك ابن الجارود يتعسّف في البلاد.

بلاء العلاء بن سعيد في مقاومة فتنة عبد الله بن الجارود:

أما العلاء بن سعيد فإنه أخذ يكاتب الناس بالطاعة ويحذرهم من الوقوع في المعصية حتى أقبل عليه الجنود من كلّ ناحية، وكثرت حشوده فخرج إلى القيروان لمناجزة ابن الجارود، ولما علم هذا بمقدمه وأنه لا طاقة له به كتب إلى مندوب أمير المؤمنين يحيى بن موسى يدعوه إلى القيروان ليسلّم إليه مقاليد الإمارة، فسار إليه في جند طرابلس في المحرم سنة 179[795]. فلما وصل قابس تلقّاه الجند بالتجلّة والاحترام ومعهم ابن الجارود مستهل صفر. وكانت ولاية ابن الجارود المغتصبة سبعة أشهر. وتقدم يحيى بن موسى والعلاء بن سعيد يستبقان إلى القيروان، كلّ منهما يريد أن يكون له الذكر في إنقاذها. فكان السبق للعلاء فدخلها ظافراً بعد أن فتك بأصحاب ابن الجارود وأنقذ البلاد من شرهم.

اعتقال ابن الجارود وإرساله إلى بغداد تحت الحفظ:

بعد أن تمّ الفوز للعلاء بن سعيد توجّه للقاء هرثمة وسار ابن الجارود أيضاً[30] للقائه. ولما لقيه قبض عليه وسيّره إلى

(30) نقلنا هذه الرواية عن ابن الأثير. وأما ابن عذاري المراكشي فإنه يقول إن ابن الجارود استمرّ في طغيانه وخرج فارّاً إلى تاهرت وإن هرثمة تعقّبه إليها وقتله=

الرشيد. وكتب إليه يعلمه بخصال العلاء وسعيه الحميد في إطفاء فتنة ابن الجارود. فكتب إليه الرشيد بتوجيه العلاء بالإعزاز والتكريم. ولما بلغ إلى مصر وافته بها صلات الرشيد وخلعه ثم واصل سيره إلى بغداد لكنه لم يلبث بها غير قليل حتى أدركته منيّته. وأما ابن الجارود فقد اعتقل في سجن بغداد جزاء خيانته وإخلاله بالطاعة لأمير المؤمنين.

ولاية هرثمة بن أعين على إفريقية:

وهو معدود من أقطاب الدولة العبّاسية وكانوا لا يوجّهونه إلا في المهامّ العظيمة. قدم القيروان في ربيع الأول سنة 179[795] ولم يصلها إلا بعد انقضاء فتنة ابن الجارود، فآنس أهل القيروان بمقدمه خيراً كثيراً بعد أن غشيهم من الفتن ما غشيهم، فأحسن إليهم. وانفتح عهد ولايته على إفريقية بتعيين إبراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب. وكان مولده بالقيروان ونشأ فيها على المحامد. ومن مآثر هرثمة في هذه الولاية تشييد رباط المنستير وبناء سور طرابلس ممّا يلي البحر وقد أتمّهما سنة 180 [796](31)

وبالرغم من عدله وإحسانه فقد خرج عليه عياض بن وهب

بها مع من قتلهم من الثوّار. والظاهر أن رواية ابن الأثير أصحّ (المؤلف).

[والواقع أن ابن عذاري قد ذكر أن العلاء قد رحل إلى طرابلس «وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء. فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه سائراً إلى المشرق. فلقوا هرثمة بن أعين قد وصل بولاية إفريقية.. ولما لقي هرثمة ابن الجارود سيّره إلى هارون الرشيد» (جـ 1 ص 109) فليس هناك تناقض بين الروايتين].

(31) ابن الأثير، جـ 6، ص 96.

الهوّاري، وكليب بن جميع الكلبي وجمعا له جموعاً يريدون قتله فسيّر للوقيعة بهما يحيى بن موسى في جيش لجب ففرّق جموعهما وقتل منهم خلقاً وألزم من بقي منهم الطاعة ثم عاد ظافراً إلى القيروان.

ولما رأى هرثمة ما بإفريقية من الاختلال والانشقاق أشفق على سمعته وواصل كتبه إلى الرشيد يستعفيه من هذه الولاية حتى أعفاه وأمره بالقدوم إلى العراق. فارتحل عن إفريقيّة في رمضان سنة 181[797]. فكانت مدّته ثلاثين شهراً. ولما وصل عيّنه الرشيد أميراً على حرس الخلافة.

ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكّي على إفريقيّة:

في الشهر والسنة اللذين ارتحل فيهما هرثمة بن أعين عن إفريقيّة، وصلها محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، أخو هارون الرشيد من الرضاع. وكان أبوه معدوداً من أكابر رجال الدولة العباسية. وكان محمد كما يصفه المؤرّخون محمقاً ضعيف الرأي غير محمود السيرة، فاختلف عليه جنده، واتفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدي وألّب عليه كثيراً من الجنود العرب والبربر وغيرهم فسيّر إليه محمد بن مقاتل جيشاً يناجزونه فانهزم مخلد واختفى في مسجد فأُخرِج منه قسراً وذُبِح ذبح الشاة.

وخرج عليه تمام بن تميم التميمي وكان على تونس مقتفياً بسلفه ابن الجارود فزحف إليه في رمضان سنة 183[799] وكان معه فوج عظيم من القوّاد والأجناد من أهل الشام وخراسان، فخرج العكّي لقتاله في غير تعبئة حسنة، فتقاتلا بظاهر القيروان،

فانكسر العكي ولحق بداره واتخذها عصاماً له. ودخل تمام القيروان في يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رمضان السنة. فأمّن العكي وأمره بالرحيل من إفريقية، فخرج منها بأهله إلى طرابلس وهو لاحق بالعراق.

ولما بلغ إبراهيم بن الأغلب خبره وكان عاملاً على الزاب، سار إلى القيروان فصدّ عنها تمام خوفاً من بطشه وكرّ راجعاً إلى تونس، فدخل ابن الأغلب القيروان في حفل عظيم وأذاع في الناس أنه إنما قدم لنصرة العكّي المعيّن عليهم من قِبَل أمير المؤمنين. وكتب إليه يدعوه من طرابلس فرجع بمن معه من فوره إلى القيروان في حماية إبراهيم بن الأغلب. فثقل ذلك على أهل البلد، وبلغ من تجنّيهم عليه أنه خرج يوماً يتمشى في المدينة فأشرفت إحدى العقائل من شرفة بيتها وقالت: أيّها العكّي اشكر هذه النعمة لإبراهيم بن الأغلب الذي حماك ومنعك وردّك إلى ولايتك سالماً، بعد أن فرّطت فيها وأضعتها بسوء رأيك وفساد تدبيرك. فسقط في يده وانخذلت نفسه ولم يحر جواباً[32].

ولمّا بلغ خبر رجوعه إلى تمام كتب إليه يمكر به ليوقع بينه وبين إبراهيم: أما بعد فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردّك عن كرامتك عليه، ولا للطاعة التي يظهرها لأمير المؤمنين، ولكن كره أن يبلغ أخذه البلاد فترجع إليه. فإن منعك كان مخالفاً لأمير المؤمنين وإن دفعها إليك كان ما فعله لغيره، فبعث إليك

(32) ابن الأثير، جـ 6 ص 105-106.

لترجع ثم يسلمك للقتل وغداً تعرف ما جرّبت من قتالنا بالأمس[33].

ولما وصل كتابه ألى العكّي دفعه إلى إبراهيم ولما قرأه ضحك وقال: قاتله الله ما أضعف رأيه وأوهى حيلته: فردّ عليه العكّي بإشارة من إبراهيم:

فإن كان ما قلته نصيحة فليس من خان الله والخليفة مقبولاً منه ما نصح به، وإن كان خديعة فأقبح الخدائع ما فطن له. ثم طوى الكتاب وأرسله.

ولسنا نغرب إذا قلنا إن هوى الناس يومئذ مع تمام، فقد اجتمعوا عليه لفزعهم من العكّي وكراهيتهم له، فخرج بهم من تونس إلى القيروان لمناجزة العكّي وهو يظنّ أن الناس يكرمونه ويساعدونه على قتاله. ولما وصل قال إبراهيم لابن العكي: إن تماماً انهزم منّي وأنا في قلّة، فلما وصلتَ تجدّد له الطمع، لعلمه أن الجند يخذلونك، والرأي أن تستقرّ في مكانك، وأنا أخرج إليك بمن معي من الجنود. ففعل ذلك وخرج إليه إبراهيم في طلبه، ولما أحسّ تمام منه بذلك بعث إليه يطلب منه الأمان، فأمّنه وأتى به القيروان بعد أن عزله وأشفى منه غليل العكّي[34].

غير أن كراهيّة أهل البلاد لولايةالعكّي كانت شديدة، فحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن يكاتب الرشيد يطلب منه تعيينه على إفريقية. فكتب إليه بذلك وكانت نفقات الولاية تحمل

---

(33) ابن عذاري، جـ 1، ص 113-114.

(34) ابن الأثير، جـ 6، ص 106.

إليها من مصر وهي 000 100 دينار كلّ سنة، فتنازل لها عنها إبراهيم ووعد أن يحمل إلى دار الخلافة 000 40 دينار كلّ سنة. فأحضر الرشيد ثقاته واستشارهم فيمن يوليه أمر إفريقية يكفيه مؤونة هذا الثغر[35] ويمنع عادية العادين عليه. وذكر لهم كراهية أهله ولاية محمد بن مقاتل العكّي. فأشار عليه هرثمة بن أعين بتولية إبراهيم بن الأغلب وجعلها وراثية في عقبه. وذكر له ما رأى فيه من العقل والدين والكفاية. فوافقه الرشيد على رأيه وأقام إبراهيم بالقيروان يراقب أعمال الثوّار وحركاتهم إلى أن وافاه التقليد بالولاية من هارون الرشيد في أواسط جمادى الآخرة سنة 184[800]، والأمر بإرجاع العكّي إلى العراق.

---

(35) نفس المرجع.

البَابُ الثَالثُ

الدّولــة الأغلبــيّة

(184-296 هـ/ 800-909 م)

1 ـ نشأة الدولة الأغلبية

ظهور النظام اللاّمركـزي في دولة بني العباس وتجزئة البلاد إلى ممالك عنصرية:

لا مفرّ لبني العبّاس في خلافتهم، بعد أن أيقظوا الروح الشعوبيّة (القومية) في أقطار الإسلام، وقد كانت مداراً لدعاوتهم السياسية المصطبغة بالصبغات القومية، من إعـطاء الاستقلال الداخلي للولايات غير العربية، الواحدة تلو الأخرى ومنها ولاية إفريقية، وذلك لسببين جوهريّين:

الأوّل جنوح الشعوبية إلى التخلّص من الحكم العربي المركزي ومناداتهم بالاستقلال الداخلي وإدارة بلادهم البعيدة عن مركز الخلافة، مع صعوبة المواصلات، أضف إلى ذلك توارد الشكايات من سوء تصرف العمّال والولاة. وقد يعسر على خلفاء بني العبّاس إنصافهم بغير إيجاد ذلك النظام لإقرار هيبة الدولة في النفوس وقطع دابر الخلاف والثّار.

والثاني قيام السياسة العباسية على الدعاوة بتقبيح نظام

المركزية في الحكم الذي وضعه المروانيّون وكانوا يشنّون به الغارة عليهم، تنفيراً للأعاجم من حكمهم. وقد كانوا يعدونهم ويمنّونهم إن هم أجابوهم إلى دعوتهم أن يُمتّعوهم بنوع من الاستقلال الذي حُرموه. وطبيعي أن يكون انتقال الحكم إلى العبّاسيّين فاتحة انقلاب سياسي تتطوّر به حياة الشعوب غير العربية الداخلة في الإسلام وتعويضها بنوع من نظام الإقطاع القائم على اصطناع الأُسَر. وهذا ما حصل بالفعل. فقد كانت فاتحة هذه التجربة بولاية إفريقية على عهد الرشيد، لكنها كانت ناقصة، لذلك كان مصيرها إلى تفكك وحدة الدولة، بعد أن كانت منظّمة أمميّة قائمة على أساس التكافل بين الأجناس، وذلك لفقدان التجانس في نظام اللامركزية الجديد. وهكذا تجرّد الخلفاء العباسيّون بالتدريج عن سلطتهم التنفيذية في الأقطار للولاة دون أن يبقى لهم منها غير النعوت والألقاب. فإن هذا النوع من الحكم أيقظ النعرات الجنسية في مختلف الأقوام التي صهرها نظام الخلافة، وصار همّ كلّ قوم الاعتزاز بذاتيّتهم مكان الوحدة. ثم تدرّج بهم هذا التفكك إلى أن صار أوضاعاً قوميّة نابية عن وحدة الإسلام. وتحت ضغط هذه التجربة القاسية المنافية لروحية الإسلام، تناثرت الممالك الإسلامية الواحدة تلو الأخرى من عقدها النضيد الذي أحكم المروانيّون انتظامه. وفي النهاية آل الأمر إلى تداعي ملك العرب وقيام العناصر المغلوبة عليهم، وتخلّي العرب عن السيادة القعساء التي شادتها سيوفهم، والرضى بالرضوخ لحكم الموالي. وهذا ما يدعو المؤرخ العربي إلى اتهام الانقلاب العباسي بأنه كان مؤامرة كيدية ضدّ العرب

لانتزاع سيادة الحكم من أيديهم وتسليمها إلى الأعاجم، وهو ما كان يحاذره المروانيّون ووقع فيه العباسيّون اعتباطاً فهدموا كيان قومهم بدل أن يشدّوه ويشيدوا بذكره.

ومهما عتبنا على العباسيّين سعيهم في تفكيك وحدة الخلافة السياسية، فلا يسعنا إلاّ أن نصوّب رأيهم في جعل إفريقية ولاية ممتازة وإناطة إدارتها لإبراهيم بن الأغلب وجعلها وراثية في عقبه. فقد أحدث من أنقاضها مملكة إسلامية عظيمة، سارت على غرار الأمويّين في السياسة والفتوح وترقية البلاد، علماً واقتصاداً، ولولا قيام الباطنية وفرقها الهدّامة التي نكب فيها الإسلام في غفلة حماتها عنها وتأثيرها الخبيث في ذهنيّة فلول البرابرة الكتاميّين، لاكتسحت فتوحاتها الظافرة كامل القارة الأوروبيّة وركّزت الإسلام في المهد الثاني للنصرانية، كما أقرّه الخلفاء الراشدون في مهدهاالأوّل بالمشرق. ولكن أنّى لنا بذلك وأيدي الهدّامين قويّة مطلقة تعبث في الإسلام هنا وهناك وأيدي البناة مغلولة، والأعداء متضافرون على قطعها.

وهكذا كان ولله عاقبة الأمور.

الدولـة الأغلبيّـة:

كانت الدولة الأغلبية دولة عربية مسلمة بأوسع معاني الكلمة، رشيدة الأمر، حكيمة السياسة. وكان منهجها في الحكم إدماج البربر في العرب وتحويل نشاطهم إلى الخارج، والتعالي عن مناوأة البلاد المنفصلة عنها كالمغرب الأقصى والأندلس، بل تنحّت عنها وانصرفت إلى الفتح والتوسّع في قارة أوروبا وتركيز

سياستها في علائقها مع الدول المجاورة لها على أساس القوّة والسطوة فكانت بذلك المثل الأعلى لعظمة الدولة الإسلامية في الخارج.

ولاية إبراهيم بن الأغلب على إفريقية:

هو إبراهيم بن الأغلب (الوالي الأسبق) بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، من مواليد القيروان. وكان من رجال الدنيا الأفذاذ في العلم والسياسة وحسن التدبير والدراية بالحروب ومكانه بها. وقد ترجم له ابن عذاري المراكشي فأثبت له أنه كان حافظاً لكتاب الله وعالماً به وقال عنه أنه فقيه أديب، وشاعر خطيب، وذو رأي ونجدة، وبأس وحزم، جريء الجنان، طويل اللسان، لم يل إفريقية أحد أحسن سيرة وسياسة ورأفة بالرعيّة، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه. وهي صفات نادرة، قلما تتوفّى إلا في أكابر الرجال من مؤسّسي الدول. وكان أستاذه الليث بن سعد يقول عنه أيام تحصيله: «ليكوننّ لهذا الفتى شأن». فكان كما قال حسنة من حسنات الدهر في توطيد مملكة إفريقية وإزالة ما تفشّى فيها من ذرائع الخلاف بين البربر والعرب[1].

وافاه التقليد بالولاية من هارون الرشيد في المحرم سنة 184 [800]، فخضعت له قبائل البربر ودانت له بالطاعة واستقامت به أحوالهم. ولم يشاغب عليه أحد سوى العرب. وافتتح حكمه الميمون بإبعاد تمام ومن كان على شاكلته من العرب المتكالبين

---

(1) ابن عذاري، جـ1، ص 116.

على تسلّق العروش وطلاّب الولاية إلى العراق، ورأى من أصالة رأيه اجتناب الإقامة في القيروان المنافقة المتردية. وابتنى بالقرب منها عاصمة له سمّاها العبّاسية[2] وانتقل إليها بأهله وحاشيته وعساكره، وقايةً لهم من شرّها، فضبط الأمور وانقطعت الفتنة وأمنت البلاد من الغوائل.

وفي سنة 186 [802] خرج عليه بمدينة تونس رجل من أبناء العرب اسمه حمديس فنزع السواد وكثرت جموعه فنهد إليه إبراهيم جنوده بقيادة عمران بن مجادة العامري وأمره بأن لا يبقي على أحد منهم، قطعاً لدابر الفتنة. فسار إليه عمران فقاتله حمديس وكانوا يصرخون في قتالهم: بغداد بغداد (أي ارجع إليها)، فصبر لهم عمران إلى أن أخذهم بالسيف. وحكى ابن الأثير أنه قتل في هذه الواقعة 10,000 رجل ودخل عمران مدينة تونس ظافراً بعد أن طهّرها من أدران الشغب والفتنة[3].

ومن حكمة إبراهيم السياسية أنه لما بلغه أن إدريس الأصغر بعد أن أكثر جمعه في المغرب أصبح يطمع في إفريقية وأنّ مولاه راشد يقوم له بدعاية واسعة النطاق مطابقة لمنازع البربر وأهوائهم، فأبى أن يجهز عليه وأعمل الحيلة لصرفه عن بلاده. فكاتب القائم بأمره من المغاربة واسمه بهلول بن عبد الواحد وأهدى إليه ولم يزل يلاينه ويستدرجه حتى فارق إدريس وانضم

---

(2) وكانت تعرف أيضاً «بالقصر القديم»، انطمست الآن آثارها وتسمّى بقايا أنقاضها «بقصور الأغالبة» في جنوب القيروان على 4 كيلو متر منها (ح. ح. عبد الوهاب).

(3) ابن الأثير، جـ 6، ص 107.

إليه وتفرّقت الجموع عن إدريس، فكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويستجديه الرضى والكفّ عنه، وهو يناشده في ذلك قرابته من رسول الله ﷺ. فأمسك عنه رحمةً به وكتب إليه: «إني أتركك ما تركت الفساد والشغب في بلادي»[4].

ولمّا استقامت البلاد لإبراهيم وأقبل الناس على شؤونهم وأمسكوا أيديهم عن البغي، دبّ الشرّ في معطس عمران بن مجادة الربيعي العامري، القائد الأعلى للجيوش فثار على إبراهيم، بعد أن رفعه إلى أسمى الرتب وأنزله معه قصره وأشركه في نعمته، والسبب في ذلك على ما يرويه المؤرخون، أنه ركب معه يوماً وهو يحدثه فلم يفهم إبراهيم من حديثه شيئاً لاشتغاله عنه بمهمّ عرض له، فاستعاد منه الحديث، فغضب عمران من ذلك وفارق إبراهيم وجمع حوله كثيراً من الجنود وأظهر العصيان ونزل بمن معه بين القيروان والعباسية ثم تبعه قريش بن التونسي في تونس واجتمع حولهما خلق كثير من مشايعي الفتن وتقدّموا لحصار إبراهيم في قصره بالعباسية. وخالف عليه أيضاً أهل القيروان وانضمّوا إلى العصاة. ودخل عمران بمن معه القيروان، فكانت بينهم وبين إبراهيم وقعة شديدة في أوّل رجب، انهزم فيها إبراهيم. ثم التقوا مرّة ثانية فانهزم فيها أيضاً ثم التقوا مرة ثالثة، فكانت الدبرة على العصاة. ولما أحسّ عمران بالضعف أرسل إلى الإمام أسد بن الفرات صاحب الأسدية ليخرج معهم إلى القتال، فامتنع، فأعاد إليه الرسول وقال له: تخرج معنا وإلاّ

---

(4) نفس المرجع.

أرسلنا إليك من يجرّ رجلك. فقال أسد للرسول: قل له والله إن خرجت لأقولنّ للنّاس إن القاتل والمقتول منكما في النـار. فكفّ عنه. ولما أدرك إبراهيم الفوز على خصمه، خندق على العبّاسية ورابط فيها دون أن يناجزه ومكث بعد رجب ينـاوش العصاة واستمرّ على ذلك سنة كاملة، حتى بلغ الرشيد الخبر، فأنفذ إلى إبـراهيم خـزانـة مـال يستعين بهـا على أمـره، فلمـا صـارت إليه أمر المنـادين أن ينادوا في الجهـات، من كان من جنـد أمير المؤمنين فليحضر لأخذ عطائه، فخرج عن عمران جلّ من تبعه وتفرّقوا عنه وأقبلوا على إبراهيم ففرّق فيهم الأموال ولم يبق مع عمران إلا شراذم قليلة في أخلاط القيروانيّين، فوثب عليهم جند إبراهيم فولوا منهزمين، فنادى إبراهيم فيهم بالأمان والحضور لقبض العطاء وحضروا جميعاً فأعطاهم كفايتهم وسامحهم، لكنه أمر بقلع أبواب القيروان وهدم أسوارها، حتى تكون بلداً مفتوحاً لا يقدم أهله على الثيار وإلا عرضوا أنفسهم للتلف والهلاك[5].

وأما عمران فقد لاذ بالهرب ولجأ إلى الزاب واختفى إلى أن مات إبراهيم وولي بعده ابنه عبد الله فاستأمن له فأمنه وأسكنه في قصره كما كان مع أبيه، غير أن لما أحسّ منه ببعض الشرّ عدا عليه فقتله حيث لم يفد فيه الاصطناع.

وبعد انهزام عمران انقطعت الفتن من إفريقية وذاقت البلاد طعم العافية، وكان إبراهيم وافر الرعاية للعـرب والاصطنـاع بالعطاء للجنود وكان يرى امتلاك القلوب بصنوف البرّ أهون عليه من استعمال السيف. لكنه ما كان يتأخّر عن وضعه في رقاب

---

(5) نفس المرجع.

البغاة إذا لم يفد فيهم المعروف، كما فعل بأبي عصام ومن وافقه من الخارجين عليه حتى قطع دابرهم وانتزع الغلّ والحسد من القلوب وانقاد له الكافة رغبةً ورهبةً.

وفي سنة 196 [811] علم بتغيّر الأباضية في طرابلس الغرب، فعيّن عليها ابنه عبدالله ولم يكد يستقرّ بها حتى ثاروا عليه فحصروه في داره ثم اصطلحوا على أن يخرج عنهم وكانوا من الخوارج المنابذين لحكم أهل السنّة، فخرج عنهم ولم يبعد عن البلد حتى اجتمع إليه كثير من الناس وأجرى عليهم العطاء فأتاه البربر من كلّ صوب، فأعطى الفارس كلّ يوم أربعة دراهم والراجل درهمين، فاجتمع له عدد كبير من الجند، فزحف بهم على المدينة، فخرج إليه مقاتلتها فاقتتلوا معه إلى أن هزمهم ودخل عبدالله المدينة وأمن الناس وأقام بها إلى أن نحّاه عنها أبوه واستعمل مكانه سفيان بن المضاء للمرّة الرابعة. فثارت عليه هوارة طرابلس، فخرج إليهم في الجند فاقتتلوا اقتتالاً شديداً ثم ارتدّ سفيان بالجند إلى المدينة فتبعتهم هوّارة فخرج الجند هاربين إلى إبراهيم بن الأغلب ودخلت هوارة إلى المدينة وهدّموا أسوارها. وأجمعت فلول الجند على تأمير إبراهيم بن سفيان التميمي، فكانت ولايته سبعاً وعشرين يوماً[6]. ثم وقع بين الأبناء بطرابلس وبين قوم يعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف حروب كثيرة حتى أفسدت فيما بينهم، فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب فاستنجد بأحمد بن إسماعيل وجمع من قِبَله جمعاً كبيراً وسيّر

(6) ابن الأثير، جـ6، ص 132.

عليهم ابنه عبدالله. فخرج إليهم في 13000 فارس وأمره أن يحضر بني أبي كنانة والأبناء وبني يوسف، فقاتل البربر إلى أن هزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل المدينة عنوة وبنى سورها وساق إلى القيروان الذين طلبهم أبوه. فلما قدموا عليه أراد معاقبتهم بما يستحقون، فسألوه العفو فعفا عنهم وأعادهم إلى بلادهم، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة. ورجعت نجدة أحمد بن إسماعيل إلى مصر بعد أن اشتركت مع جنود إبراهيم في قمع الثورة[7].

ولما اتّصلت هزيمة الأباضيّين من البربر بعبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، جمع إليه من أطاعه منهم وحرضهم على قتال العرب، فأجابوه إلى ذلك وأقبل بهم من طريق الصحراء إلى طرابلس وحصرها من كلّ جانب فسدّ عبدالله بن إبراهيم باب زناتة وأخذ يقاتلهم من باب هوّارة إلى أن توفّي أبوه وقد عهد إليه بالولاية.

فكتبب إليه أخوه زيادة الله بذلك، فأخذ الأباضية الرسول والكتاب ودفعوهما إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم فأمر أن ينادي عبدالله بن إبراهيم بموت أبيه. ولما علم بذلك نزل إلى البربر فصالحهم على أن يكون البلد والبحر تابعين لمملكة إفريقية، وما كان خارجاً عنهما يكون للأباضية ويتولّاها عبد الوهاب. وسار عبدالله من ساعته إلى القيروان ليتقلّد الإمارة مكان أبيه[8].

---

(7) النجوم الزاهرة، جـ2، ص 125.

(8) ابن الأثير، جـ6، ص 187.

أما إبراهيم رحمه الله تعالى، فإنه بعد أن وطّد الملك لأولاده وقطع دابر العصاة وراضى الناس بالرغبة والرهبة وأقبلوا على أشغالهم وتوفّرت لديهم المكاسب وتضاعف الخراج فاستغنت الحكومة بذلك عن 100,000 دينار التي كانت تتقاضاها من خزانة مصر لسدّ عجز نفقاتها، رأى من الصيانة للمملكة أن يبتعد عن القيروان بؤرة الثيار والهرج وأن ينشىء لدولته الفتية عاصمة جديدة فاختار لها كما قلنا العباسية وأمر بأن تنقل إليها جميع الدواوين[9] السياسية والعسكرية. فعمرت بسبب ذلك وأقبل عليها الأغنياء ووجوه الناس وشيّدوا فيها القصور والعمارات والدكاكين والأسواق وتنافسوا في البناء إلى حدّ بعيد حتى صارت في بضع سنوات من أبهج العواصم وأحفلها وأقبل السفراء ووفود الأمم عليها من كلّ صقع، وكان من جملتهم سفير فرنسا على عهد شرلمان[10].

ومن جملة الإصلاحات النافعة التي أجراها إبراهيم بن الأغلب قبل وفاته إيجاد جيش كثيف من الزنج بلغت عدّته 80000 ليكون الاعتماد عليه في قراع النازعين للخلاف من العرب والبربر، وإن كان اعتماده في الواقع لا على الجيش بل على الإحسان والرعاية. فإنه لم يؤثر عنه قطّ أنه غمط حقّاً لأحد من العرب أو البربر. وقد دأب على هذه السياسة المثلى التي جمع فيها بين الحزم والكياسة، إلى أن وافاه الأجل المحتوم في العشر

(9) ابن عذاري، جـ1، ص 117.

(11) شارلمان، أحمد ملوك الإفرنج العظام تولى من سنة 768 إلى سنة 814 م.

الأواخر من شوال سنة 196 [811]، بعد أن حكم البلاد بكفاءة وجدارة نادرتين 12 سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، وهو لم يتجاوز من العمر 56 سنة، فحزنت على فقده البلاد وثكله الملك وبكاه الإصلاح والإحسان.

ولاية أبي العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب:

لما توفّى إبراهيم بن الأغلب كان عبدالله كما أسلفنا متغيّباً في طرابلس الغربَ وكان أبوه قد عهد إليه بالولاية من بعده وأمر ابنه الثاني زيادة الله أن يتولّى أخذ البيعة لأخيه. فقام زيادة الله بالوصيّة خير قيام وأخذ له البيعة على الناس وبعث بها إليه. فقدم عليه سنة 197 [817][11]، فتلقاه زيادة الله بحفاوة عظيمة. غير أن عبدالله لم يحفظ هذا الوفاء لأخيه، بل تنكّر له وقابل إحسانه بالإساءة وأمر بطانته بإطلاق ألسنتهم فيه. فتحمّل ذلك زيادة الله برباطة جأش ولم يظهر تغيّراً لأخيه، خوفاً على الملك ومحافظةً على الطاعة والولاء ليعطي بذلك مثلاً أعلى للناس.

وكان عبدالله من أجمل أهل زمانه، لكنّه كان قبيح السلوك لا في سياسته مع أخيه فحسب، بل في سياسته العامة أيضاً، خصوصاً في أخريات أيامه. فقد سلك بالبلاد مسلك الخشونة والعنف وحاد عن سنن أبيه. ومن جملة ما أوغر به صدور العامّة إلغاؤه لضريبة الأعشار وتعويضها بخراج قارّ علـى الأراضي قطعه على كلّ فدان ثمانية دنانير[12] أصابت الأرض أم أمحلت. ولو فعل ذلك لزماننا لحمده الناس وخلدوه، لكن فعله في زمن

---

(11) ابن عذاري، جـ 1، ص 120.

(12) وفي رواية ابن الأثير 18 ديناراً (المؤلف).

ما زال الناس فيه على سذاجتهم لا يفقهون فلسفة الاقتصاد. فكان في نظرهم أوّل أمير خرج على أحكام الشريعة المطهّرة فكرهوه وحسبوا ولايته بليّة نزلت بهم بعد أن تيمّنوا بعهد أبيه وقد حال دون ثيارهم عليه تنظيمات أبيه، أخصّها تأليف جند الزنج. ولم تفد فيه نصائح علماء عصره ولا مواعظهم، فلجأوا إلى الدعاء عليه، واستمرّ على طريقته لا يعبأ برضا أحد أو غضبه حتى أصابته قرحة تحت أذنه كانت بها وفاته ليلة الجمعة لستّ خلون من ذي الحجة سنة 201 [817]، بعد أن مكث في الملك خمسة أعوام وثلاثة أشهر إلا أيّاماً[13].

2 ـ إفريقية في عهد زيادة الله الأوّل

ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب:

وهو من أعظم ملوك الدولة الأغلبية على الإطلاق وأعلاهم صيتاً وأبعدهم نظراً في الأمور، وكان حاله في إفريقية أشبه ما يكون بحال عبد الملك بن مروان في المشرق في كثرة الخارجين عليه ونزوعهم إلى العبث بأمن الدولة ومصابرته لهم حتى فاز عليهم وظفر بهم جميعاً وفتح الفتوحات العظيمة في جنوب إيطاليا وكسّر أساطيل الروم وأقرّ المسلمين في ذلك الصقع، ولا شكّ أنه معجزة من مفاخر ملوك المسلمين.

بويع له بالملك يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة سنة 201 [817] وكان في خلقه يوم تولّى جبّاراً عنيداً سيّء الظنّ

(13) ابن عذاري، جـ1، ص 120 - 121.

بجنوده لما كان يعلم من ثيارهم على أبيه، فشدّد عليهم وقسا في معاملتهم. فكثر خوضهم في ذلك وجلبوا إليهم العامّة وهم أتباع لكلّ ناعق، فثاروا عليه في أماكن مختلفة فرماهم بالجنود من الزنج فنكلوا بهم. عند ذلك خافوه وهابوا بأسه وأظهروا له الطاعة وهم إنما كانوا يرقبون الفرص للنيل منه.

اطمأن زيادة الله للسكون الظاهر الذي يبديه الثوار فاشتغل بإصلاح ما اختلّ من أحوال البلاد وأراد توجيه النشاط الشعبي إلى الغزو والفتح في الخارج كما صنع ذلك قبله أبو المهاجر دينار وغيره. فأمر بإعداد الأسطول وحشد الجنود، ولما تم تجهيزها أذن بخروجها إلى سردانية وهي يومئذ تحت حكم الروم البيزنطيّين فأوقعوا فيها مواقع عظيمة ثم عاد الأسطول منصوراً بعد أن ألحق بالروم هزائم كثيرة، فأمر زيادة الله لأولئك العساكر بهبات جزيلة مكافأة لهم على بلائهم في العدوّ[14].

ولم يقصر زيادة الله في عطفه لأهل القيروان رغم نفاقهم وفسادهم، فكان يعيّن عليهم أفضل رجاله، ومن ذلك انتدابه للإمام أسد بن الفرات لولاية القضاء على القيروان سنة 204 [820][15] فابتهج الكبير والصغير بهذه الولاية، لما للإمام من المنزلة العالية في الدين والعلم، وكان في تلك الأثناء الهدوء شاملاً لإفريقية، وكان أهلها في أيسر حال وأنعم بال إلى أن كانت سنة 207 [823]، فخرج على زيادة الله زياد بن سهل المعروف

(14) ابن الأثير، جـ 6، ص 232 وابن عذاري، جـ 1، ص 124.

(15) يؤكد ابن عذاري أنه تولّى القضاء سنة 203 هـ (جـ 1، ص 124).

بابن الصقلبية وجمع جموعاً كثيرة وتوجّه بها إلى حصار باجة، فندب زيادة الله العساكر لقتاله، فأزالوه عنها وقتلوا كلّ من شايعه واشترك معه في تعكير صفو البلاد[16]، غير أنه لم تكد تنطفىء هذه الجمرة حتى نقل إلى زيادة الله سنة 208 [824] أن منصور بن نصير الطنبذي[17] يتأهّب لإيقاد الثورة في تونس وأنه كتب إلى الجنود يستثيرهم، فلما تحقق ذلك لديه ندب إليه قائداً اسمه محمد بن حمزة في 300 فارس وأمره أن يخفي وجهته ويجدّ السير وأن يدخل على حين غفلة على منصور ويأخذه قبضاً باليد ويحمله إليه دون أن يربك البلاد في حرب طاحنة يهلك فيها الناس لغايات رديئة[18]. فسار محمد إلى تونس فلم يجد منصوراً وكان متغيّباً في طنبذة، فأرسل إليه محمد قاضي تونس ومعه أربعون شيخاً يحذرونه من عواقب الخلاف ويأمرونه بالطاعة. ولما اجتمعوا به وذكروا له ذلك أنكر المخالفة لأميره ووعدهم بالسير معهم إلى محمد والخروج معه إلى لقاء زيادة الله، ثم أخذ يخدعهم ويطمعهم في نفسه وقال لهم: أقيموا معي يومنا هذا حتى نهيّىء للأمير ضيافة تليق بمقامه. فصدقّوه وأجابوا دعوته وأقاموا عنده يومهم. وأرسل من فوره إلى محمد ومن معه عدد الضيافة من البقر والغنم والطعام والفاكهة والمشروب والمشموم وغير ذلك ممّا يستأنس به، وكتب إليه يقول: إني صائر إليك مع القاضي والجماعة فركن محمد إلى دهائه وخداعه وأمر بالغنم

(16) ابن الأثير، جـ 6، ص 232 وابن عذاري جـ 1، ص 124.

(17) الطنبذي نسبة إلى طُنْبُذَة قصر حصين كان بمكان المحمّدية على مقربة من مدينة تونس (ح.ح. عبد الوهاب).

فذبحت، وبالقدور فنصبت وبالمائدة فوضعت وأكل هو ومن معه من تلك الضيافة البالغة وطربوا وشربوا من الخمور المهداة إليهم. أما منصور فإنه لما جنّه الليل سجن القاضي ومن أتى بصحبته في القصر وسار فيمن معه يجدّ السير حتى دخل دار الصناعة التي نزل بها محمد، فأمر بدقّ الطبول وكبّر هو وأصحابه فوثب محمد ومن معه على أسلحتهم وقد أثملهم السكر وأحاط بهم منصور وأصحابه وأقبلت العامة من كلّ مكان، فرأوا جند زيادة الله يترنّحون وقد أوهنهم السكر فرجموهم بالحجارة وسبّوهم وشتموهم وأسحر فيهم أصحاب منصور القتل عامّة الليل ولم يسلم منهم إلا من لجأ إلى البحر فسبح حتى خلص بنفسه[18]. وكانت هذه الواقعة في صفر السنة [جوان 824] وهي أشدّ ما لاكته الألسن في التنفير من حكم زيادة الله والتشهير بقوّاده وعساكره بكلّ شائنة ونقيصة. أمّا ما كان من أتباع منصور وأشياعه، فإنهم لما أصبحوا قالوا له: نحن لا نثق بك ولا نأمن غائلتك وقد يستميلك زيادة الله بدنياه فتميل إليه على ما رأينا من خلائقك. فإن أحببت أن نكون معك فاقتل رجلاً من قرابته ممّن عندك حتى لا يكون فيما بينكما موضع للصلح. فقال هذا أهون ما طلبتم وأمر في الحين بإحضار إسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقال التميمي وهو من قرابة زيادة الله وكان عامله على تونس،

(18) لقد اعتمد المؤلف على الأخبار التي أوردها ابن عذاري (البيان جـ1، ص 127) وابن الأثير (الكامل ج، ص 232 - 233). انظر أيضاً حسن حسني عبد الوهاب، ثورة الطنبذي، منعرج في تاريخ الأغالبة، الورقات جـ3 ص 281 - 297.

ولما حضر أمر الطنبذي بقتله فقتل صبراً رحمه الله، إرضاءً لأهواء أوشاب الجنود والأتباع[19].

ولما بلغ زيادة الله خبر مقتل عامله وقريبه سيّر جيشاً عظيماً لمعاقبة منصور، استعمل عليه الوزير غلبون الأغلب بن عبدالله ابن الأغلب، وحين وقف لتوديعهم تهدّدهم جميعاً وقال إن جزاء من انهزم منكم عند لقاء عدوّه القتل. فلما وصلوا إلى تونس في اليوم العاشر من ربيع الأول السنة خرج منصور لقتالهم فانهزم جند زيادة الله فقال قوّادهم لغلبون لا نأمن زيادة الله على أنفسنا إن نحن أتيناه على هذه الحال قبل أن تأخذ لنا منه أماناً. ثم فارقوه على ذعر وتفرقوا في عدّة جهات يعيثون في المدن، فاستولوا على باجة وصطفورة والأربس والجزيرة وغيرها، فاضطربت منهم إفريقية وتمخّضت حركتهم الطائشة عن تعزيز مركز منصور الطنبذي. فطمنهم ثم جهّز منهم جنداً وسار بهم إلى القيروان وهو يطمع في خلع زيادة الله[20]. ولما انتصر زيادة الله، أمر جنوده بتأديب القيروانيّين على ما ارتكبوه من البغي والفساد وعلى وقوفهم إلى جانب كلّ خارج على الحكومة القائمة. فتعرّض له في ذلك من كان بمعيّته من العلماء وأهل السمط وقالوا عنهم: إنهم ضعفاء النفوس يمشون في كلّ هيعة ويتبعون كلّ ناعق، فقبل شفاعتهم فيهم وأمر بالكفّ عنهم واقتصر في معاقبتهم على هدم أسوار المدينة. ولكن تساهل زيادة الله في

(19) ابن الأثير، جـ 6، ص 233 وابن عذاري جـ 1، ص 127، ولمزيد التفاصيل، انظر، محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، دار الغرب الإسلامي، ص 198، 199، 200.

(20) نفس المراجع.

ترك معاقبتهم معناه التشجيع للجريمة لأنهم لا يرغبون في إيجاد حكومة جيّدة توّطد الأمن وتقرّ النظام، وإنما يريدون الفوضى وإطلاق أيديهم في النهب والسلب[21].

وكيفما كانت الحال في تهاون زيادة الله في معاقبة القيروانيين، فقد سلك سياسة حازمة جمع فيها بين التأديب والرأفة وهي التنكيل بالثوّار والتساهل مع المستسلمين توهيناً لشوكة الخارجين عليه. وقد أفادت هذه السياسة نوعاً ما. فإن كثيرين من أتباع منصور الطنبذي قد فارقوه، منهم عامر بن نافع[22] وعبد السلام بن المفرّج وعادوا إلى المدن التي تقلّبوا عليها. سار عامر إلى سبيبة، فسيّر إليه زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن عبدالله سنة 209 [824][23] فالتقوا في العشرين من المحرم فكانت الدائرة على محمد، فعاد بفلوله إلى القيروان. فعظم الأمر على زيادة الله، فجمع الرجال وبذل لهم الأموال. وكان عيال الجنود الذين انضموا إلى منصور الطنبذي ما زالوا يقيمون بالقيروان دون أن يعرض لهم زيادة الله بسوء، فخافوا أن يفكر بالبطش بهم فقالوا لمنصور: الرأي أن تحتال في نقل عيالنا من القيروان قبل هلاكهم لكي نأمن عليهم. فسار بهم منصور إلى القيروان وحصر زيادة الله ستة عشر يوماً ولم يكن بين الفريقين قتال. وفي تلك الفترة أخرج الجنود نساءهم وذراريهم وانصرف بهم منصور إلى تونس[24].

---

(21) ابن الأثير، ج، ص 234، بتصرّف.

(22) نفس المرجع.

(23) نفس المرجع، أما ابن عذاري فيذكر سنة 210 (جـ1، ص 129).

(24) نفس المرجع.

وبسبب هذه الثورات المتوالية خرجت أغلب بلاد إفريقية عن الطاعة لزيادة الله ولم يبق له منها إلا بلاد الساحل وقابس ونفزاوة وطرابلس. وأرسل قوّاد الجيوش الثائرة إلى زيادة الله يقولون له: ارحل عن إفريقية وخل عنا ولك الأمان على نفسك ومالك وما ضمّه قصرك. فغمّه ذلك وضاق به الأمر. فقال له سفيان بن سوادة وكان أثيراً لديه: لا يهيب بك الأمر مكنّي من عسكرك لأختار منهم مائتي فارس أسير بهم إلى نفزاوة، فقد بلغني أن عامر بن نافع خرج إليهم يستهويهم، فإن ظفرت به كان الذي تحبّ وإن تكن الأخرى، عملت برأيك. فأذن له بذلك فاختار له مائتي فارس من الصناديد وسار بهم إلى نفزاوة فدعا من بها من البربر إلى نصرته، فأجابوه وأسرعوا إليه. ولما بلغ ذلك عامر بن نافع أقبل إليه بعساكره فتلقّاه سفيان بمن معه واقتتلوا قتالاً عنيفاً، فكثر القتل في جند عامر ثم انهزم بمن بقي منهم وتحوّل إلى قسطيلة فجبى أموالها في ثلاثة أيام وواصل أيامها بلياليها. ولما انتبه له أهلها خاف على نفسه وفرّ منهم. ثم أرسلوا إلى ابن سوادة يسألونه المجيء إليهم. فأجابهم إلى ما سألوه وضبط البلاد وكان ذلك سنتي 209-210 [825](25).

وفي سنة 211[826] انشقّ عامر بن نافع عن حليفة منصور ابن نصر(26) الطنبذي. وسبب ذلك أن منصور كان كثير الحسد لأقرانه وحلفائه(27). وسار عامر بجنوده من تونس إلى منصور وهو

---

(25) ابن الأثير، جـ 1 ص 131.

(26) وفي رواية أخرى منصور بن نصير، وقد استعمل المؤلف الروايتين على التوالي.

(27) ابن خلدون، العبر، جـ 4 ص 424.

بقصره بطنبذة فحصره به مدة حتى فني ما كان عنده من الماء فراسله منصور وطلب منه الأمان على أن يركب بجنوده سفينة ويتوجّه إلى المشرق. فأجابه عامر إلى ذلك. فخرج منصور أوّل الليل مختفياً يريد الأربس فتحصّن بها وحصره عامر ونصب عليه منجنيقاً، فلما اشتدّ الحصار على أهل الأربس قالوا لمنصور: إما أن تخرج عنّا وإلا سلّمناك إلى عامر، فقد أضرّ بنا الحصار. فاستمهلهم حتى يصلح أمره. فأمهلوه وأرسل إلى عبد السلام بن المفرّج يسأله الاجتماع به. فأتاه، فكلّمه منصور من فوق السور واعتذر وطلب منه أن يأخذ له أماناً من عامر حتى يسير إلى المشرق. فأجابه عبد السلام إلى ذلك واستعطف له عامراً فأمنه على أن يسير إلى تونس ويأخذ أهله وحاشيته ويرتحل بهم إلى المشرق. فخرج إليه عامر فسيّره مع خيل إلى تونس وأمرسرّاً من كلّفه به أن ينقله إلى جزيرة جربة ويسجنه بها. ففعل ذلك وسيّر معه أخاه حمدون، فلما علم عبد السلام بذلك عظم عليه الأمر. وكتب عامر إلى أخيه وكان عامله على جربة يأمره بقتل منصور وأخيه حمدون ولا يراجعه فيهما. فحضر عندهما السجن وأقرأهما الكتاب. فطلب منه منصورٌ دواة وقرطاساً ليكتب وصيّته، فأذن له بذلك. فلم يقدر أن يكتب حرفاً، ثم قتلهما وبعث برأسيهما إلى أخيه. واستقامت بعدهما الأمور لعامر، ورجع عبد السلام بن المفرج إلى مدينة باجة. وبقي عامر بن نافع بمدينة تونس إلى أن هلك سنة 214 [829][28]. فلما وصل خبره إلى زيادة الله قال:

---

(28) ابن الأثير، جـ 6 ص 231. أمّا ابن عذاري فقد ذكر أنّ وفاة عامر بن نافع كانت في سنة 213 هـ. انظر أيضاً، محمد الطالبي، المرجع المذكور، ص 229.

الآن استراحت إفريقية. وأرسل بنوه إلى زيادة الله يستأمنونه فأمّنهم[29] وأحسن إليهم جرياً على خطّته السياسية التي ذكرناها في أخذ الأمور بالتسامح واللّين استئلافاً للقلوب وترويضاً للقوم.

خطّة زيادة الله السياسيّة:

لا ريب أن زيادة الله كان من أبعد الملوك نظراً في تدبير سياسة الملك. فقد أمسك عن متابعة الثوار وتركهم يتجنّون على البلاد التي أطاعتهم باختيار أهلها ليذوقوا وبال أمرهم، وهو أبلغ عقاب سلبي ينزله ملك قدير بشعب كفور بالنعمة. وصرف اهتمامه إلى إسناد المناصب إلى العلماء الأذكياء وإنشاء المصانع لصنع السفن في سوسة لاستئناف الفتوح في جنوب إيطاليا، ومن أجدر بذلك من زيادة الله الأكبر وهو يسعى في تكوين دولة للإسلام عظيمة في إفريقيّة، بينما كان غيره يسعى للفساد والإفساد ليعتاش بهما ويتحكّم في الرقاب.

الأسباب التي أغرت زيادة الله على فتح البلاد الإيطالية:

لم يكن زيادة الله ليغفل مراقبة الأحوال الجارية في البلاد الإيطالية. فقد علم في سنة 212[827] أن امبراطور الروم بالقسطنطينيّة استعمل على جزيرة صقليّة بطريقاً اسمه قسطنطين سنة 211[826]، فلمّا وصل إليها عيّن على قيادة الأسطول رجلاً روميّاً اسمه فيمي، كان حازماً شجاعاً، فغزا إفريقيّة وأخذ من سواحلها سبياً ونهب أموالاً ثم رجع ظافراً. وبدا لأمبراطور الروم لضغينة في نفسه أن يكتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي

(29) النويري، النهاية، جـ2، ص 72.

وتعذيبه. فوصل الخبر إلى فيمي فأعلم أصحابه بالأمر فغضبوا له وأعانوه على المخالفة. فسار في مراكبه إلى صقليّة واستولى على مدينة سركوزة. فخرج إليه قسطنطين واقتتلوا قتالاً يسيراً. فانهزم قسطنطين إلى مدينة كتانية، فسيّر إليه فيمي جيشاً. فهرب منه ثم أخذ وقتل، وخوطب فيمي بالملك. واستعمل على ناحية من الجزيرة عاملاً اسمه بلاتة فخالفه وعصاه واتفق مع ابن عمّ له اسمه ميخايل وكان والياً على بلرم، فجمع عسكراً كثيراً وخرج به لمقاتلة فيمي. فانهزم أمامهما واستولى بلاتة على مدينة سركوزة. وركب فيمي ومن معه إلى إفريقيّة. وأرسل إلى زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقليّة[30].

انتداب الإمام أسد بن الفرات لغزو جزيرة صقليّة[31]:

لم يكد يصل استنجاد فيمي إلى زيادة الله حتى هبّ لإجابة غياثه وأمر دار الصناعة التي أنشأها بسوسة بإخراج أسطول إلى البحر وجهّزه بعدّة عظيمة وملأه بالجنود وندب لقيادتها قاضي القضاة الإمام أسد بن الفرات، فجمع له بذلك بين الإمارتين، إمارة الجيش وإمارة الأحكام وأخرج معه في ربيع الأول سنة 212[827] أشراف إفريقيّة من العرب والبربر والأندلسيّين وأكابر أهل العلم والبصائر وأركبهم من سوسة في حفل بهيج الأسطول[32]. فطرق حصون الجزيرة وحاصرها برّاً وبحراً ولقيته جموع من الروم فنكل بهم وأغرق مراكبهم ثم حطّ على مدينة

(30) ابن الأثير، جـ 6، ص 235-236.

(31) نفس المرجع.

(32) لم يذكر ابن الأثير (نفس المرجع) ولا ابن عذاري (جـ 1، ص 132) انطلاق الأسطول من سوسة.

مازرة[33] وكانت من أهمّ مدن الجزيرة، فسار منها إلى بلاتة وكان معه جند من الروم، فواقعهم الإمام بجنود من المسلمين وأمر فيمي ومن معه أن يعتزلوهم. واشتدّ القتال بين المسلمين والروم، فانهزم الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم وهرب بلاتة إلى قلورية[34] فقتل بها واستولى المسلمون على عدّة حصون من الجزيرة وواصلوا تقدمهم إلى قلعة الكراث، فاجتمع بها خلق كثير وتقدّموا بالطاعة إلى الإمام أسد بن الفرات وذلّوا بين يديه. فلما رآهم فيمي رقّ لهم وكلّمهم أن يثبتوا ويحفظوا بلدهم. فبذلوا لأسد الجزية وسألوه أن لا يدنو منهم فأجابهم إلى ذلك وتأخّر عنهم أيّاماً فاستعدّوا للحصار وجلبوا ما يحتاجون إليه ثم نكبوا عن طاعة الإمام. فناصبهم الحرب وحاصرالمدينة وبثّ سراياه في كلّ ناحية فغنموا شيئاً كثيراً وافتتحوا قرى عظيمة. وتلاحقت به الإمدادات من إفريقيّة فملك مازرة ثم سار إلى بلرم في عساكركثيرة وأحاطها بالمسلمين. وأمر بحفر حفائر كثيرة خارج الخنادق مكايدة للعدوّ. ولما حمل الروم عليهم سقطوا في تلك الحفر ولقوا فيها حتفهم وضيّق المسلمون على سركوزة وفي أثناء الحصار وصل أسطول من القسطنطينية لإنجاد المحاصرين وفيه جنود كثيرة، فدارت حولها موقعة عظيمة أصيب فيها الإمام رضي الله عنه بجراحات خطيرة فاز منها بالشهادة وذلك في ربيع الآخر سنة 213 [828][35]. وبعد هذه الوقائع نزل بالمسلمين وباء شديد

(33) ابن الأثير، جـ 6، ص 235.

(34) نفس المرجع، ص 236.

(35) نفس المزجع، ص 237.

هلك فيه خلق كثير منهم. فلما رأى المسلمون قلّتهم بإزاء تظافر الوباء والنجدات للروم وفرار رهائن الروم الذين كانوا تحت أيديهم، حدثت فيهم مغبّة شديدة كادت تؤول إلى هلاكهم. فإنهم تحمّلوا في مراكبهم لكي يبتعدوا عن الجزيرة. فوقف لهم الروم بمراكبهم على باب المرسى ومنعوهم من الخروج. وحين رأى المسملون منهم ذلك تراجعوا ونزلوا إلى البرّ وأحرقوا مراكبهم حتى لا تكون غنيمة لعدوّهم ولا يعاودهم الأمل في الفرار، وعيّنوا لقيادتهم خلفاً عن الإمام أسد بن الفرات، محمد ابن أبي الجواري ثم تقدّموا إلى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلّموا الحصن. وسار فريق منهم إلى حصن بفرغلوش[36]، ثم تلته مراكب كثيرة من إفريقية مدداً لهم فبلغت جميعها 300 مركباً. ولمّا رآهم الروم يملأون البحار انهزموا وتركوا الحصارعن المسلمين وفرّج الله عنهم. ثمّ ساروا في قوّة عظيمة إلى مدينة بلرم فحصروها. وضيّقوا على حماتها من الروم. فطلب حاكمها الأمان لنفسه ولأهله وماله فأجيب إلى ذلك وسار إلى مأمنه في عرض البحر ودخل المسلمون المدينة في رجب 216[831] ولم يكن بها إلا نحو 3000 وكان بها لما بدأوا الحصار 70.000 نسمة.

وبعد هذا الانتصار المهول جرّى بين المسلمين الإفريقيّين والأندلسيّين نزاع على إمارة الجيوش كاد أن ينقلب إلى شرّ، ثم اتّفقوا على أصبغ لبلائه وسابقيته وسيّروا البشائر إلى زيادة الله بفتح صقلية فوردت عليه هذه البشرى حين وردت عليه بشرى أخرى

(36) ابن عذاري، جـ 1 ص 134.

بمهلك الثائر عامر بن نافع، فكان السرور بالبشريين عاماً عظيماً[37].

وفي سنة 219[834] سار المسلمون إلى مدينة قصر يافة فخرج إليهم من كان بها من الروم فاقتتلوا أشدّ قتال حتى فتحوها وفرّ الروم إلى معسكرهم. ثم استأنفوا الكرّة عليها في الربيع فهزموهم وأسروا امرأة بطريقهم ومعها ابن لها منه ثم عادوا إلى بلرم. ومنها سيّر محمد بن عبد الله عسكراً إلى ناحية طبرمين، عليهم محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم فعيّن زيادة الله بدله الفضل بن يعقوب وكان من قوّاد الجنود الإفريقيّين. فخرج في سرية إلى ناحية سركوزة. فأصابوا غنائم كثيرة ورجعوا ظافرين. ثم عاد إليهم في جيش عظيم فتصدّى لقتاله بطريق الروم وكان على الجزيرة، فتحصّنوا منه في أرض وعرة شعراء[38]. ولما رأى أنهم لا يقاتلونه رجع عنهم فتفرّق جنده وتركوا تعبئتهم. فلما رأى منهم ذلك المسلمون حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطُعِنَ البطريق طعنات قاتلة حتى سقط عن فرسه فأدركه أصحابه وهو مثخن بالجراحات فأنقذوه وغنم المسلمون ما كان معهم من سلاح ودوابّ وكانت شيئاً كثيراً.

واتّفق أن فرّ قبل ذلك في سنة 217 [832] أبو فهر محمد بن عبد الله التميمي من إفريقية إلى صقلية[39] إثر وفاة فرغلوش يطلب ولايتها فتغلّب عليها ولما علم بذلك زيادة الله عيّن على

(37) ابن الأثير، جـ 6 ص 239.

(38) نفس المرجع.

(39) ابن عذاري، جـ 1، ص 135.

صقلية أبا الأغلب إبراهيم بن عبد الله فوصلها في منتصف رمضان[40]. فنحّى أبا فهر وأمر الأسطول بالخروج لمناجزة قوات الروم التي على البحر، فالتقوا بقسم من أسطولهم كان مرابطاً على شواطىء بلرم فأخذوه غنيمة. ثم انتقل الأسطول إلى قوصرة فظفر بحراقة هناك فيها عساكر رومية بينهم رجل من أهل إفريقية تنصّر وكان يدلّهم على عورات المسلمين، فأوتي به إليه وأمر بقطع عنقه جزاء خيانته لبلاده وقومه. وأمر بعد ذلك بإخراج جند كثيف لإشغال مدينة نابولي فأحدث ذلك ارتباكاً شديداً في الروم ثم كفّ عنها. وفي سنة 221[836] أعاد الغارة عليها وأمر بالتوغّل في جنوب إيطاليا فاحتلّ جبال فيزوب وكانت له فيها وقائع وانتصارات باهرة ومغانم كثيرة حتى بيع رقيقها بأبخس الأثمان. ثم أمر بتجهيز الأسطول وأمره بتعقّب جزائر البحر فتعقبها جزيرة جزيرة ودكّ معاقلها واستنزل حصونها على الطاعة والجزاء. ثم توالت بعد ذلك وقائع برية وبحرية في دواخل الجزيرة وعلى شواطئها والمسلمون في تقدّم يحتلّون المدن ويستولون على المراكب إلى أن ملكوا قطانية وبلد قصريانة. واتسعت ممتلكات المسلمين في أرض الجزيرة. عند ذلك وصل إليهم أمر من زيادة الله باتخاذ مدينة بلرم عاصمة لولايته الجديدة في جنوب إيطاليا. ولم تمض غير مدّة يسيرة حتى كانت من أبهج العواصم الإسلامية الحافلة بزهر الفنون وأفانين التقدّم.

نتائج سياسة زيادة الله في المملكة:

يتّضح مما استعرضناه من الوقائع والحوادث أنّ تدابير

(40) ابن الأثير، جـ 6 ص 239.

المركزية في الحكم الذي وضعه المروانيّون وكانوا يشنّون به الغارة عليهم، تنفيراً للأعاجم من حكمهم. وقد كانوا يعدونهم ويمنّونهم إن هم أجابوهم إلى دعوتهم أن يُمتّعوهم بنوع من الاستقلال الذي حُرموه. وطبيعي أن يكون انتقال الحكم إلى العبّاسيّين فاتحة انقلاب سياسي تتطوّر به حياة الشعوب غير العربية الداخلة في الإسلام وتعويضها بنوع من نظام الإقطاع القائم على اصطناع الأُسَر. وهذا ما حصل بالفعل. فقد كانت فاتحة هذه التجربة بولاية إفريقية على عهد الرشيد، لكنها كانت ناقصة، لذلك كان مصيرها إلى تفكك وحدة الدولة، بعد أن كانت منظّمة أمميّة قائمة على أساس التكافل بين الأجناس، وذلك لفقدان التجانس في نظام اللامركزية الجديد. وهكذا تجرّد الخلفاء العباسيّون بالتدريج عن سلطتهم التنفيذية في الأقطار للولاة دون أن يبقى لهم منها غير النعوت والألقاب. فإن هذا النوع من الحكم أيقظ النعرات الجنسية في مختلف الأقوام التي صهرها نظام الخلافة، وصار همّ كلّ قوم الاعتزاز بذاتيّتهم مكان الوحدة. ثم تدرّج بهم هذا التفكك إلى أن صار أوضاعاً قوميّة نابية عن وحدة الإسلام. وتحت ضغط هذه التجربة القاسية المنافية لروحية الإسلام، تناثرت الممالك الإسلامية الواحدة تلو الأخرى من عقدها النضيد الذي أحكم المروانيّون انتظامه. وفي النهاية آل الأمر إلى تداعي ملك العرب وقيام العناصر المغلوبة عليهم، وتخلّي العرب عن السيادة القعساء التي شادتها سيوفهم، والرضى بالرضوخ لحكم الموالي. وهذا ما يدعو المؤرخ العربي إلى اتهام الانقلاب العباسي بأنه كان مؤامرة كيدية ضدّ العرب

ومفاد القول أن إفريقية لم تظفر بملك اجتمعت فيه خصال الخير البالغة مع سداد الرأي، مثل ما اجتمع ذلك لزيادة الله، ناهيك بما بلغت إليه على عهده من الرخاء والبسطة والتقدم بعد أن كانت معسفاً للثورات ونهباً للفوضى والقلاقل حتى بلغ من ضعفها ووهن شأنها أنها تسدّ عجز نفقاتها من خزانة مصر. وهذا وحده كاف للدلالة على ما بلغت إليه من سوء الانحطاط عكس ما بلغت إليه في عهد الحكم الرفيع الوارف الظلال، عهد الحكومة القوميّة الجيّدة! (كذا).

لذلك كانت وفاة هذا الملك الراحل باني صرح مجد إفريقيّة فاجعة عظيمة في إفريقية. فقد نعاه النعاة ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة 223[838] عن إحدى وخمسين سنة، بعد أن مكث في الملك 21 سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام قضاها في خدمة المجتمع الإفريقي في مختلف نواحي العظمة، وكان يقول في حياته حين يذكر عمله من غير منّة على أحد: لا أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: (1) بنياني المسجد الجامع بالقيروان (2) وقنطرة أبي الربيع (3) ودار الصناعة بمدينة سوسة وسور القيروان (4) وتولية أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية[42]. وهي أجمع ما قيل من الكلمات في التعبير عن السياسة الإنشائية التي تفصح عن رغبة السوّاس العاملين في تقدّم أممهم بأسلوب وديع كان يرمي به لتركيز الإسلام بإفريقيّة، ويرمز إلى اهتمامه بتسهيل طرق المواصلات، ونشر الصناعات، وتعزيز قوّة الدفاع، وبناء الأوابد،

(41) ابن عذاري، جـ 1، ص 137-138.

وإقامة قسطاس العدل بين الناس وإزالة ما حدث من سوء التفاهم بين العرب والبربر بواسطة الآلة الحكومية الفاسدة. وهي بذور التمدّن التي زرعها في إفريقية رحمه الله ورضي عنه.

3 ـ من أبي عقال إلى أبي الغرانيق

جلوس أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب على عرش الأغالبة:

خلف زيادة الله الأكبر أخوه أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب في الجلوس على عرش الأغالبة. وهو لم يكن دون أخيه في الهمّة والنشاط وحسن التدبير وبعد النظر في العدل والصيانة للملك. فقد افتتح عهده بتوفير العطاء للعمّال والأجناد والجباة ومن إليهم لقبض أيديهم عن الرشاء وإضاعة حقوق الشعب تأميناً للبلاد. ثم التفت بعد ذلك لإصلاح المجتمع ووقايته من الشرور والآفات، فمنع الخمر وهي أمّ الخبائث ومنشأ العاهات والأمراض، وعاقب على بيعها وشربها[42] وقطع دابر الدعارة والفجور وحرّض الناس على الزواج وأزال مناكر كثيرة كانت فاشية في الناس. وقد أفضت إصلاحاته بالأمة إلى الانصراف للأعمال النافعة، كالبناء والتعمير وتعاطي الصناعات ومنها الإقبال على العلم وفتح المدارس، فاستقامت الأحوال. والناس كما قيل على دين ملوكهم.

وبعد أن توثّق من ازدهار البلاد وإقبال الناس على شؤونهم

---

(42) ابن الأثير، جـ6، ص 350.

وإخلادهم إلى الطاعة، تفرّغ إلى المضيّ على سياسة الفتح إسوة بأخيه، فسيّر جيوشه سنة 224[838] لإكمال الفتح في جزيرة صقلية وغزو إيطاليا، فضبط بهما بلاداً كثيرة واستأمنت إلى جنوده حصون عديدة منها حصن البلوط، وبلاطنو، وفرلون. ونازل الأسطول قلورية حتى فتحها وحدثت له على ساحلها معركة مهولة مع أسطول الروم القادم من القسطنطينية لإنجاد الحامية التي لهم بها فارتدّ على أعقابه مهشّماً مكسوراً وسارت الجنود البريّة المظفّرة إلى قلعة الغيران وهي حصن منيع له أربعون سرداباً، فاستولت عليه بعد أن لقيت به شدّة عظيمة سنة 226 [840][42].

ولم يعكّر على هذا الأمير الموفّق صفو أيامه الجميلة غير تأشب خوارج لواتة وزواغة ومكناسة على عامل قفصة عيسى بن ربعان الأزدي. فنكل عيسى بهم حتى قطع دابرهم من تلك الأطراف. وعقب ذلك اجتمع خوارج سجلماسة على مدرار بن اليسع واتفقوا على تقديم ميمون بن مدرار على إمارة بلادهم وإخراج أخيه المعروف بأبي تقية وكان يتولّى أمورهم بتقليد من الدولة الأغلبية.

فلما استقرّ الأمر لميمون أخرج أباه وأمه من المدينة ونفاهما إلى بعض القرى، ثم هدأت الثائرة وكتب ميمون بما تمّ له من الأمر إلى مولاه التماساً للموافقة. فلم يتعرّض له الأغلب بل أقرّه على الولاية. ولم تطل به الأيام حتى وافته منيّته في ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة 226 [840] وهو في سن53 سنة، وقد

(42) ابن الأثير، ج 6، ص 350.

مكث في الحكم سنتين وسبعة أشهر وسبعة أيام رحمه الله[43].

جلوس أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب على عرش الأغالبة:

وبعد وفاة أبي عقال الأغلب، جلس على العرش ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب. وكان جليل القدر نابه الذكر محظوظاً في أموره مظفّراًفي حروبه. يعتمد في تدبير مملكته على رأي وزيره الأوّل أبي عبدالله بن علي آل حميد. وهو الذي أعانه مع حداثة سنّه على ضبط شؤون المملكة وكفّ أيدي البغاة عنها. ولم تزل الأمور جارية على هذه الوتيرة إلى أن ثار عليه أخوه الأمير أحمد واقتحم على الوزير قصره سنة 231 [845] فقتله ظلماً. وتقدّم بحشمه ومواليه إلى قصر الملك فدخل على أخيه وهو في مجلسه الذي يقعده للعامة بالسلاح، فتعاتبا ثم تصالحا وتحالفا على أن لا يغدر أحدهما بصاحبه. واتفقا على الأمر وذلك بأن يتقلد أحمد الوزارة لأخيه. غير أنه لم يلبث أن استبدّ عليه ولم يترك له من خصائص الملك إلا الشعار والاسم. واشتدّ بأسه على الأمة وصادر الأموال ونكل بمنتقديه وأفحش في الظلم والارتكاب. وذاق الناس منه بلاء عظيماً، حتى أغضب آل الأغلب وتآمروا عليه سنة 232 [846] بالاتفاق مع أخيه.

فدخلوا عليه القصر على حين غفلة منه بحشمهم فقبضوا عليه وأرسلوه منفياً إلى العراق، إيثاراً لسلامة العرش على وجوده

(43) ابن عذاري، جـ 1، ص 139.

ومنعاً لإراقة الدماء. ومكث به إلى أن مات واستراحت إفريقية من خطله وشره[44].

وخلصت المملكة لحامل تاجها محمد الأوّل. فاستعان على تدبير مصالحها بالبصراء من أولي الرأي والحزم. فصلحت الأمور واستقامت الأحوال. وكان على رأس هؤلاء النصحاء الإمام الجليل عبد السلام سحنون[45]، فقد جعله على ولاية الأحكام وقاضي القضاة رغم كراهيته لهذه الولاية ولم يقبلها إلا على

---

(44) نفس المصدر، ج 1 ص 141-142.

(45) سَحنون بفتح السين وأنكر أبو علي الجلولي ضمّها وقال: هو على وزن حمدون وعبدون. وهو اسم لطائر حديد النظر لقب به الإمام لحدّة ذهنه في المسائل واسمه: عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن عبد السلام بن عبد القدوسي التنوخي، وأصله من حمص.

كان ثقة حافظاً للعلم واسع الاطلاع اجتمعت فيه خصال ما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والزهد في الدنيا، والسماحة. وهو أوّل من شرد أهل الأهواء من مسجد القيروان، لما ولّي قضاء إفريقية سنة 233، ولم يتناول أجراً على هذه الولاية وإنما تولاها احتساباً لله إلى أن مات رضي الله عنه.

كان مولده بالقيروان سنة 160[777] وخرج إلى المشرق في طلب العلم سنة 188[804]. أخذ العلم عن طائفة من فحول الملّة الإسلامية مثل الإمام ابن القاسم، وأشهب، وسفيان بن عيينة، وابن وهب، وأنس بن عياض ووكيع، وعبد الرحمان بن مهدي، ويزيد بن مروان والوليد بن مسلم وغيرهم.

وعاد إلى إفريقية سنة 191[807] وكان إليه مردّ أكابر فقهائها وغيرهم يؤمونه من أقطار الدنيا للأخذ منه. وقال عنه ابن عجلان «وهو أحد أعيان عصره بالأندلس» ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه (تلاميذه). إنهم بكل بلدة لأيمة. وكتب عنه الإمام ابن القاسم صاحب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما إلى أسد بن الفرات ينصح له أن يصلح مدوّنته من كتاب سحنون. وتوفّي رحمه الله وهو على قضاء إفريقيّة يوم الثلاثاء لسبع خلون من رجب سنة 240 [854]. (المؤلف).

شروط ثقيلة منها إطلاق يده في الحكم على أهل بيت الملك ووزرائه وبطانته، وتنفيذ الحق فيمن أحبّ أو كره منهم. فقبل محمد شروطه بعد أن أحلفه عليها بالأيمان المغلظة. فولّي القضاء سنة 233[848] واستمر إلى أن توفي سنة 240[854].

ومما يؤثر عن عدل هذا الإمام واستقامته وتصلبه في الحقّ: أن ورثة القلفاط تقدموا إلى مطالبة القاضي السابق عبد الله بن أبي الجواد بـ 500 دينار تسلّمها من مؤرثهم على وجه الوديعة وأنكرها فاستظهروا عليه بخطّ يده فأنكره أيضاً، فألقاه الإمام في السجن وأرادت زوجته فداءه بمالها، فلم يقبل منها، إلى أن يعترف بما ادّعي به عليه. فما زال في السجن إلى أن مرض ومات ولم يخرج منه إلا جثّة هامدة محمولة على الأعناق. فتشفّع بذلك أهل القيروان على الإمام فلم يكترث بأقوالهم، لأنه لم يحمله على ذلك إلا الانتصار للحق والعمل به[46].

ولما وافى الملك محمد بن الأغلب من جزيرة صقلية خبر وفاة عاملها أبي الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب، أولى مكانه محمد العباس بن الفضل، فجاهد كثيراً وغزا طويلاً. وفي سنة 239[853] خرج غازياً قصريانة وقطانية وحاصر مدينة بشيرة وأقام على حصارها ستة أشهر إلى أن سلم له أهلها وقبلوا طاعته فخلف بها قوّة ثم ذهب إلى محاصرة روما فضيّق عليها مدّة، ثم عاد إلى حاضرة بلرم، وفي أثناء رجوعه مرّ على مدينة سهرينة وأنزلها على طاعته. وكانت فتوحاته المظفّرة تتكرّر في كل صائفة

(46) ابن عذاري، ج 1 ص 143.

في جنوب إيطاليا، وفي كلّ مرّة يعود منها بنصر مبين وعزّ مكين حتى دوخ معظم مدنه[47].

وعندما تواردت الأخبار السارّة بتلك الفتوحات على الملك محمّد أمر ببناء مدينة قرب تاهرت سمّاها العبّاسية وجعلها عاصمة لحدوده الغربية، ذكرى لانتصارات جنوده في جنوب إيطاليا. فبنيت، ولم يرق وجودها في أعين الخوارج من الأباضية، فتقدم إليها أفلح بن عبد الوارث بن عبد الرحمان بن رستم فأحرقها وكتب بذلك إلى عبد الرحمان بن الحكم صاحب الأندلس يتقرّب إليه بهذا الفعل الذميم. فبعث إليه تلقاء تلك الفعلة النكراء 100 000 درهم[48].

وما زال الملك أبو العباس محمّد موفقاً في جميع أعماله وحركاته في الداخل والخارج حتى استأثرت به رحمة الله لليلتين خلتا من المحرم سنة 242[856]. فكانت ولايته 15 سنة وثمانية أشهر وإثني عشر يوماً بالغاً من السنّ 36 سنة.

جلوس أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب على عرش الأغالبة:

وبعد وفاة الملك محمد جلس على العرش ابنه[49] أبو إبراهيم أحمد، وكان على صغر سنّه نبيلاً محمود السيرة سامي الخصال كريم الفعال رفيقاً بالشعب كثير السخاء، فكان يخرج

(47) نفس المرجع، ج 1، ص 145-146.
(48) ابن الأثير، ج 6، ص 350.
(49) بل هو ابن أخيه، لأنّ الأمير محمد بن الأغلب لم يعقب ولداً. انظر، محمد الطالبي، المرجع المذكور، ص 272.

في ليالي شعبان ورمضان كلّ عام من القصر القديم حتى يدخل باب الربيع إلى المسجد الجامع بالقيروان ومعه دوابّ موفورة بالدراهم يعطي منها الفقراء والضعفاء حاجتهم وهو ما في الطريق، ويبعث إلى المتعفّفين كفايتهم إلى بيوتهم صيانة لوجوههم من لوثة السؤال.

وعقب جلوسه كتب إلى الأمير محمد العباس بن الفضل عامله على صقلية يحثه على الغزو ومناجزة البلاد الإيطالية. فلبّى الأمر وخرج غازياً حتى أثخن فيها وفتح منها معاقل كثيرة. وفي سنة 243[857] أمره بمعاودة الغزو لقصر الحديد وشلفودة. فأبلى فيهما بلاء حسناً.

ولما تكلّلت مغازي جنوده بالنصر ولم تنهزم له راية عزم على غزو الروم في عقر ديارهم. فأمر الأسطول بالتجهّز والخروج إلى جزيرة كريت[50]. فسار إليها وأحدق بها وجرت له فيها معارك

---

(50) ويسميها مؤرخونا جزيرة قريطش. قال عنها ياقوت: اقريطش اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من إفريقيا لوبيا. وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى كثيرة «وافرة الخصب». وقد غزاها المسلمون مراراً. وذكر عنها أحمد ابن يحيى بن جابر قال: بعد أن غزا جنادة بن أبي أمية الأسدي جزيرة أرواد في سنة 54 في أيام معاوية، غزا اقريطش. وفي أيام الوليد فتح بعضها ثم أغلق (بكثرة من أقبل عليها من الروم). وفي خلافة الرشيد غزاها حميد بن معيوف الهمذاني ففتح بعضها ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي (وهو من إفريقية). فافتتح منها حصناً واحداً ونزله (وهو كندية). وقال البلاذري: لم يزل يفتح فيها شيئاً بعد شيء حتى لم يُبقِ من الروم أحداً، وذلك في سنة 210 في أيام المأمون.

وروى غيره أنها فتحت نهائياً قبيل سنة 250 على يد عمر المعروف بابن الغليظ وكان من أهل قرية مطروح من الأندلس (وهو في خدمة الأغالبة).

مهولة تدمر فيها عشرون مركباً من أسطول إفريقية. ولكن خسائر الروم كانت أضعاف ذلك. وتعدّ هذه الموقعة من أشهر المواقع البحرية الفاصلة التي دارت بين المسلمين والروم في البحر المتوسط. وعقب فتحها أسندت ولايتها إلى عمر المعروف بابن أبي الغليظ، ثم توارث ولايتها عقبه سنين طويلة وكانوا تابعين للدولة الأغلبية[51].

ولم تكن همّة ملكنا الفتي قاصرة على الاهتمام بالتدويخ والغزو، بل كان يقرنها بعنايته في إيجاد المنافع العمومية وتشييد المباني والمعالم وهي عنوان ضخامة الدولة وحسن سير البلاد، فقد خصّص في ميزان المملكة لسنة 245[859] 300.000 دينار (أي 000 4500 فرنك ذهباً) لإقامة المعالم وبناء المرافق التي من جملتها خزّان الماء المعروف بفسقية الأغالبة بالقيروان. وهو صهريج متناهٍ في الكبر مستدير الشكل بديع التنسيق، يبلغ

= وتوارث ولايتها عقبه سنين كثيرة وكانت من أعظم ثغور المسلمين، نكاية على الروم إلى أن أناخ عليها نغفور في خلافة المطيع العباسي ثم تلاه أرمانوس بن قسطنطين وهاجمها في آخر جمادى الأولى سنة 349 في إثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة آلاف فارس. ولم يزل محاصراً لها حتى دخلها عنوة بعد أن فتك الجوع بالمسلمين، وذلك في نصف المحرم سنة 350. فقتل ونهب وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب الأندلسي وأمواله وبني عمّه وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية. ويـروى أنه حمل من سبي المسلمين وأموالهم نحو 300 مركب ودامت تحت الروم إلى أن فتحتها الدولة العثمانية أيام عظمتها وبقيت من ضمن ولاياتها إلى أن وقعت الحرب اليونانية أواخر القرن التاسع عشر ميلادي الغابر. فقد سعت انجلترا، بمساعدة فرنسا وروسيا وإيطاليا في سلخها عنها وضمّها لليونان وأقصي عنها الجند العثماني المنتصر بصورة أليمة ومزرية (المؤلف).

(51) ابن عذاري، جـ 1. ص 147-148.

قطره 1500 متراً، تنصب فيه مياه الأودية المجلوبة وفي وسطه صومعة مثمّنة في أعلاها قصبة مفتحة على أربعة أبواب تسع أحد عشر رجلاً فإذا امتلأ الصهريج كان ذخراً لأهل المدينة أيام الجفاف. ومن مآثره أيضاً تجديد بناء جامع عقبة بعد أن قوّضه من الأساس عدا المحراب، فإنه أبى أن يمسّه، لمكانة واضعه عقبة بن نافع الفهري. وهو لا يريد أن يكون فيه أثر لغيره. فقال له بعض المهندسين المعماريّين: لو أمرت بإدخاله بين حائطين فإنه لا يظهر فيه أثر لغير صاحبه. فاستصوب رأيه وأمر أن يفعل ذلك وهو على بنائه إلى هذا العهد. والمحراب كلّه وما يليه مبني بالمرمر الأبيض من أعلاه إلى أسفله ومخرّم بالنقوش، منها كتابة تقرأ، ومنها تدبيج مختلف الصناعة، مستدير به أعمدة رخام في غاية الحسن، والعمودان الأحمران المقابلان للمحراب الموشّيان بصفرة قدم بهما حسان بن النعمان من فلسطين من المكان المعروف بالقيسرية. ويقولون إن قيصر الروم بذل فيهما قبل نقلهما إلى إفريقية وزنهما ذهباً فآثر بهما رجال الدولة الأموية جامع عقبة، وعدد بلاطاته سبعة عشر بلاطة وطوله مائتان وعشرون ذراعاً. وبه من الأعمدة الرخامية 424 أسطوانة وعرضه في الأصل 250 ذراعاً، فزاد الملك أحمد في طول بلاطاته وبنى القبّة المعروفة بباب البهور على آخر بلاطات المحراب في دورها 32 أسطوانة من بديع الرخام. وجعل فيها نقوشاً آية في الفنّ مصبوغة بصباغات محكمة عجيبة. وحلّى المحراب وجعل عليه قرميداً جلبه من الصين. وأتى برخام المحراب مفصّلاً على صورته من العراق. وجعل تلك القراميد في وجه المحراب وأفرغ

عليه تلك الزينة الغريبة ونصب فيه المنبر وهو يعدّ تحفة من تحف الصناعة وآيات الفنّ العربي البديع.

ومن مآثره أيضاً بناء الصهريج العجيب بالقصر الكبير، والزيادة في بناء جامع الزيتونة (بتونس) وبناء سور سوسة[52] ودار إمارتها وقصر لمطة وسور صفاقس، إلى غير ذلك من المآثر الفاخرة الخالدة الباقية إلى يومناهذا الناطقة بعظمة شأن الدولة الأغلبية وعلوّ همة بانيها على كرّ الدهور والعصور.

ومن تدابيره السياسية السديدة تشريك أمراء البيت المالك في المناصب السياسية العالية وتمرينهم على أساليب الحكم بعد أن كانوا مقصورين على المناصب العسكرية والإدارية. فإنه قلّد عمه أحمد بن إبراهيم بن الأغلب الولاية العامة على صقلية بعد وفاة محمد العباس بن الفضل سنة247[862] وكانت أيام حكمه على البلاد أيام صفاء وهناء لم يعكرها شيء سوى ثورة رياح سنة 248[863] فرماها بجنوده الأشاوس ونكل بالعصاة أشدّ تنكيل جزاء بغيهم وفسادهم. ولم يأل رحمه الله جهداً في توفير راحة المملكة

(52) سوسة هي من جملة الأسواق التي اختطّها الفنيقيّون على شواطىء إفريقية وسمّوها حضرموت، ثم تضاءل أمرها في عصر الروم البيزنطيّين بسبب ما نكبوها به من حروب. وكانت في عصر بني الأغلب قرية صغيرة وفي سنة 226 أمر محمّد بن الأغلب ببناء جامعها ثم أتى بعده الأمير أحمد بن محمد فجدّد سورها وعمارتها وألحقها بالمدن وعني كثيراً بنهضتها الصناعية، فصارت في عهده من أهمّ المدن الصناعية في إفريقية واستمرت على ذلك إلى أيام الصنهاجيّين وقد اشتهرت بالغزل وحياكة الأقمشة والمنسوجات الحريرية، وكان يباع المثقال الواحد من غزلها لهذا الصنف بمثقالين ذهب. ولمصنوعاتها شهرة فائقة في أقطار العالم (المؤلف).

ورخائها إلى أن وافاه الأجل المحتوم. فلحق بربّه راضياً مرضيّاً يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة 249[864] وله من العمر 28 سنة، وكانت أيّام ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ونصف، وهي من أبهج أيام إفريقية وأجملها بذكريات الجود والمآثر.

جلوس أبي محمد زيادةالله بن محمد بن الأغلب على عرش الأغالبة:

وبعد وفاة أبي إبراهيم أحمد بن محمد ولي أخوه على العرش وكان رؤوفاً بالرعيّة كريم الأخلاق حليم الأمر جارياً في السياسة على خطّة أسلافه. ولم تطل أيامه في الملك إلا سنة واحدة وسبعة أيام ثم لحق بربّه مبكيّاً على شبابه الغضّ وسيرته المرضيّة سلخ عشرين ذي القعدة سنة 250 [864].

جلوس أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب على عرش الأغالبة:

لما توفّي زيادة الله الثاني جلس على سرير الملك ابن أخيه أبو الغرانيق محمد الثاني، وكان ليّن العريكة حسن السيرة في الرعيّة، طيب السريرة سخيّ الكف مسرفاً في العطاء والبذخ. ومما يحكى عنه في ذلك أنه ابتنى قصراً لصيد الغرانيق التي شغف بصيدها، أنفق على بنيانه وحده 30000 دينار[53]. إلّا أنه كان موثراً للعدل شغوفاً بالغزو والفتح. ولما توطّدت له الأمور عيّن خفاجة عاملاً له على صقلية وأمره بغزو إيطاليا، فخرج لغزوها

(53) ابن عذاري، جـ1، ص 150.

مرّتين متواليتين الأولى في سنة 252 [866] والثانية في سنة 253 [867][54]. ولما علم قيصر الروم بنكاية المسلمين في الإيطاليّين أخرج أسطولاً عليه جيش كثيف لغزو المسلمين في صقلية فهبّ خفاجة للقائه في حفل عظيم فالتقيا على سركوزة فانكسر الروم وغنم المسلمون أثقالهم وذخائرهم. وانقطعت بهذه الكسرة أطماع الروم البيزنطيّين في الشواطىء الجنوبية من إيطاليا. ولكن هذا الانتصار الباهر كان معقباً بالمنغصات. فبينا كان الأمير خفاجة عائداً إلى حاضرة بلرم رافعاً راية النصر باليمين إذ خرج عليه طاغية من جنوده فطعنه طعنة مردية في المقاتل مات منها في ساعته. فحمل إلى بلرم ودفن بها رحمه الله. وعيّن أبو الغرانيق مكانه أحمد بن يعقوب[55].

ولم تكن همّة أبي الغرانيق لتفتر عن الغزو والفتح وكان يهمّ بامتلاك جزيرة مالطة، فأخرج الأسطول وبعد أن جرت له مع أهلها وقائع استولى عليها وضمّها إلى إفريقية. ولا خفاء أن سكانها عرب أقحاح من بقايا الفنيقيّين. وبعد هذا الفوز أمر أحمد ابن يعقوب عامله على صقلية بالخروج للغزو في البلاد الإيطالية فغزاها واقتطع منها عدة جهات ثم عاد منها ظافراً سنة 258[872]. وبعد عودته لحق بربه. فعيّن أبو الغرانيق ابنه الحسن، فسارعلى منوال أبيه في الحزم والنبل وبعد الهمة في الغزو وحطّ على

---

(54) يؤكد ابن عذاري (المرجع السابق) أن الغزوة الأولى تمت في سنة 251.

(55) يذكر ابن عذاري (جـ 1، ص 151) ما يلي: «فولّى أهل صقلية ولده محمداً وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب أبي الغرانيق، فكتب إليه بالولاية».

سركوزة وافتكّ من بها من أسرى المسلمين ولم ينجل عنها إلا بصلح مفيد للمسلمين.

واستمرّ أبو الغرانيق في يقظته وهمّته في الغزو وإعداد المعدّات وتجهيز الجنود وبناء المحارس والحصون على سواحل مملكته الواسعة في إفريقية وإيطاليا. وكانت هناك بلدة على ساحل البحر مما يلي برقة تدعى بارة وكان أهلها متنصّرين، فسيّرعليهم أسطولاً بقيادة حياة مولى الأغلب فلم يقدر عليها لحصانتها. ثم عاد فسيّر لها القائد خلفون البربري وكان حازماً فظّاً فراضهم وحملهم على الطاعة وعاد ظافراً[56].

واستمرّ أبو الغرانيق عانياً بتدبير شؤون المملكة بدقّة ومهارة إلى أن وافاه الأجل المحتوم ليلة الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة 261[875]، بعد أن حكم البلاد عشر سنين وخمسة أشهر ونصف.

4 ـ إفريقية في عهد إبراهيم الثاني
بداية عهد الارتباكات السياسية في الدولة

دِهان القيروانيّين وسعيهم لإفساد نظام الحكم:

قبل وفاة أبي الغرانيق، عهد بالحكم لابنه أبي عقال، ولصغر سنّه أناب عنه أخاه إبراهيم وشرط عليه أن لا ينازعه في الملك عند بلوغه من الرشد. وكان إبراهيم مولّى على القيروان من قِبَل أخيه. فأقبل عليه المداهنون من وجوه القيروانيّين[57] بعد

(56) ابن الأثير، جـ 6 ص 371.

(57) ذكر ابن عذاري (جـ 1، ص 154) أن القيروانيّين قد عرضوا البيعة على إبراهيم «لأنه قد أحسن السيرة فيهم».

وفاة أخيه وأخذوا يراودونه على نكث العهد والحنث باليمين. وقالوا له: قم إلى القصر نبايعك، فأنت الملك دون غيرك. فقال يدفعهم عنه: لقد علمتم أن أخي عقد البيعة لابنه، واستحلفني على ذلك خمسين يميناً، لا أنازعه ولا أدخل قصره. فقالوا له: إذن قد انتهى الإشكال. كن ملكنا في دارك أو القصر القديم ولا تنازع ولد أخيك في قصره، فنحن كارهون لولايته، ونريد عقد البيعة لك، وليس له في أعناقنا بيعة.

فاغترّ إبراهيم بدِهان هؤلاء المنافقين وخرج فيهم إلى العباسية ودخل بهم قصر الإمارة عنوة على العسس وبايعوه ملكاً على إفريقية ثم أعلنوا هذه البيعة وأذاعوها.

انتصاب إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب على عرش الأغالبة:

بعد أن تمّت البيعة لابراهيم من الوجوه غير الوجيهة عند الله، أمر باعتقال الملك الحقيقي الشاب أبي عقال بن أبي الغرانيق محمد الثاني في مدينة بلرم مع الأغلب بن محمد بن الأغلب وانفرد بالملك. وكان عهده في الأوّل عهد إصلاح وتقدم، بحيث لم يكن دون أسلافه اهتماماً بالعمارة وتشييد المباني العظيمة فقد شرع سنة 264 [877] في بناء مدينة رقادة وأتمّ تخطيطها وبناء قصر الفتح سنة [878] وانتقل إليه حذر انتكاث رجال الدولة، بعد أن فتك بالموالي بطانة أخيه في القصر القديم، بتهمة أنهم كانوا يريدون الثيار عليه. ثم بعث إلى عامل صقليّة وأمره بحصار سركوزة فحاصرها وأقام عليها ستة أشهر وفي آخرها دخلها فاتحاً.

ثم أخذت الفتوق تبدو في عهد هذا الملك المغتصب وكان من أوائلها تآمر حاشية والي صقلية جعفر بن محمد مع الأميرين أبي عقال والأغلب المعتقلين ببلرم. فاغتالوا الوالي ونصبوا الأغلب أميراً على الولاية. فوثب عليهم أهل بلرم وأخرجوا الأميرين ومن شايعهما من بلدهم إلى إفريقية وولّوا عليهم إبراهيم الحسن بن رباح[58]، فأقرّه إبراهيم وأمره بغزو الصائفة فنكل في العدوّ، وكرّ الروم في الأسطول وغزوا شواطىء المسلمين سنة 266[879]، فخرج هؤلاء للقائهم في نحو140 مركب، فدارت بين الفريقين معركة شديدة كان الفوز فيها للروم على المسلمين وانثنى أسطول إفريقية راجعاً إلى بلرم.

خروج العباس بن أحمد بن طولون من مصر لغزو إفريقية:

أشغل هذا الخارجي اهتمام الدولة الأغلبية عن الخروج لحرب الصائفة في إيطاليا سنة 267[880] والصمود في وجهه. فقد خرج هذا المفتون مغاضباً لأبيه حين توجّه إلى أنطاكية لقتال سيماء الطويل وقصد إفريقية لانتزاعها من أيدي بني الأغلب وأقبل في جملة مؤلفة من 10.000 راجل من السودانيّين و800 فارس وانتزى على بيت مال أبيه وأخذ منه 50000 حِمل من المتاع والسلاح و800 حِملاً من الدنانير. ولما وصل إلى برقة فرّق بها العطايا وأجزل الصلات، ثم سار إلى لبدة وأجزل فيها العطايا ليفعل في ضمائر أهلها ما فعله في برقة.

ولما اتصل خبره بالملك إبراهيم الثاني نهدإليه 1600 فارس

---

(58) ابن عذاري، جـ1 ص 155.

بقيادة أحمد بن قُرْهُب، فجدّ السّير حتى دخل طرابلس قبل وصول العباس بن أحمد إلى لبدة. ثم جنّد ابن قرهب من أمكنه من أهل البلاد عربها وبربرها وأسرع إلى لبدة فدخلها.

وعلى إثره أقبل العباس بن طولون زاحفاً عليه بـ5000 راجل و800 فارس وأركب الـ5000 الباقية كلّ واحد منهم جملاً وأعطى كل واحد علماً بيده وفرّقهم في مؤخرة الجيش ليظهر بذلك أنّ خلفه جيشاً جرّاراً لا نهاية له. فالتقى بابن قرهب على بعد خمسة عشر ميلاً من لبدة، فلم تكن إلا مناوشة قصيرة حتى كرّ ابن قرهب على عقبه. وهو يظن أنّ من بدأ القتال ليس إلا مقدمة الجيش. ودخل ابن قرهب طرابلس منهزماً. وركب العباس ظهره وحاصر طرابلس ونصب عليها المجانيق، ولازم حربهم ثلاثة وأربعين يوماً. وأفحش سوادنه في البوادي وهتكوا المحارم وفعلوا الأفاعيل(59). فاستغاث أهل طرابلس بأبي منصور الأباضي صاحب نفوسة، فأسرع لإنقاذهم وزحف إليهم في 12000 من رجالهم فلجأوا في محاربة البغاة المستنسرين إلى أن هزموهم إلى برقة. وانتهب أهل طرابلس معسكرهم. وأبى النفوسيّون(60) أن تلتبس أيديهم بشيء من فيئهم تورّعاً منهم.

ولما علم أحمد بن طولون بما اقترفه ابنه وجّه خلفه جيشاً فعثروا عليه منهزماً في برقة فقاتلوه حتى استسلم وأحضروه إلى أبيه فحبسه وقتل جماعة من القواد الذين واطؤوه وخرجوا معه

59) نفس المرجع، جـ 1 ص 157.

(60) أي سكان جبل نفوسة.

واستمرّ في محبسه إلى أن مات أبوه، فقتله أخوه خمارويه لأنه أبى أن يبايعه.

أما الملك إبراهيم فإنه لما علم بخبر انهزام ابن قرهب أمر بحشد الجنود وخرج بنفسه إلى طرابلس لردّ غائلة هؤلاء المفسدين عليه. فأقام بها أياماً ثم عاد إلى القيروان. فبلغه حين وصوله عصيان أهل الزاب فسار إليهم وفتك بهم ثم رجع إلى القيروان[61].

الوضع في صقليّة وجنوب إيطاليا:

وفي سنة 270[885] توفي الحسين بن أحمد عامل صقلية ووليها سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي، فافتتح ولايته ببثّ سراياه في البلاد الإيطالية وقد عادت إليه ظافرة.

لكن الروم البيزنطيين لم تغف لهم عين عن صقلية، فأرسلوا إليها جيشاً جرّاراً، وبعد معارك طاحنة احتلوا سبرية وخرج من كان بها بأمان. ولم يصل العهد بولاية سوادة حتى خرج عليه أهل بلرم في سنة 273 [ديسمبر 886] واعتقلوه مع أخيه ورجال بطانته ووجهوهم إلى إفريقية. واجتمعوا على أبي العباس ابن علي فولّوه عليهم.

ويظهر أن واقعة سبريّة قد غمّت المسلمين بصقلية فاستجمعوا قواهم وخرجوا في سنة 275 [889] إلى البلاد الإيطالية وصالوا فيها صولة عظيمة وتعقّبوا الروم في مدن كثيرة كانوا مستولين عليها، فافتكّوها من أيديهم وأرحلوهم عنها وأضعفوا

(61) ابن عذاري جـ 1، ص 159 وابن الأثير، جـ 7، ص 258.

مركزهم أمام الإيطاليين واشتد الرعب في قلوبهم من صولة المسلمين وأيقنوا باستحالة مقاومتهم وإجلائهم عنها.

ظهور أزمة النقد بالقيروان[62]:

حدثت هذه الأزمة بسبب تافه وهو أن دار ضرب المسكوكات سكّت دراهم صحاحاً وأصدرت معها قطعاً نحاسيّة صغرى للتفاريق تسهيلاً للمعاملة بين الناس أنكرتها العامّة بدعوى أنها زائدة عن مقدار الذهب وهم أحوج ما يكونون إليها في تدوير المعاملات. وإنما أرادوا بذلك إثارة الشغب الذي اعتادوه. فقد أغلقت الأسواق والدكاكين وأضرب العمال عن أعمالهم وتعددت النظارات وخرجت جموع منهم إلى مدينة رقادة لإعلان احتجاجهم على الحكومة. وكانوا أثناء هتافهم يصرخون بكلمات عدائية يتحدّون بها الملك، فكانوا يقولون: ويلاً لك، ثيوراً يا إبراهيم. فأمر باعتقالهم في الجامع أين ذهبوا يخطبون. ولما وصل خبرهم إلى القيروان هاج الشعب هيجاناً عظيماً وبدأت الأزمة النقدية تتحوّل إلى ثورة ضدّ العرش وفزع الناس إلى أبواب المدينة وأعلنوا أنهم يمضون إلى تخليص المسجونين إذا لم تسرع الحكومة بالإفراج عنهم. ولما وصل هذا الخبر إلى الملك إبراهيم أرسل كبير وزرائه أبا عبدالله بن أبي إسحاق يدعوهم إلى الهدوء والسكينة وينذرهم عقبى ما أقدموا عليه. فسبّوه ورموه بالحجارة، فرجع إلى الملك وأعلمه بواقعة الحال، فركب من ساعته في جند كثير وأصحب معه حاجبه نصر بن الصمصامة.

---

(62) جدّت هذه الأزمة في سنة 275 هـ/ 888 - 889 م.

فتعرّض له أهل القيروان وهم يهمّون بقتاله. فجانبهم وعدل إلى المصلّى، وأمر الجنود بالكفّ عن مقابلة الشر بالشر، وأعاد الوزير إلى القيروانيّين للمفاهمة في حلّ الاعتصاب. فشقّ سماطهم وسكن ثائرتهم ووعدهم بإجابة طلباتهم متى أقلعوا عن التظاهرات. فأصاخوا له السمع ثم تفرقوا وعادوا إلى مساكنهم ينتظرون الوفاء بوعد الملك[63].

ولما هدأت الثائرة سيّر الملك إبراهيم بن أحمد بن أبي مغيث إلى رقادة وأمره بإطلاق من كان بها من معتقلي التظاهرات، وأمر أيضاً بضرب دراهم ودنانير مساوية لقيمة تلك القطع النحاسية التي سمّاها العاشرية، وجعل عيار النقد كل دينار عشرة دراهم. فاطمأن الشعب لقبول رغباته وعادت المياه إلى مجاريها.

تغيير أنظمة الدولة الإسلامية وتعيين وزراء اختصاصيّين:

كان لأزمة النقد أثرها في إصلاح نظام الدولة والتخفيف من أعبائها عن كاهل الملك. فجعل الوزراء مسؤولين لديه عن أعمالهم وأحدث عدة وزارات: وزارة للمظالم تقلّدها أبو العباس أحمد بن الأغلب، ووزارة للنظر في شؤون صقلية وغيرها من الممتلكات وراء البحار، تولاها محمد بن الفضل، ووزارة للمالية عرضها الملك على سوادة النصراني وشرط عليه الدخول في الإسلام، فأباها وقال: ما كنت أدع ديني على رئاسة دنويّة أنالها. فتولاها غيره. وأبقى رئاسة الوزراء على حالها لأبي عبدالله بن

(63) ابن عذاري، جـ1 ص 160.

أبي إسحاق وأطلق يده في بقيّة شؤون الدولة[64].

ثورة الملك إبراهيم على الدستور (كذا)[65]:

لم يلبث الملك بعد العمل بهذه التنظيمات، حتى ساءت نيّته في وزرائه وبطانته. فأخذ ينكل بهم ويقتلهم واحداً بعد واحد، فالتوت عليه الأمور، وكان ذلك من أهمّ الأسباب في فساد المناوي واضمحلال الدولة الأغلبية ونقل تاجها إلى هامات الدخلاء المتربصيّن، وتلك عاقبة التهوّر والغرور. فقد أقدم الملك إبراهيم على نقض جميع الضمانات التي أعطاها للحكومة وأمر بحبس كاتبه الأوّل محمد بن حيون البربري ووضعه في تابوت فمكث فيه إلى أن مات ظلماً. وفي سنة 277 [890 - 891] أمر بقتل حاجبه نصر بن الصمصامة بعد أن ضربه خمسمائة سوط، تلقاها بجلد وصبر.

قال عنه المؤرخون: إنه لم ينطق بكلمة أثناء جلده ولم يتحرك. وأمر بقتل سوادة النصراني. وطرح طبيبه إسحاق بن عمران للجلد، فضرب بالسياط إلى أن مات، وجمع فتيان القصر من الصقالبة وأمر بقتلهم جميعاً واستخدم عوضاً عنهم فتياناً من الزنج وكانوا زهاء خمسة آلاف، ثم عرض لهم ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم عن بكرة أبيهم[66].

---

(64) نفس المرجع، جـ 1 ص 162، ولكن ابن عذاري ذكر أن إبراهيم «عرض ديوان الخراج على سوادة النصراني».

(65) يقصد المؤلف «بالدستور» التنظيمات السياسية، لأن ذلك اللفظ لم يكن مستعملاً في ذلك التاريخ.

(66) ابن عذاري، جـ 1، ص 163 - 164

وفي سنة 280 [893] امتدّت يده إلى الفتك بأبطال العرب الذين كانوا في مدينة بلرم[67] وهم نحو 700، فاستقدمهم إلى رقادة وأحسن إليهم وأجزل صلاتهم وأنزلهم قصبة بناها لهم فيها دور كثيرة وليس لها إلا باب واحد. فلما نزلوها واطمأنوا، جمع خاصّة رجاله وأمرهم بلقاء ابنه عبدالله. فلما اجتمعوا لديه ركب بهم إلى تلك القصبة، وعندما وصلوا أمر عساكره بقتلهم، فقتلوهم عن آخرهم. وكان قتل هؤلاء الصناديد من أظهر الأسباب في انقطاع العصبيّة العربية من صقلية. وقد كان في بلرم وحدها نحو ألف رجل يعدّون من أقحاح العرب وأكثرهم من قيس. فانتقلوا بعد هذه الواقعة إلى أنحاء مختلفة. ولما نزحوا منها على هذه الصورة، استطال البربر على الدولة ووجدت كتامة السبيل ممهّداً لقيامها مع الشيعة على هدم ملك بني الأغلب، وذهبت معهم مطامع المسلمين في الاستيلاء على إيطاليا بعد أن كانوا يمنّون أنفسهم بميراث المملكة الرومانية.

ولما نقلت أخبار هذه المجازر البشرية إلى الشعب هاج وماج واندلع لسان الثورة في أنحاء كثيرة من البلاد في تونس والجزيرة والأربس وباجة وقمودة، وقدّموا على أنفسهم رجالاً معروفين من قوّاد الجند، وصارت إفريقيّة أتوناً مستعراً ولم يبق من بلدانها خاضعاً لسطوة الملك غير الساحل والقسم الشرقي منها إلى طرابلس، فجمع منهم أجناداً كثيرة وولّى عليهم ميمون الحشيمي ثم سيّره في سنة 281 [894] إلى قتال العصاة فمثل بهم أشنع تمثيل. ودخل تونس بالسيف وأذن للعساكر بانتهاب الأموال

(67) يتعلق الأمر بحصن «بلزمة» لا بلرم. (انظر ابن عذاري، جـ، ص 123).

وسبي النساء والذراري واستحلال الفروج وانتهاك الحرمات فعسفوا في الناس عسفاً شديداً.

ومن سوء التقادير أن كان دخول أبي عبدالله الصنعاني[68] إلى إفريقية خلال تلك الحوادث، فوجد الأهالي مستعدّين لقبول دعوة كل ناعق يجمع أهواءهم على الثورة. فذهب إلى كتامة وأقام بها في كنف القدر يحفز الناس لقلب الدولة.

وفي اليوم الثامن من رجب سنة 281 [سبتمبر 894] انتقل الملك إبراهيم إلى تونس وجعلها عاصمة للمملكة بعد أن أباحها لجنوده وأوهن عزّة أهلها وأضعف شأنهم. وفي سنة 282 [896] اندلع لهيب الثورة في أطراف إيطاليا. وبسبب قلّة الجنود أبرمت الحكومة مع الثائرين صلحاً شائناً لمدة أربعين شهراً، من جملة بنوده أن يقدم المسلمون رهائن للإيطاليين في كلّ ثلاثة أشهر، ستة رجال، ثلاثة من العرب وثلاثة من البربر، وهي أوّل مرّة عقد فيها صلح مهين للمسلمين مع ممتلكاتهم في جنوب أوروبا[69].

وفي سنة 283 [897] رجع الملك إبراهيم إلى رقادة، فأقام بها مدة ثم خرج إلى طرابلس فتعرضت له نفوسة بعد منصرفه من قابس ومنعته من المرور وكان في 20000 راجل ليس معهم فارس. فهبّ لحربهم وقتالهم حتىّ هزمهم، ثم تابع سيره إلى طرابلس فقتل بها ابن عمّه محمد بن زيادة الله الأكبر وكان من أجلّة العلماء الأكابر وقد وصفه المؤرخ ابن عذاري المراكشي بأنه

(68) سيأتي ذكره في الباب الموالي.

(69) ابن عذاري، جـ1، ص 173.

كان أديباً ظريفاً له تآليف كثيرة. والسبب في قتله أن الخليفة العباسي(70) كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على سوء سلوكه مع أهل تونس ويهدّد بتصيير الأمر إلى ابن عمه المذكور إن لم يكفّ عن غيّه وفساده، فنحّاه من طريقه.

وبعد أن ارتكب تلك الفعلة الشنعاء، تحوّل من طرابلس إلى تاورغة، فقتل بها خمسة عشر رجلاً من أعيانهم وأمر بطبخ رؤوسهم في قدر، مظهراً بذلك أنه يريد أكلهم هو ومن معه من رجاله. فارتاع العسكر منه وقالوا: إنا نراه قد خولط في عقله وأخذوا يتسلّلون من صفوفه. فعجّل بالأوبة إلى تونس خيفة أن يبقى وحده. ولما عاد جعل عقوبة من فرّ عنه ثلاثين ديناراً ولم يعف منها أحداً.

وفي سنة 284 [897] ساق جيشاً على نفوسة بقيادة ابنه أبي العباس فأوقع فيهم مقتلة عظيمة وأسر نحو 300 رجل من أعيانهم، فلما وصل بهم دعاهم إبراهيم، فدنا إليه شيخ منهم فسأله وهو يعبث به: أتعرف علي بن أبي طالب؟ فقال له الشيخ: لعنك الله يا إبراهيم على ظلمك وقتلك الناس بغير حقّ، فذبحه إبراهيم وشقّ عن قلبه وأمر أن يفعل كذلك ببقيّة الأسرى، حتى أتى على آخرهم، فنظمت قلوبهم في حبال وعلقت على باب تونس إرهاباً لغيرهم(71).

ولما تكاثرت مظالمه واشتدّ جوره، أنكر عليه الرجل

(70) هو الخليفة المعتضد (279 - 289 هـ/ 892 - 902 م).

(71) ابن عذاري، جـ 1 ص 173 - 174.

الصالح البركة الشيخ أحمد بن عبدالله المكفوفي السوسي الملقب بأبي الأحوص، وكان معروفاً بالتقوى والزهد والورع، ودعا رجلاً من أهل سوسة وأملى عليه رسالة ينذر فيها الملك ويحذره من عواقب البغي. ومما قال فيها: يا جائر، قد حدت عن شرائع الإسلام، وعمّا قريب تلقى مقعدك من جهنّم. ويعث بها إليه، فلما قرأها غضب وكتب إليه: إننا عذرناك لفضلك ودينك ولا نريد مؤاخذتك، وإنما ابعث إلينا من كتب عنك الكتاب، وتالله لئن لم تفعل لأقتلنّ فيه من أهل سوسة (كذا وكذا)، أخذاً بالظنّة ويكون إثم ذلك عليك. فأجابه ابن الأحوص: لئن قتلت ألفاً من السوسيّين، لا يكون إثمهم إلا عليك. أمّا لو أعلمتك باسم الرجل فإن إثم قتله يكون عليّ. ولو عملت ما عملت ما أخبرتك. فتب إلى خالقك وارجع من ظلمك وجورك خيرٌ لك. فأمسك عنه الملك إبراهيم، خوفاً من ثيار العامة عليه، ولولاهم لفتك به كما فعل لأقلّ من ذلك مع غيره[72].

وفي سنة 285 [898] ثارت فتنة بصقلية بين عربها وبربرها فوافاهم كتاب من إبراهيم يدعوهم إلى الطاعة ويؤمنهم. واستثنى منهم أبا الحسن بن يزيد وولديه والحضرمي، فقبض عليهم عامله ووجّههم إلى تونس، فانتحر أبو الحسن قبل وصوله ولما وصل الآخرون أمر بقتلهم فقتلوا جميعاً.

وفي تلك السنة ثار عليه بنو باطيط في ناحية بسكرة، فسيّر لهم جيشاً وقتل بشراً كثيراً منهم حتى ألزمهم الطاعة وأعاد ما التاث عليه.

(72) نفس المرجع، جـ 1، ص 175.

وفي سنة 287 [900] أخرج ابنه أبا العباس في الأسطول إلى صقلية لإصلاح ما اختلّ من أمورها، فنزل في بلرم وأمّن أهلها وحرضهم على الطاعة، فأتاه قاضيها في وجوه من أهلها مسلماً، فصرف القاضي واعتقل الآخرين. ووجّه إلى المدينة ثمانية من مشيخة إفريقية مهدّئين، فقبضوا عليهم لقاء ما صنع بأعيانهم، فزحف إليهم أبو العباس بالأسطول وأغرق لهم سفناً، فثاروا عليه، فنزل إليهم بمن كان معه من الجنود وحاربهم على أبـواب المدينة وقتل منهم خلقاً كثيراً، ولما أدركوا ما نزل بهم وهم بين الأعداء استأمنوه فأمّنهم ودخل المدينة ظافراً لعشر بقين من رمضان السنة[73].

وفي سنة 288 [901] سيّر الملك إبراهيم ثاني بنيه الأمير أحمد في جيش عتيد إلى الزاب لإرغام السكان على الطاعة وكانوا قد ثاروا عليه، فنكل بهم، وكتب إلى ابنه أبي العباس في تلك السنة وهو لم يزل على صقلية أن يخرج لغزو الصائفة في إيطاليا فاحتل عنوة مدينة زلة واستأمنت إليه حصون كثيرة، فصالحهم على الجزية، بحيث لو استمرّت الغزوات على وتيرتها الأولى، ولـم تشبها الفتن الداخلية التي أثارتها حماقـة الملك إبراهيم وارتبكت بها أحوال إفريقية، لأتت الفتوحات على إيطاليا وغالة ولبلغت طلائع جنود المسلمين إلى الجزر البريطانية. ولكن أبى الطالع النحس ودهان القيروانيّين إلّا تغيير مجاري التاريخ وتحويل سيوف المسلمين إلى الفتك برقاب بعضهم وفتح الثغرات الواسعة لفتنة الباطنية واستغلالها لغضب الناقمين على الدولة الأغلبية.

(73) نفس المرجع، جـ1، ص 176 - 177.

حدث كلّ ذلك بسبب الإخلال بنظام التولية ووقوع الاختيار المشؤوم على رجل غير متّزن الأعصاب، فأفسد بسوء تصرّفه جميع ما أصلحه الملوك السابقون ورتّبوه لتسيير الدولة. استمرّ الخلل فاشياً في إفريقية والدعوة الباطنية[74] تنفث سمومها وراء ذلك في بلاد كتامة.

ولما بلغ خبرها إلى الملك إبراهيم ذعر منها فأظهر التوبة والندم على ما فرط منه وكفّ عن الظلم وأراد أن يستميل قلوب العامة وإرضاء الخاصّة ليصرف الشعب عن إجابة هذه الدعوة. فأسرع بردّ المظالم وأسقط القبالات وأمر بأخذ العشر حبّاً، وترك لأهل الضياع خراج سنة، وأعتق مماليكه، وأجزل العطاء للفقهاء ووجوه الناس، وفرّق عليهم أموالاً عظيمة. وخصّص أموالاً أخرى للفقراء والمساكين وسمّى المؤرخون هذه السنة التي أقلع فيها الملك إبراهيم عن الظلم والاضطهاد سنة العدل وسمّاها العامة سنة الجور[75]. ولكن هذا التغيير لم يغن عنه فتيلاً، فإن نفور الناس قد تمكّن ولم يزدهم التغيير إلا سخطاً. لذلك اضطر إلى التخلّي عن الملك إيثاراً لسلامة الدولة، فاستدعى ابنه أبا العباس من صقلية وسلّمه زمام الملك[76] وكانت مدة حكمه 28 سنة وستة أشهر واثني عشر يوماً. قام فيه أول ولايته ستة أعوام على ما كان عليه أسلافه من العدل والاستقامة وحسن السياسة مع الرعيّة. وبعدما أخذ ينتقل سنة فسنة من سيء إلى أسوأ. فتنكّر للناس

(74) يقصد بذلك «الدعوة الشيعيّة».

(75) ابن عذاري، جـ 1، ص 180.

(76) سلّم له الملك سنة 289 [902].

واشتدّ حرصه على جمع الأموال. وقتل أخصّ رجاله وثقات حجابه. بل إنه فتك بابنه أبي الأغلب لمجرّد ظنّ طرقه فيه، وقتل بناته صبراً، وأمر بثمانية من إخوته ضربت أعناقهم بين يديه، وأتى في المملكة أحداثاً لم يأت بها ظالم قبله. وبسببها كثر الخروج عليه من العرب والبربر. وممّا يحكى عن ظلمه وحبّه لسفك الدماء أنه افتقد مرة منديلاً صغيراً كان يمسح به وجهه وسقط من يد بعض جواريه فأصابه غلام له، فقتل بسبب ذلك 300 خادماً[77]. ولما تنازل عن الملك وشعر بمقت الناس له وكراهيّتهم لبقائه، ترك إفريقيّة وانتقل إلى إيطاليا واتخذ له قصراً بها، فاحتجب فيه إلى أن أدركته منيّته يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة 290 [903] ونقل رفاته إلى صقلية، فدفن بها بعد 43 يوماً وكان عمره 52 سنة.

5 ـ آخر ملوك بني الأغلب

جلوس أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد على عرش الأغالبة:

جلس أبو العبّاس على عرش أجداده وكانت البلاد على وشك الانهيار وهي تستعر بالكوارث والفتن والدعوة إلى الباطنية قائمة على قدم وساق، ودعاتها يتحفّزون إلى التوثّب. والشعب كاره لحكم بني الأغلب، ويكفي لتصوير ارتياعهم ما ذاقوه في عهد أبيه المظلم الملطّخ بالدماء. فأراد أن يتدارك بعض ذلك، فسيّر ابنه الثاني أبا عبدالله الأحول في جيش جرّار إلى مدينة طبنة للوقوف في وجه الدعاية الباطنية وصدّ الناس عنها بالقوّة. وكتب

(77) ابن عذاري، جـ 1، ص 178 - 179.

إلى جميع العمال بتخلّي أبيه عن الحكم وتفويض الأمر إليه ودعوتهم إلى أخذ البيعة له. وعيّن ابنه البكر زيادة الله أميراً على صقليّة. وانتقل إلى تونس وأظهر فيها النسك والتقشّف ولازم مجالسة العلماء وأهل الرأي ومشاورتهم في مهامّ الأمور. وأنصف المظلوم وأجرى العدل وأجزل العطاء وأرضى الناس جميعاً، فاطمأنّ له الشعب وأخذ ينسى ما سلف من أبيه. ولو طالت مدّته لقضى على الباطنية وجدّد عهد أسلافه وأعاد ما كان لهم من عزّ ثابت ومجد مكين. ولكن من سوء طالع هذه البلاد أن كان عمره قصيراً.

أثر الوشايات في قصور الملوك ومقتل أبي العباس بأيدي فتيانه:

بلغ أبا العباس أنّ ابنه زيادة الله يريد الانتزاء عليه والاستيلاء على الملك. فبعث إليه يستحثّه في القدوم من صقليّة. فقدم لعشرين بقين من جمادى الآخرة سنة 290 [903]. فأمر باعتقاله في غرفة من قصره واستلم ما كان معه من عدّة وأموال وقبض على رجال بطانته وأمر بهم إلى السجن. ولم يلبث بعد ذلك طويلاً في الملك حتى قُتِل غيلة، قتله اثنان من فتيانه كان يثق بهما حدّثتهما أنفسهما الأمّارة أنهما يصطنعان بقتله يداً عند ابنه زيادة الله. فتربّصا به إلى أن يأوي إلى دار كان يختلي فيها بعد الاستحمام وينام على سرير وتحت رأسه سيف. ولما نام تآمر الفتيان على قتله (وقيل إن ابنه زيادة الله هو الذي أغراهما على ذلك). فتقدّم أحدهما واستلّ السيف الذي كان تحت رأسه وضربه به على حبل عاتقه ضربة واحدة قطع بها عنقه حتى نفذ السيف إلى السرير ومضى الفتى الآخر إلى ناحية من القصر،

ميلاً من تونس وهناك ضربت أعناقهم ليلة السبت لثلاث خلون من رمضان، ثم ماطل الجند بالعطاء حتى ملّوا الاختلاف والانتظار وأمسكوا عن الطلب(79).

ولما صفا الجوّ لزيادة الله الثالث دعا بالفتيَيْن قاتلي أبيه فأمر بصلبهما، فصلب أحدهما على باب الجزيرة والآخر على باب القيروان من أبواب تونس، ليتخلّص بذلك من تبعة جريمتهما في نظر الشعب. ثم انثنى على عمّه أبي الأغلب الزاهد المعتكف في سوسة فقتله. وقتل أخاه أبا عبدالله الأحول بعد أن استقدمه من طبنة وقتل أيضاً الوزير ابن القياد. إذ اتهمه بأنه هو المشير على أبيه بتأديبه وسجنه. ثم قلّد عبدالله بن الصائغ الوزارة وولاية البريد، ومنصور بن إسماعيل ديوان الخراج، وجماس بن مروان ابن سماك الهمذاني ولاية القضاء والمظالم، وإبراهيم بن حبشي ولاية الجيوش. وأمر بتأسيس مدينة وهران على يد عامله محمد ابن أبي عون بن عبدوس وأمدّه بجماعة من المعماريّين الأندلسيّين، أمر بذلك تذكاراً لولايته. وسيّر إلى العراق الحسن ابن حاتم رسولاً إلى أمير المؤمنين ومعه هدايا كثيرة من جملتها 10,000 مثقال من الذهب.

مؤتمر ملّي (كذا) لنقض الدعوة الباطنيّة:

لم يكن زيادة الله الثالث ليغفل عن الدعوة الباطنيّة وهي تتغلغل في أحشاء البلاد. فإنه عقب أخذ البيعة لنفسه (سنة 290 هـ/ 903 م). جمع علماء إفريقية وفقهاءها وذوي الرأي

(79) نفس المرجع، جـ1، ص 182 - 183.

والمكانة فيها في مدينة تونس للنظر في الدعوة الباطنيّـة[80]. فاجتمعوا في يوم مشهود برئاسة عبدالله بن الصائغ كبير الوزراء. فكان أوّل مؤتمر إسلامي انعقد في إفريقية في أمر هذه الدعوة والبتّ في مصير البلاد. ففتح عبدالله بن الصائغ المؤتمر بخطاب قال فيه: يقول لكم الأمير إن هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة يزعم أن أصحاب النبي ارتدّوا بعده ويسمّي شيعته المؤمنين ومخالفيه الكافرين ويبيح دماءهم[81].

وبعد الخطاب تفاوض المؤتمر فيما عرضـه عليه كبيـر الوزراء ثم قرّ قرارهم على إعلان كفر الصنعاني ووجوب لعنه والبراءة منه وممّا يدعو إليه. وأفتوا بحربه وتحريض المسلمين على قتاله لمنع فتنته وزيغه.

ويُعَدّ هذا الاجتماع أوّل إجماع إيجابي عُقِد في تاريخ الإسلام. أمّا ما يعدّونه من قبيل الإجماع في كثير من المسائل فهو إجماع سكوتي لا أثر فيه للإيجاب.

وإثر اتخاذ هذا القرار انتدب زيادة الله الثالث عبدالله بن حبشي وأخرجه مع جنود كثيرة فيهم وجوه الرجال وأنجاد العرب والموالي ووزع عليهم فوق الكفاية من المال والعدّة والسلاح وكلّ ما به قوام الحرب. ولما بلغ عبدالله الصنعاني قرار المؤتمر وخروج الجيش إليه سقط في يده وارتاع ولم يكن يومئذ ينتبه أن نجم دعوته في صعود وحظّ بني الأغلب في هبوط وأن العبرة

(80) تم هذا الاجتماع سنة 291 هـ/ 903 - 904 م.

(81) ابن عذاري، جـ1، ص 185.

ليست بالتظاهرات وعقد المؤتمرات واصطناع المنافقين أو إشهار السلاح وحشد الجنود، بل بامتزاج القلوب وإقبال الشعب على تمكين الدولة وتأييد سياستها ضدّ كل خارج عليها. وهذا ما لم يوفّق إليه آخر ملوك بني الأغلب.



الباب الرابع

الدعوة الشيعية في المشرق والمغرب

1 ـ الدعوة الشيعية في إفريقية

الدعوة الباطنية الإسماعيلية:

يذهب مؤرخو الشيعة إلى القول بأن الإسماعيلية ليسوا منهم، بل يذهبون في اتهامهم إلى القول بأنهم ملاحدة من غلاة الباطنية التي تأسست لهدم الإسلام ديناً وسياسة، وإقامة نحلتهم الباطلة على أنقاضهما، ويتبرأون منهم. ونحن لا نستطيع أن نُلصقهم بهم أو ننفيهم عنهم، وإن كانت الفرق الشيعية كلها ترجع إلى أصل واحد وهو دين المثنوية (دين المجموس) وإثبات مقادير ما أخذته كلّ فرقة من هذا الأصل ينبغي أن يرجع فيه إلى تاريخ المذاهب، والبحث في ذلك من وظيفة مؤرخي الأديان والفلسفة العامة. أمّا نصيبنا نحن في هذا الموضوع فهو نصيب المؤرخ السياسي. وهو الاكتفاء بنقل ما اتصل من دعايتهم بالحوادث السياسية التي ألمّت ببلادنا، للتعريف بهويّتهم وما دهوا به الإسلام في العشر الأواخر من القرن الثالث وفي القرن الرابع، حتى يقف قراء هذا الموجز من تاريخنا على ما أصاب إفريقيّتنا

من ضمور وتعطيل بأيدي الباطنية، بصرف النظر عن موضوع النحلة التي ينتمون إليها.

وهاك ما كتبه عنهم المؤرخ أبو عبدالله محمد بن سعدون ابن علي في كتابه المسمّى «تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان»، وهو حجّة فيما نقله عنهم لأنه كان واقفاً على أخبارهم ولم يكن صنيعة لحزب من الأحزاب القائمة على الحكم في عهده حتى يتهم بالتعرّض كمّا رمي به غيره، ونحن ننقله كتوطئة لما سنذكره عنهم فيما يلي. قال المؤرخ رحمه الله: «أوّل من نصب هذه الدعوة جدّ عبيد وهو عبدالله بن ميمون القداح الأهوازي. وكان ميمون أبوه تنتسب إليه فرقة من أصحاب أبي الخطاب تعرف بالميمونيّة. وكان عبدالله هذا ادّعى لنفسه النبوّة فأراد الناس سفك دمه، فاختفى منهم ثم فرّ من وطنه وأخذ يتنقل في البلاد مستتراً يخفي اسمه ومذهبه لئلا يقتل إن عرف إلى أن وافته منيّته في الشام وأراح الله من شرّه. وأخذ جماعة من أصحابه فقتلوا عن آخرهم».

ثم ذكر المؤرخ دعاتهم وما كان من غوايتهم، فقال: «فمنهم رجلان أحدهما يعرف بالنجار والآخر بالكومي، خرجا من الشام وتغلّبا على اليمن. فمات النجار وخلّف ابناً فكان يكتب إلى أصحابه: «من ابن رب العالمين»، ولما عرف ابن نصير بأمره قتله ونهب أتباعه وشردهم في الآفاق. ومات الكومي بعلّة في بطنه أعضل داؤها. وكان لهؤلاء أتباع بالشام والبحرين يظهرون ويختفون».

«والذي دعا إلى هذا الكفر عبدالله بن ميمون القداح لأنه صاحب قرمطا ودعاه إلى مذهبه فطاوعه على ذلك، واشتهر استخفافهم بالدين وكثرت بذلك الأخبار والأحاديث. وكان ممن أظهر مذهبهم وأعلن به أبو عبدالله الجنّابي الذي رفع الحجر الأسود من الكعبة، فإنه لما تغلّب على البحرين أسقط عنهم جميع الفرائض وأعلن بالزناء واللواط والكذب وشرب الخمر. وكذلك فعل الأصفهاني وزاد عليه تحريم الامتناع على الغلمان ممن أراد الاستمتاع بهم، وجعل حدّ الممتنع منهم الذبح. وكانت له ليلة تسمى الإمامية يجمع فيها نساءه ونساءهم ومن ولد من تلك الليلة يسمى «ولد الإخوان». (ونحن سنذكر خلاصة عن هذه الفرقة عند الكلام على تقلّص ظلّ الدولة العباسية).

بنـو عبيـد:

أما عبيد الذي تسمّى بالمهدي فإن اسمه الحقيقي سعيد، وتسمى أيضاً بعبيد الله ليخفي أمره، لأنه كان عليه الطلب من الحسين بن أحمد بن محمد، وكان لمحمد هذا ولد يلقب بأبي الشلعلع بن عبدالله بن ميمون القداح. فبعث بداعيين أخوين إلى المغرب، فنزل أحدهما بقبيلة تعرف بكتامة، اسمه حسين وتكنّى بأبي عبدالله الشيعي وسمّي المعلّم، والآخر أبو العباس وسمّوه بالمحتسب، فأظهرا من أنفسهما الزهد والورع حتى افتتحا بالكذب والتدليس بلاد إفريقيّة ونصبا عليها عبيد الله لظنّهما أنه هو صاحب الدعوة الذي كانا يدعوان إليه.

وممّا عرف من جهل أبي عبدالله الشيعي أنه قال يوماً لأبي عثمان سعيد بن الحداد العالم الحجّة: القرآن يخبر أن محمداً

ليس بخاتم النّبيّين في قوله: ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين ﴾[1]، فخاتم النبيّين غير رسول الله. فقال أبو عثمان: هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنما هي من واوات العطف مثل قوله تعالى: ﴿ هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ﴾[2]، فسكت وقال له مرّة أخرى: إن الله أخبر أن أصحاب الرسول يرتدّون بدليل قوله تعالى: ﴿ أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[3]، فقال أبو عثمان: هذا إنّما هو استفهام لا إخبار. وله نظائر في كلام الله كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أفئن متّ فهم الخالدون ﴾[4].

ولمّا وصل عبيد الله الشيعي إلى الملك قتل أبا عبدالله الداعي وأخاه قبل أن يفتضح أمره وانتقم إليه منهما على يد من سعيا لتنصيبه وقتلا الخلائق بسببه حتى أخرجاه من السجن وسلّما له في الملك، ولم يقيما معه إلا سنة واحدة أو نحوها. ثم تسلّط على أكابر كتامة الذين سعوا في إقامة ملكه فقتلهم جميعاً ثم تمادت دولة أبنائه نحو 300 سنة[5] ملكوا من مضيق سبتة إلى مكّة.

وممّا يؤثر عن كفر عبيد الله وطغيانه أن شيخاً من أتباعه

---

(1) سور الأحزاب، الآية: 40.

(2) سورة الحديد، الآية: 3.

(3) سورة آل عمران، الآية: 144.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 34.

(5) دام حكم الفاطميين بإفريقيّة من سنة 297 إلى سنة 362 هـ/ 910 - 972 م. ثم انتقلوا إلى مصر فحكموها إلى سنة 567 هـ/ 1172 م.

خرج يتجسّس له أحوال الناس ومعه خيل فباتوا بخيولهم في المسجد. فقال لهم الناس: كيف تدخلون خيولكم المسجد؟ فقال لهم الشيخ وأصحابه: إنّ أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي. فقال لهم قيّم المسجد: معاذ الله إن الذي يخرج من المهدي نفسه غير طاهر، فكيف الذي يخرج من خيله! فقالوا له: طعنت في المهدي وأخذوه إليه فأخرجه في عشيّة جمعة فقتله.

وذكر البكري أن الحجر الأسود، لما اقتلعه أبو طاهر الجنابي من الكعبة أرسله إلى عبيد الله بالمهديّة. فلم يلبث بعد وصوله إلا أياماً ومات ثم رده أبناؤه على القرامطة بالمشرق خوف الافتضاح به وظهور الناس على أمرهم.

ومما يزيد تعريفاً بأمرهم خطبة أبي إبراهيم أحمد بن محمد ابن الوليد وهو من أيمّة الخوارج ألقاها في أحد المساجد بحقّ عبيد الله قال فيها: «اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بعبيد المدّعي الربوبيّة من دون الله، جاحداً نعمتك، كافراً بربوبيّتك فانصرنا اللهم عليه وأرحنا منه ومن دولته واصله جهنّم وساءت مصيراً».

ولما ولي معدّ الأمر من بعده ادّعى النبوّة وأذن المؤذن بذلك فوق صومعة القيروان بأمره، فضجّ المسلمون. فلما بلغه دخله الرعب وأرسل إلى الناس يهدّدهم إلى أن خرج إلى مصر فدخلها بالمنكر والبغي، ولم يمت حتى رأى بعينيه العبر.

وولي بعده نزار المكنّى بالمنصور، فحدث في أيّامه من سبّ الصحابة ما حدث ومات في مرحاض حمّام. ثم ولي بعده

الحاكم بأمر الله فأظهر من نحلتهم ما أظهر، فقد ادعى الألوهية وجعل رجلاً سمّاه بالهادي يدعو الناس إلى ذلك. وكان مما أحدث أنه بنى داراً وجعل لها أبواباً وطباقاً واتخذ فيها قيوداً وأغلالاً وسمّاها جهنم، فمن جنى جناية عنده قال لأعوانه: سيروا به إلى جهنّم. وهو أوّل من جهر بسبّ الصحابة رضي الله عنهم وأمر أن يكتب ذلك في الشوارع والجوامع، ثم أرسل داعياً إلى مكة للإعلان بذلك، فلما رقي المنبر وذكر ما ذكر اقتحم عليه بنو هذيل فقطعوه قطعة قطعة وكسروا المنبر وفتتوه حتى لم يجتمع منه شيء، ثم أرسل رجلاً خراسانياً من بني عمه فضرب الحجر الأسود بدبوس فقتل من حينه وأحرق بالنار. وأرسل إلى مدينة الرسول من ينبش القبر المطهّر، فسمع الناس صائحاً يقول: القبر الشريف ينبش، ففتشه الناس فوجدوه وأصحابه فقتلوهم شر قتلة.

وكتب إليه أحد دعاته سنة 410 [1020] وكان اسمه حمزة، لقبه فيه بالربوبية. فقرىء كتابه على رجال المملكة المصرية بحضرة الحاكم، قال فيه:

«الحمد لمولاي الحاكم وحده

«باسمك اللهم الحاكم بالحق ثم استرسل في الكتابة إلى أن قال: توكلت على إلآهي أمير المؤمنين جلّ ذكره وبه نستعين في جميع الأمور، ثم قال: وأمرني ربي بإسقاط ما لا يلزمكم اعتقاده من الأديان الماضية والشرائع الدارسة. فقام رجل تركي إلى حمزة فقتله فأظهر الحاكم كأنه هو الآمر له بذلك لكنه استمرّ في طغيانه حتى قتل هو وحماره وأهدر دمه.

ولما ولي الملقب بالمستنصر أرسل من كتب سبّ الصحابة في أستار الكعبة في ليلة ظلماء. فلما أصبح الناس وجدوا تلك الكتابة فضجّوا منها وأكثروا البكاء والنحيب، لسبّ أصحاب الرسول ﷺ والطعن في طهارتهم.

وقال عنهم ابن القطّان: «إنهم قوم من الرافضة يدّعون النسب إلى عليّ رضي الله عنه وأكثر اعتقاداتهم كفر».

2 ـ الدعوة الشيعية في المشرق

التعريف بهؤلاء الباطنية وبإسماعيل الذي ينتسبون إليه:

قلنا فيما تقدم إن مؤرخي الشيعة يقولون عنهم إنهم ملاحدة من غلاة الباطنية والتحقيق الذي نثبته نحن: أن محدثي هذا المذهب هم غلاة من شعوبيّة فارس وغيرهم تآمروا على تهديم كيان العرب الديني والسياسي، بعد أن عجزوا عن مكافحتهم بقوّة السلاح. وما عجز عنه السلاح لا يعجز عنه الكيد والتضليل وانتظام الدعايات، فقد رموا لتقويض الإسلام وإقامة دين جديد على أنقاضه سرّوه بإظهار الفكرة الشيعية والتحيّز لآل البيت ليموّهوا بذلك على هُبل المسلمين وحمقائهم وانتزعوا تقاليدهم وتعاليمهم من شتّى الأديان ليطابقوا بها أهواء كلّ قوم ملك العرب نواصيهم وحكموا أقطارهم، فجاءت نحلتهم خليطاً مشوّهاً من المجوسية والبرهمية والصابئة والوثنية واليهودية والنصرانية والمزدكية[6]. ولم يجرّدوها من شيء غير الإسلام، وأضافوا إلى

(6) انظر حول هذه المذاهب، عبد العزيز الثعالبي: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.

هذا الخليط ما أفادوه من تجاريب الهدم.

فقد كان حزب الشيعة يذهب إلى القول بإبطال عمل الصحابة رضوان الله عليهم، لأن الإمامة لا تنعقد بالانتخاب والاختيار بل بالنصّ والتعيين، وساقوها بالوصيّة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن بعده للحسن ثم الحسين ثم لابنه علي زين العابدين ومنه لابنه محمد الباقر ثم لابنه جعفر الصادق ثم إلى موسى الكاظم، ويذهبون في تسلسلها إلى الثاني عشر من أهل البيت وهم: علي الرضى، ومحمد التقي، وعلي النقي، فالحسين العسكري الزكي، وبعده ابن القائم المنتظر الذي اختفى في سامراء، وهم ما زالوا ينتظرونه ويرقبون رجوعه ويسمّونه الامام المهدي المنتظر، كما ينتظر اليهود المسيح والبراهمة كلنكي أوتار. والغريب أن اختفاء الإمام الثاني عشر كان أشبه ما يكون باختفاء الإلاه كريشنة عند البراهمة الذين ينتظرون خروجه في صورة كلنكي أوتار، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، شأن الضعفاء الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في تخليص أنفسهم من الإرهاق فيتّكلون على القوّات الغيبيّة أو الآلهة الذين يتجسّدون ويظهرون في صور الناس.

ولما كانت أهواء الباطنية لا تتمشى دائماً وأبداً مع النزعة الشيعية الإمامية، طابقوهم إلى الإمام السادس جعفر الصادق وخالفوهم في السابع وخلقوا لأنفسهم سابعاً آخر سمّوه إسماعيل. وزعموا أن إمامته نصّ عليها أبوه جعفر الصادق ولم ينصّ على موسى الكاظم الذي يقول به الإمامية الاثنا عشرية. مع أن

إسماعيل هذا مات صغيراً في حياة أبيه. ونسبوا له ولداً مجهولاً سمّوه محمد المكتوم، وقالوا عنه هو أوّل الأيمة المستورين. ولإثبات دعواهم زعموا أن أباه الذي مات قبل البلوغ تركه في بطن أمه. وقالوا أيضاً إن الإمام إذا لم تكن له شوكة يستتر، وإنما يكون دعاته ظاهرين إقامة للحجّة على الخلق. وهو لا يظهر للناس إلا حين تكون له الشوكة، لذلك سمّوا الذين يدعون إمامتهم من ولد هذا الإسماعيل: المستورين أو المكتومين (ومن هنا أيضاً جاءت كلمة الغوث المكتوم). وهم بزعمهم ثلاثة: محمد المكتوم ثم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب، ثم ظهر ابنه عبيد الله المهدي الذي قام بالدعوة إليه الدّاهية أبو عبدالله الصنعاني وأخوه أبو العباس كما تقدم. وهو عندهم من الأيمة الظاهرين ثم تلاه في الظهور بنوه من بعده إلى أن انقرضت دولتهم في مصر على يد بطل الإسلام العظيم صلاح الدين بن أيّوب رضي الله عنه.

العقيــدة الباطنيــة:

ومن أصول عقائـدهم، وهي بمثابـة الإيمان بـالله عند المسلمين أن الأرض لا تخلو أبداً من إمام ظاهر أو مستور وإلاّ هلكت وهلك من عليها، بحيث لا تحمل أنثى ولا تنبت حبة ولا تسقط ورقة ولا يتحرك جنين في رحم إلا عن أمره، لذلك يرون أنه لا بدّ من ظهور حجّته عند اختفائه. ويقولون إن مدار الأيمة على سبعة أعداد كعـدد أيام الأسبـوع والكواكب والسمـوات والأرضين، ويسمّونهم بالسبعيّة ليطابقوا بذلك أقوال الصابئة، ولهذا يزعمون أن النطقاء بالشرع سبعة وهم الرسل: آدم ونوح

وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإسماعيل بن جعفر الصادق، وهو سابع النطقاء ويجعلون بين كل اثنين من النطقاء سبعة أيمّة والذين يأتون بعد السابع يسمّونهم بالمستورين والمكتومين.

ويقولون إن لكلّ شريعة حقّة (كذا) سبعة يقتدى بهم وهم: الأوّل، الإمام وهو يتلقى عن الله مباشرة ويؤدي عنه.

والثاني، الحجّة وهو يؤدّي عن الإمام. والثالث وهو ذو المصّة (أي يمتصّ الحقائق عن الحجّة) والرابع،الأبواب أو الأقطاب وهم الدعاة. والخامس، الداعي الأكبر وهو أرفع مراتب المؤمنين. والسادس، الداعي المأذون وهو الذي يأخذ العهد عن الطالبين من أهل الظاهر ويدخلهم في ذمام الإمامة ويفتح لهم باب العلم والمعرفة، وهو الذي ارتفعت درجته في الدين لكن لم يؤذن له في الدعوة بل في الاحتجاج عند الناس. والسابع، المؤمن، وهو الذي يتبع الداعي، وقد أخذ عليه العهد وآمن وأيقن ودخل في الذمة.

وأوّل من ظهر بالدعوة إلى الباطنيّة أسقف بالرها يقال له ابن ديصان، وكان على مذهب البرديصانيّة[7] وهو يزعم أن الشمس أبو الحياة والقمر أمّها. ويقول إنه في أوّل كل شهر تخلع أمّ الحياة النور الذي هو لباسها وتدخل على أبي الحياة فيتغشاها فتلد أولاداً يمدّون العالم السفلي بالنموّ والزيادة.

(7) البرديصانية: مذهب في النصرانية ينسب إلى برديصان المولود سنة 170 بعد الميلاد، وقد بنى مذهبه على القول بوجود إلاهين اثنين: إلاه الخير وإلاه الشر، وقال عن المسيح ليس جوهراً أرضيّاً إنما هو جوهر سماوي وأنكر قيام الموتى، وقد ذاع مذهبه قبل الإسلام في جزيرة العرب (المؤلف).

ومن أركان الإيمان عند الباطنية الاعتقاد بأن لكلّ شيء من العبادات والتكاليف ظاهراً وباطناً وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ولا على من عرف الأيمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ولا حرم عليهم شيئاً. ويبيحون الزواج من ذوات المحارم. ويقولون عن المحرمات: إنما هي قيود وضعت للعامّة ساقطة عن الخاصّة.

دعـــاة الباطنيـــة:

وقد عكفت هذه الطائفة الهدّامة للحقّ والفضائل مدّة طويلة على تعليم دعاتها وتلقينهم أفانين الشعوذة والـدجل والتنجيم وجميع الأساليب للاستغواء والتضليل. حتى تعلّموا كيف يحتالون على كل قوم بما يطابق أهواءهم ثم يسيّرونهم إلى الآفاق لافتتان الناس وتضليلهم في أديانهم وعقائدهم. ومن هؤلاء، عبدالله بن ميمون القدّاح اليهودي وأبو عبدالله الشيعي وحمدان بن قرمط. فانتدبوا الأول إلى الدعوة في فارس والثاني إلى إفريقية والثالث إلى جزيرة العرب. وبهمّة هؤلاء الدعاة البواسل أقاموا لنحلتهم الخبيثة ثلاث دول: دولة الملاحدة في المشرق ودولة الباطنية في إفريقيّة ودولة القرامطة في البحرين. ولهم ألقاب يعرفون بها في كلّ بلد، فهم بأصفهان يعرفون بالخرّمية والكودية وبالـريّ: المزدكية والسنبادية، وبأذربيجان الذقولية والمحمِّرة، وبما وراء النهر: المبيضة وفي إفريقية: الباطنية وأهل التشريق.

ولما استقرّت الدولة الباطنية في مصر بعد انتقالها من المهدية بسبب يقظة الخوارج وانتباههم لها واستمكن لها السلطان في وادي النيـل رأت أن تقيم حكمها على قـواعـد نحلتهـا

وفلسفتها، فأسست على عهد الحاكم بأمر الله مدرسة عليا في القاهرة لتخريج العلماء والموظفين دعتها مدرسة الحكمة، وأبيح لكلّ إنسان الدخول فيها، وجعلت التعليم في هذه المدرسة مقسّماً على تسع رتب. ففي الرتبة الأولى يتعلم الطالب معنى مكتوماً لمتن القرآن. وبعد أن يؤدّي يميناً مقرّرة يرتقي إلى الرتبة الثانية وفيها يتلقى العلم عن معرفة الأيمّة القائمين من عند الله الذين هم مصدر لكلّ علم ومعرفة، وفي الرتبة الثالثة يتعلم عدد الأيمة السبعة وكذلك فلسفة هذا العدد وانطباقه على نظم الكائنات. وفي الرابعة يرتقي إلى تلقي العقائد السبعية ومفادها أنه منذ ابتداء العالم لم يوجد إلا سبعة إلآهيون شرعيون وهم الرسل السبعة المعروفون بالنطقاء الذين قدمنا ذكرهم وكيف أقاموا الشرائع على الفطرة الروحية. وفي الخامسة يتعلم وظيفة كلّ واحد من المساعدين للسبعة المستورين في شريعة الرسول الكبير وهم اثنا عشر رسولاً يتولون نشر الإيمان الحقيقي، وعدد الاثنا عشر هو أفضل الأعداد عندهم بعد السبعة. وفي السادسة يتلقى تمحيص السنن الإسلامية ويلقّنونه ضمن ذلك أن الشرائع الدينية يجب أن تكون خاضعة لناموس الشرائع العمومية والفلسفية، مبرهنين على ذلك بأقوال فلاسفة اليونان: أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ويعتبرونها أساساً صالحاً لكلّ التعاليم. وفي السابعة ينقل الطالب من المباحث الفلسفية التي تفهّم الأسرار. وفي الثامنة ينتقل من النظريات إلى التطبيقات وتنوير المدارك بعرض سموّ حياة الأنبياء والرسل وإثبات عدم الحاجة إلى الجنة والنار ونفي وجودهما على القطع، وبطلان جميع الأعمال، وأن ليس

عليها ثواب ولا عقاب لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر، وفي الرتبة التاسعة يتلقى الطالب قواعد الطاعة المطلقة والانقياد الأعمى لأوامر رؤسائه، واجتناب وحي الفطرة، وإن النجاة لا تحصل إلا بالممارسة والتلقين.

أثر هذه المدرسة السياسي والاجتماعي في ارتباك أحوال الشرق الإسلامي:

لا نريد أن نتعمّق في الاستنتاج، وهذه الطرق الصوفية المختلفة الشائعة في بلاد الإسلام ما هي إلا وشل من نبعة الباطنية. ويكفي لتفهّم روحيّتها تتبع الدور الذي قام به الداهية الحسن بن الصباح المعروف بشيخ الجبل في بلاد المشرق، وهو واحد من جملة الذين تخرّجوا فيها وتوزّعوا في الآفاق. فإنه لما أكمل تعليمه في مدرسة الحكمة ونال جائزته أواسط القرن الخامس للهجرة، سار إلى المشرق وأخذ وهو في طريقه يبث دعايته في كلّ مكان حلّ به، في حلب وبغداد وفارس. فكثر أتباعه وتوصّل بمعرفته وذكائه إلى تأسيس تلك الدولة المخيفة المعروفة في كتب التاريخ بدولة الملاحدة، فقد استولى على عقول الناس وأهوائهم بالختل والخدع، حتى وضع يده على قلعة أَلَمُوت في ولاية جيلان من بلاد فارس وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فجعلها مركزاً لدعايته المرعبة، وهو يزعم أنه يدعو الناس إلى الله وإلى الطريق المستقيم. ولقب نفسه بشيخ الجبل، حتى تسلط على عقول أتباعه وامتلك قلوبهم. وأصبح مخيفاً لمن جاوره من الدول. فإن السلطان باركيار أرسل إليه رسولاً يدعوه إلى الطاعة. فدعا ابن الصباح أمام الرسول رجلاً من أتباعه وقال

له: انتحر. ففعل وسقط مكانه يتخبّط في دمه. وقال لآخر: ارم نفسك من الحصن. فامتثل ووقع مهشماً على الأرض. عند ذلك التفت إلى الرسول وقال له: قل لمولاك عندي سبعون ألفاً بهذه الطاعة، فإذا كان يريد أن ألاقيه فعلت.

ومكث الحسن بن الصبّاح في قلعة ألمُوت 35 سنة يربّي الملاحدة على طرائقهم وأنظمتهم حتى صار مهاباً لا يدنو منه أحد. وقد قسّم أتباعه إلى ثلاثة أقسام: الدعاة والرّفاق والفدائيّون فالدّعاة كانت وظيفتهم إرشاد الناس إلى مذهبهم وتعاليمهم. والرفاق هم الذين اعتنقوا هذه النحلة وخضعوا لسلطانه المطلق عليهم. والفدائيّون هم الآلة الصمّاء التي يسيّرها كما يشاء لتنفيذ مآربه، دون أن يعصوا له في ذلك أمراً. وهم يؤخذون صغاراً ويوضعون في المنازل تحت نظارة الدعاة، وهؤلاء يلقّنونهم المبادىء ويبثّون فيهم أن سعادتهم في فداء أنفسهم لنصرة عقائدهم. وجعل عليهم جزاء أقلّ مخالفة أقسى عقوبة، وجزاء الطاعة الإقامة مدة معيّنة في جنّة الباطنيّة.

جنّة الباطنية أو فردوسهم الأرضي:

جنّة الباطنيّة عبارة عن سلسلة من الحدائق المنمّقة، جميلة التنسيق على هيئة الفردوس الذي وعد الله به المتّقين من عباده، غاية في الظرف وجمال الصناعة والنسق الأخاذ، محاطة بأفخم الأسوار، تتخلّلها القصور البديعة، ذات الزخرف والوشي والنقوش من الذهب الوهاج، تجلّلها الأزهار، ولها أنهار تجري من تحتها تترقرق فيها المياه وتجري فيها الأسماك على مختلف

الألوان والأشكال. وفوق أيكها تصدح الأطيار بمختلف النغمات. وفي داخل القصور قاعات منمّقة مزيّنة بأفخر الطنافس والمفروشات. ومن حولها المقاعد والأرائك، نثرت فيها نفائس الأواني من الذهب والفضة. تتخطر فيها الجواري الحسان والغلمان المقرطقون، تزيّنهم الحلى وأكسية الديباج. يطرب فيها المغنّون والمغنّيات بجميع الألحان. ومن وراء ذلك أنواع المغريات من مفترش ومأكول ومشروب ومشموم.

أعدّ ذلك كلّه لمن أبلى جهده في الطاعة وأظهر استعداده لتنفيذ الرغبات، فإن من رضي عنه شيخ الجبل يدعوه إلى مائدته لكي يعلمه بأنه سيكافئه على صدق الطاعة بإرساله إلى الجنّة، لينعم هناك ويتمتع بأطاييب الحياة. ثم يأمر سرّاً أن يناولوه مخدّراً يذهب حواسّه وشعوره. ثم يأمر خاصته بنقله إلى تلك الجنة، فإذا استيقظ وجد نفسه في فردوس لا يبلى نعيمه، يرى فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. كلّ شيء له، وكلّ شيء طوع يمينه وإشارته. فينال منها كلّ ما اشتهته نفسه، ويمكث هناك غارقاً في سكرته يلتذّ بجميع حواسّه، حتى إذا انتهت الأيام المقرّرة لاستمتاعه، واستكمل جميع حظوظه، يسقونه جرعة ثانية من المخدّر ثم يردّونه إلى مكانه الأوّل من مجلس الرئيس. فينشقونه منبّهاً، وعندما يستيقظ يكون موقناً بأنه أمضى أيّاماً في جنّة الخلد. فيخرج إلى رفقائه وهو يقصّ عليهم ما رآه وما سمعه وما استمتع به يقظة لا مناماً. فيشوّقهم جميعاً إلى الفوز بهذا الجزاء الأوفى الذي أُعِدّ لمجازاتهم في الحياة الدنيا، فيزدادون يقيناً وإيماناً بما هم عليه.

ولشيخ الجبل طريقة في اختيار قابليّة الطلبة للطاعة، وهي تكليفهم بما لا يحتمل، فإن امتثلوا نظر في ميولهم فيأتيهم من الناحية التي تستهويهم، فمن كان ميّالاً منهم للزهد والقناعة زيّن له ذلك وذمّ له حبّ الدنيا. ومن كان خليعاً مستهتراً شجّعه على المجون ورغّبه في الشهوات وقبّح له النسك والفضيلة. وإن وجد بينهم إمّعا[8] ليست فيه قابلية للتطوّر، برم به وأقصاه عن حضيرة الأسرار.

ومدار التعاليم التي تلقى على الناجحين، هو صرفهم عن الإيمان بالدين وإقناعهم بأن لا شيء من التكاليف صحيحاً، وكل محرّم حلال، معاكسة للنفس، وأن الروح الأعلى يحلّ في الرئيس ويلهمه، وأن تعاليمه آتية من عند الله. وبعد استئناس الطالب بهذه التعاليم ينقل إلى رتبة التشكيك، وذلك بأن تعرض عليه متشابهات القرآن ويقنعونه بعرضها بأن فيه متناقضات. فإذا تلقى ذلك رفعوه إلى مرتبةالخلوّ وهي: إسقاط جميع التكاليف، وحمل النصوص على غيرما يراد منها وتأويل الأحكام الشرعية بما يطابق ضلالتهم، فتستحكم فيهم الإباحية والشهوات. ويزيّنون لهم أن التكليف الصحيح هو العمل بباطن الشريعة لا بظاهرها. وأن ظاهرها ما هو إلا تعذيب وحرمان.

فذلكة في تاريخ الملاحدة السياسي، متمّمة للموضوع:

ذكر المؤرخون أن الملاحدة استولوا على قلاع كثيرة في

(8) الإمّع هو التابع لكلّ أحد على رأيه والموافق في كل الأحوال.

بلاد المشرق عدا قلعة أَلَمُوت التي اتخذوها عاصمة لهم، منها قلعة أصبهان التي بناها ملك شاه وبعض قاهستان وزوزال ولاين وتون وقلعة في راسمنكوه الغربية من أبهر وقلعة خالنحان وقلعة استوناوند وقلعة أردهن وكركوزة وقلعة الناظر وقلعة الطنبور وقلعة أفلادخان. وهذه القلاع موجودة ما بين فارس وخوزستان. وبقي أمرهم ظاهراً بالرغم من تألّب سلاطين المسلمين المجاورين لهم عليهم، إلى أن هلك الطاغية الحسن بن الصباح سنة 518[1125] وعمره يومئذ تسعون سنة. وبقي خلفاؤه إلى أيام التتار. فأمر أبو نصر أحمد بن الفضل وزير السلطان سنغر سنة 520[1127] بغزوهم في جميع معاقلهم واستئصال شأفتهم أينما كانوا، ونهب أموالهم وسبي نسائهم وإراقة دمائهم، لوقاية البلاد من شرّهم وفسادهم. فوجّه لكل بلد لهم جيشاً. وبسبب هذه الحملة انكسرت شوكتهم في فارس وبقيت فتنتهم مستفحلة بالشام. وكان القائم بأمرهم فيها بهرام ابن أخت الأسد آبادي، فكان يتردّد على البلاد ويطغى على العباد، إلّا أنه كان يخفي نفسه عن الناس فلا يُعرَف. ولما دخل حلب، داخل إيلغازي صاحبها، وأراد إيلغازي أن يتقوّى بجموعه لخوف الناس من شرّهم. لأنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم. وأشار إيلغازي على طغتكين[9] صاحب دمشق أن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه. فأظهر نفسه وأعلن دعوته وكثر أتباعه وأعانه الوزير أبوطاهر بن سعد المرغناني، قصد الاعتضاد به على ما يريده. فعظم شرّه واستفحل بلاؤه حتى كاد يملك المدينة. إلا أنه رأى من أهل

(9) استولى آل طغتكين على دمشق من سنة 497 إلى سنة 549.

دمشق انحرافاً عنه وصلابة في دينهم. فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو وأتباعه. فأشار الوزير بتسلميه بانياس. فلما صار إليها واجتمع إليه رهطه من كل مكان، عظم الخطب على المسلمين واشتدّ الأمر على العلماء وأهل الصلاح والدين، وبالأخصّ أهل السنة والجماعة، ومنكري البدع. لكنّهم لم يقدروا أن يعلنوا استنكارهم خوفاً من شرّهم وفتكهم.

ثم فارق بهرام دمشق وأقام بها خليفة لنفسه، يدعو الناس إلى فتنته، حتى كثر أتباعه وانتشروا. ولم يتبعه إلا الدعارون والعيارون ومن إلى هؤلاء من السقاط. وملك بهم عدة حصون من الجبال منها: القدموس اشتروه من صاحبه ابن عمران سنة 527[1133]. وأقاموا به وجعلوا يحاربون من جاورهم من المسلمين وغيرهم. وكانت بوادي التيم مذاهب مختلفة، نصرانية ومجوسية ودرزية[(1)]. وكان عليهم رجلٌ اسمه الضحاك ومعه

(1) نسبة إلى رجل أعجمي يعرف بالدرزي وهو محمد بن إسماعيل من دعاة الباطنية قدم إلى مصر أيام الحاكم بأمر الله وهو من القائلين بالتناسخ. فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم انتقلت منه إلى ابنه الحاكم. فبقي عنده وقربه وفوّض الأمور إليه وبلغ منه أعلى المراتب. بحيث أن الوزراء والقوّاد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده. وكان قصد الحاكم أن ينقادوا إلى الدرزي المذكور فيطيعونه. فأظهر الدّرزي الكتاب الذي ألفه وقرأه بجامع القاهرة، فثار الناس عليه وقصدوا قتله فهرب منهم، وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية، وبعث إليه في السّر مالاً وقال له: اخرج إلى الشام وانشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد. فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله ثعلبة. فقرأ الكتاب إلى أهله واستمالهم إلى الحاكم وأعطاهم المال وأقرّ في نفوسهم مبدأ، =

حامية عدّتها ألف فارس، فسار إليهم بهرام وحصرهم. فخرج إليه الضحاك يقاتله، فقتل عدداً كثيراً من رجاله ثم قتل بهرام، فانهزم بقيّة من كانوا معه إلى بانياس. وكان بهرام قد استخلف عليها رجلاً منهم اسمه إسماعيل فقام مقامه وجمع شمل الباقين ونشر دعوتهم في البلاد وساعده المزدقاني فأقام في دمشق عوض بهرام رجلاً اسمه أبو الوفاء، فقوي أمره وعلا ذكره وكثر شرّ أتباعه. وكان على دمشق كالمتولّي عليها، وحكم بها أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك بوري بن طغتكين. لذلك لم يتهيّب المزدقاني من مراسلة الصليبيّين سرّاً[11] والاتفاق معهم على أن يسلّم لهم دمشق نكاية بالمسلمين، لقاء أن يسلّموا له مدينة صور. وتقرّر بينهم الميعاد. واتفق المزدقاني مع الباطنية أن يحتاطوا على أبواب الجوامع فلا يمكّنون أحداً من الخروج، حتى يتمّ تمليكها للصليبيّين. وهي خيانة فظيعة لا يقدم عليها أحد غير هؤلاء الملاحدة الذين لا دين لهم ولا وطن. فبلغ خبرهم تاج الملوك فاستدعى إليه المزدقاني، ولما خلا به قتله وعلّق رأسه على باب القلعة. وأمر المنادين في البلدة أن ينادوا بقتل كلّ من يجدونه من الباطنية، فقطعت رقابهم جميعاً جزاء خيانتهم الشنيعة. وبلغ عدد من قتل منهم في ذلك اليوم زهاء 6000 نفس. وكانت الواقعة في رمضان 523[1130]. فخاف

= التناسخ وأباح لهم شرب الخمر والزناء وأخذ مال من خالفهم في عقائدهم وإباحة دمه. وأقام عندهم يبيح لهم المحظورات إلى أن مات (المؤلف).

(11) انظر، محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 72.

إسماعيل عاقبة أمره وهرب إلى بلاد الإفرنج بعد أن سلم لهم قلعة بانياس وارتكب بذلك أفظع خيانة للمسلمين الذين آووه في بلادهم.

انتقال الباطنية إلى خراسان والسعي فيها بالفساد والإفساد:

لما أخفقت الحركة الباطنية بالشام أخذوا يلمّون شعثهم بقاهستان حتى اجتمع لهم في سنة 549[1155] نحو 7000 وقصدوا صوب خراسان منتهزين فرصة اشتغال جنودها بالغزو، وحطّوا على صواف فالتقوا بالأمير فرخشاه بن محمود الكاساني وهو في جماعة من خدمه وحشمه. فلما علم أنه لا طاقة له بهم سيّر رسولاً إلى محمد أُنَرْ وهو من كبار أمراء خراسان وطلب منه أن يقدم عليه بعساكره لقتال الباطنية فسار إليه من ساعته وطالت بينهم الحروب حتى هزمهم، وقتل كثيراً من كبرائهم وأخلى قلاعهم وحصونهم.

وفي سنة 551[1157] عاد الباطنية وتجمّعوا في طبس من أرض خراسان فأحدثوا بها موقعة عظيمة وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان وسلبوا أموالهم وسبوا عيالهم. وفي سنة 552[1158] جمع شاه مزندران رستم بن علي بن شهريار عسكره، وخرج بهم دون أن يعلم أحد الجهة التي يقصدها وسلك طريق المضائق، وهو يجدّ في السير إلى أن وصل إلى قلعة الموت فأغار عليها وأحرق ما صادفه من قوى الباطنية، وأمعن القتل في رجالهم، وسبي نسائهم، واسترقاق أولادهم. وباعهم في الأسـواق بيع السلع. فانكمشوا وأظهروا الطاعة. لكنهم لم يلبثوا أن جمعوا أنفسهم في سنة 553[1159] فاجتمع منهم نحو 7000 ونزلوا على

نـواحي قاهستـان فنهبوا أمـوال التركستـانيّين، وسبوا نسـاءهم وذراريهم، وأحرقوا ما عجزوا عن حمله، وكان التركستـانيّون غائبين عن بيوتهم. فلما عادوا ورأوا ما نزل بهم من الملاحدة، خرجوا جادّين في أثرهم حتى أدركوهم وهم يقتسمون الغنائم فكبّروا وحملوا عليهم حملة واحدة، إلى أن أفنوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلاّ تسعة رجال لاذوا بالفرار.

وبعد هذه الواقعة خفتت أنفاسهم ولاذوا بالسكون، حتى أنسوا بانقطاع الطلب عنهم، فأخذوا يجتمعون في خراسان. فلما أحسّ منهم بذلك الأمير محمد بن أُنَرْ أغار عليهم وهم غافلون، فأحدث فيهم مقتلة عظيمة وأسر وسبى وغنم أموالهم. وانقطع بعد هذه الواقعة خبرهم، إلى أن ظهروا في سنة 560 [1165] قرب قزوين فبنوا لهم قرية هناك دون أن يتعرض لهم أحد. ولمّا التأم شملهم بها تقدموا قزوين وحاصروها فقاتلهم أهلها أشدّ قتال عرفوه، فاستسلموا لهم واختفت حركتهم.

وفي سنة 600[1204] وصل شهاب الدين الغوري سلطان بلاد الغور رسول من مقدم الباطنية بخراسان يدعوه إلى الطاعة. فأمر عامله على بلاد الغور علاء الدين محمد بن علي بالمسير إليهم ومناجزتهم. فسار إليهم في عسكر جمّ. ولما وصل إلى قاهستان انضمّ إليه أمير زوزون وخرج معه لقتالهم. فنزلوا على مدينة قاين وهي من عواصم الملاحدة وحصروها وقتلوا عاملهم عليها شهاب الدين. ولما بلغ خبره إلى أهلها صـالحوا على أنفسهم وقدموا لسلطان الغور 60 000 دينار، بعـد أن التزمـوا

بالطاعة والتبرّي من نحلتهم الخبيثة وتظاهروا بالرجوع إلى الإسلام، فارتحل عنهم.

وفي سنة 602[1206] سار يدقمش إلى قرى الباطنية المجاورة لقزوين فأحدث فيهم مقتلة عظيمة ونهب وسبى، ثم انتقل منها إلى معاقلهم، وفتح منها خمس قلاع كانوا حصنوها، ثم عزم على حصار قلعة الموت واستئصالهم فيها. ولكن حدث له ما اضطّره إلى العدول عنها وهو يصرّ على الرجوع إليها. فخافوا بأسه وأظهروا التراجع وأعلنوا في سنة 608[1212] التوبة وأشهروا إسلامهم وأمسكوا عن إتيان المناكر. وجعلوا يجهرون بالأذان ويقيمون الصلاة وتنادوا بذلك في البلدان. وأرسل مقدمهم رسولاً إلى الخليفة وغيره من ملوك المسلمين يخبرهم بذلك، وسيّر والدته إلى الحجّ فأكرمتها بغداد إكراماً عظيماً، دلّ على طيبة نفوس المسلمين وسذاجتهم وسهولة انخداعهم لكلّ من يتظاهر بالرجوع إليهم، ولو كان من ألدّ أعدائهم وأشدّهم عليهم.

إصرار الباطنية على الكفر والإلحاد والخيانة:

• لم يكن الباطنيّون جادّين فيما أظهروا الإقلاع عنه، فإنهم لمّا أحسّوا في سنة 624[1228] بضعف مراقبة المسلمين لهم وانصرافهم عن إذايتهم عادوا إلى شرورهم وخباثثهم فقتلوا أمير كنجة وهو من أمراء جلال الدين الغوري. فعظم ذلك عليه فتجهّز إليهم وحاربهم في عقر ديارهم على طولها من كركودة في خراسان إلى قلعة الموت في جيلان، وكسرهم شركسرة، وضرب عليهم الجزية فأدّوها صاغرين وقبعوا في بيوتهم إلى أن ظهرالتتار

سنة 628[1232]، فرفعوا رؤوسهم واستقدموهم إلى غزو البلاد ووعدوهم بالمساعدة، وأقنعوهم بضعف شأن جلال الدين الغوري. ثم صاحبوهم ودلّوهم على المسالك والدروب حتى فتحوا البلاد بدلالتهم، غير أن التتار لم يلبثوا حتى وقفوا على جليّة خبرهم فانتقموا منهم شر انتقام. فقد خرج السلطان هلاكو من بغداد بعد أن طوى الدولة العباسية في جيش جرّار سنة 658[1260] إلى بلدانهم وخرّب قلاعهم، وقتل مقدمهم ركن الدين خاكان وأزال فتنتهم من فارس وخراسان والديلم، بعد أن استأصلهم. ولما بلغت أخبارهم الملك الظاهر بيبرس وما فعلوه بإيران، زحف إلى قلاعهم بالشام، فخرب كثيراً منها وأحدث فيهم مقتلة عظيمة لقطع دابر جرثومتهم الخبيثة من بلاد الشام والجزيرة.

وما زالت ملوك المسلمين منذ وقفوا على خيانتهم العظمى التي ارتكبوها لمساعدة الصليبيّين على امتلاك أرض الشام، ودعوة التتار من مواطنهم إلى اكتساح بلاد المسلمين في المشرق، يتعقّبون هذه الجراثيم الخبيثة المقترفة في أنحاء الأرض ويقتلونهم حيثما وجدوهم إلى أن أوهنوهم ودكّوا بأسهم، وسقطت ممالكهم التي أقاموها بالمكر والحيلة. وكانت ممتدّة من خراسان إلى سواحل البحر المتوسط ودام تملّكهم فيها 150 سنة.

3 ـ حركة القرامطة

ظهور القرامطة وأوّل من قام بالدعوة إلى مذهبهم:

ذكرنا طائفة صالحة عن الباطنية والملاحدة وأثرهما في

تهديم العروبة والإسلام، وقد لا يجمل بنا إهمال القرامطة، وهم ليسوا أقلّ فتكاً بهما من غيرهم.

فقد كان ابتداء أمرهم سنة 278[892]، وذلك بقدوم رجل مجهول من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة وإقامته بموضع منه يقال له النهرين وهو يظهر الزهد والتقشف ورقّة الحال ويشتغل بسعف الخوص ويأكل من كسبه، ويكثر من الصلاة. فأقام على ذلك مدة فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس 50 صلاة كلّ يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه. ثم أعلمه أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول. فلم يزل على ذلك يقعد إليه الجماعة تلو الجماعة فيخبرهم من ذلك بما يعلق بقلوبهم. وكان في القرية بقّال يألفه وبالقرب من البقال نخل اشترى قوم من التجار ثمره عند جنيه. واتخذوا حظيرة جمعوا فيها ما صرموا منه[12]. وجاؤوا إلى البقال يسألونه أن يحضر لهم رجلاً يحفظ عليهم ما جمعوا. فأومى لهم إلى هذا الرجل. وقال: إن أجابكم إلى حفظ ثماركم فإنه بحيث تحبّون. فناظروه على ذلك، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة. فكان يحفظ لهم ويصلّي أكثر نهاره ويصوم، وعند إفطاره يأخذ من البقال رطل تمر، فيفطر عليه، ويجمع نواه. فلما حمل التجار مالهم، صاروا إلى البقال فحاسبوا أجيرهم هذا على أجرته ودفعوها إليه، فحاسب الأجير البقال على ما أخذ منه من التمر وحطّ من ذلك ثمن النوى. فوثبوا عليه يضربونه، وقالوا: ألم ترض أن أكلت تمرنا حتى بعت النوى؟

(12) صَرَم النخل والشجر، جزّهما.

فقال لهم البقال: لا تفعلوا فإنّه لم يمسّ تمركم، وقصّ عليهم قصّته، فندموا على ضربهم إياه، وسألوه أن يجعلهم في حلّ مما صنعوا به، ففعل. وازداد بذلك نبلاً عند أهل التربة زيادة عما وقفوا عليه من زهده وورعه وتقواه.

ثم مرض بعد ذلك فمكث مطروحاً على الطريق. وكان في القرية رجل أجير يحمل على أثوار له يسمّى حمدان، أحمر العينين، شديدة حمرتهما، يسميه أهل القرية كرميتة (وهو بلسان النبط: أحمر العينين)، فكلمه البقال أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويوصي أهله بالإشراف عليه والعناية به، ففعل. وأقام عنده حتى برأ ثم كان يأوي إلى منزله. وصار يدعو أهل القرية لأمره ويصف لهم مذهبه، فأجابه أهل تلك القرية والنواحي المجاورة لها إلى ما دعاهم إليه. وكان يأخذ على كلّ رجل يجيب دعوته ديناراً، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام.

ولما انتشرت دعوته بين الناس اختار منهم اثني عشر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس إلى طريقته. وقال لهم: أنتم كحواري عيسى بن مريم. فاشتغل الفلاحون من أهل تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الخمسين صلاة التي ذكر لهم أنها مفروضة عليهم.

وكانت في تلك الناحية ضياع للهيصم، فوقف على تقصير عماله في العمارة والزراعة، فسأل عن ذلك فأخبر أن إنساناً طرأ عليهم فأظهر لهم مذهباً من الدين، وأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة، فشغلوا بها عن أعمالهم،

فحلف أنه يقتله. فوجه في طلبه، فأُخِذَ وجيء به إليه. فسأله عن أمره، فأخبره بقصته، فأمر به فحبس في بيت وأقفل عليه الباب ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل عنه بالشرب. وسمعت إحدى جواريه بقصة هذا السجين الصالح فرقّت له. فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته خلسة وفتحت الباب وأخرجته وأقفلت الباب وردّت المفتاح إلى موضعه من الوسادة. فلما أصبح الهيصم جاء الناس يستشفونه في سجينه، فدعا بالمفتاح. ولما فتح الباب لم يجدوه وشاع الخبر بذلك بين أهل الناحية، ففتنوا به وقالوا: رجع إلى السماء. فكان عندهم آية من آيات الله دعموا بها أوهامهم وأباطيلهم.

ثم ظهر في موضع آخر ولقيه جماعة ممن يعرفونه، فسألوه عن خبره. فقال لهم: لا يمكن لأحد أن يعرض لي بسوء ولا يقدر على ذلك منّي. فعظم في أعينهم، لكنه خاف على نفسه، فخرج إلى ناحية الشام ودعا باسم الرجل الذي كان في منزله: قرمط[13]. وفشا أمره بسواد الكوفة، ثم كثر أتباعه. فتقلد زعامتهم أحمد بن محمد الطائي، فوظف على كل رجل ديناراً في كلّ سنة. وجبى من ذلك مالاً جليلاً حتى خافهم الناس ورفع قوم من الكوفة أمرهم إلى السلطان وقالوا: إن هؤلاء الرهط أحدثوا ديناً جديداً غير الإسلام، وأنهم يرون استعمال السيف على رقاب أمّة محمد، إلا من بايعهم على دينهم. فلم يلتفت إليهم أحد ولم يسمع منهم قول.

(13) أصله «كرميتة» ثم خفف في النطق فقيل «كرمت» ثم صقله الاستعمال فأبدلت الكاف قافاً والتاء طاء، فقيل «قرمط» (المؤلف).

نحلة القرامطة وكتابهم الديني:

يقول مشرع مذهب القرامطة الفرج بن عثمان من قرية نصرانة، وهو يرمز إلى المثل الذي يدعو إليه بالمسيح، هو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. يريد بذلك إثبات القول بتناسخ الأرواح أو الاتحاد والحلول.

وفي ما يذكره من هرائه: أن المسيح تصوّر له في جسم إنسان. وقال له: إنك الداعية وإنك الحجّة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك روح القدس وإنك يحيى بن زكرياء. ثم ادّعى أنه عرفه الصلاة. وهي أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها. وأن الأذان هو أن يقول المؤذن: الله أكبر (ثلاث مرات)، أشهد أن لا إله إلا الله (مرّتان)، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله.

أما الصلاة فهي أن يقرأ المصلّي في كل ركعة سورة الاستفتاح من الكتاب المنزل بزعمه على أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله وهي: «الحمد للّه بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلّة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرّفوا عبادي سبيلي، اتقوني يا أولي الألباب. أنا الذي لا أُسْأَل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، أنا الذي أبلو عبادي

وأمتحن خلقي. فمن صبر على بلائي ومحسنتي واختباري، ألقيته في جنّتي وأخلدته في نعمتي. ومن زال عن أمري، وكذّب رسلي، أخلدته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي، وأظهرت أمري على ألسنة رسلي. أنا الذي لم يعل عليّ جبّار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصرّ على أمره، ودام على جهالته، وقال مع القائلين: لن نبرح عليه عاكفين، وبه مؤمنين، أولئك هم الكافرون». ثم يركع ويقول في ركوعه مرّتين: سبحان ربّي ربّ العزّة تعالى عمّا يصف الظالمون. ويقول في السجود: الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم. وأما القبلة والحج عندهم، فإلى بيت المقدس. ويوم الجمعة عندهم هو يوم الإثنين لا يعمل فيه شيء. والصوم يومان في السنة وهما: يوم المهرجان ويوم النوروز. والنبيذ حرام والخمر حلال. والغسل من الجنابة غير لازم، يكفي عنه الوضوء كوضوء الصلاة.

ومن شرائعهم وجوب قتل كل من يحاربهم، ومن لم يحاربهم وخالفهم تؤخذ منه الجزية. ويحرمون أكل لحوم كلّ ذي ناب وكلّ ذي مخلب.

ويذكر المؤرخون أن قرمطاً صار إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب ثورة الزنج، ولقيه وقال له: إني على مذهب وورائي مائة ألف سيف فناظرني، فإن اتفقنا على المذهب ملت بمن معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك. وإنما شرط عليه الأمان بأمنه. ثم تناظرا إلى الظهر، فتبيّن له في آخر المناظرة أنهما على خلاف في الأمر، ولما قام صاحب الزنج إلى الصلاة تسلّل قرمط ومضى إلى سواد الكوفة. وكان من أمره ما تقدم. واستمرّ أمر

القرامطة يجري تحت طيّ الخفاء إلى يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة 284 [898]، فوجّه كرامة بن حرّ من الكوفة بقوم مقيّدين، ذكر أنهم من القرامطة، وعند استجوابهم، أقروا على أبي هاشم بن صرفة الكاتب أنه معهم وأنه كان يراسلهم وأنه أحد رؤسائهم فقبض عليه وسجن في حبس المطامير.

أفاعيل القرامطة في المسلمين ونكايتهم بهم:

وفي سنة 286[900]، ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنّابي[14] بالبحرين. وكان كيّالاً بالبصرة. فاجتمع إليه جماعة من القرامطة والأعراب. وكان ظهوره في أول السنة، وكثر أصحابه، وفي جمادى الآخرة قوي شأنه، فقتل من حوله من أهل القرى. ثم صار إلى القطيف ففتك بمن بها من المسلمين. وذكر أنه يريد التوجّه إلى البصرة. فكتب أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي معاون والي البصرة بخبره إلى السلطان. فأمره المعتضد[15] ببناء سور على المدينة لمنع الغارة عليها وكان هذا أول العهد بثورة القرامطة وجنوحهم إلى القتال.

وفي سنة 287[901] خرج العباس بن عمر الغنوي بجند من البصرة لمناجزة الجنّابي ومن انضوى تحت لوائه من القرامطة، فلقيتهم طلائعه. فخلف العباس سواد جنوده وسار نحوهم. فلقي أبا سعيد ومن معه مساء، فتناوشوا، ثم حجز بينهم الليل، فانصرف كلّ فريق منهم إلى موضعه. ولما أوى العبّاس إلى مضاربه تخلّى عنه أعراب بني ضبة، وكانوا زهاء 300 فارس ألووا

(14) جنّابة: قرية بالأهواز ينسب إليها هذا الطاغية الذي أفحش في قتل المسلمين وعاث ببلدانهم (المؤلف).

(15) مدة خلافة المعتضد: 279-289 هـ/ 892-902 م.

أعنّة خيولهم إلى البصرة. ثم تبعتهم المطوّعة، وتركوا العباس في قلّة.

فلما أصبح غزا القرامطة فاقتتلوا قتالاً شديداً. وحمل نجاح صاحب ميسرة العباس في ثلة من جنوده كانوا زهاء مائة رجل على ميمنة أبي سعيد، فوغلوا فيهم، فقتل هو ومن معه. وتشجّع بذلك الجنّابي، فحمل هو وأصحابه على جند العباس حتى هزموهم. فاستأسر العباس ومن بقي معه. فلما كان من غد يوم الواقعة أحضر الجنابي الأسرى بين يديه وكانوا 700، فقتلهم جميعاً وأحرق جثثهم، وذلك في آخر رجب السنة.

وبعد هذه الواقعة قصد الجنّابي مجر، فدخلها عنوة وأمن أهلها على أنفسهم. وتخوّف أهل البصرة من هجومه على مدينتهم. ثم دعا الجنابي العباس، فقال له: أتحب أن أطلقك. قال: نعم. فقال: امض لسبيلك، وعرّف الذي وجّه بك إليّ ما رأيت. وحمله على رواحل وضمّ إليه. فساروا به حتى بلغوا إلى بعض السواحل فصادف به مركباً فحمله إلى الأبلّة ومنها وصل إلى بغداد. وقصّ على المعتضد ما كان من أمر القرامطة. وفي 12 خلت من شوال السنة ورد الخبر أن القرامطة من أهل جنبلاء من أرض السواد وثبوا إليهم وقتلوا جماعة من المسلمين فيهم كثير من النسوان والصبيان وأحرقوا المنازل والدكاكين، فاشتد ذلك على المعتضد.

وفي سنة 289[902] انتشر القرامطة بسواد الكوفة وكانوا بزعامة رجل منهم يقال له ابن أبي الفوارس، فهاجمتهم عساكر المعتضد فقتلت منهم وأسرت خلقاً كثيراً. فحمل المأسورون إلى بغداد وعذّبوا عذاباً شديداً ثم صلبوهم. وأما ابن أبي الفوارس

زعيمهم المذكور فقد قلعت أضراسه ثم شدّ في إحدى يديه بكرة وفي الأخرى صخرة ورفعت البكرة ولم يزل على حاله إلى وقت الظهر. فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه. وبالرغم من ذلك، ففي أواخر هذه السنة خرج يحيى بن زكرويه داعية القرامطة وجمع جموعاً كثيرة من الأعراب فكانت بينه وبين طغج بن جف نائب هارون بن خمارويه على الشام وقائع عديدة كانوا يتعاورون فيها الانتصار.

وفي المحرم من سنة 290[903]، قصد يحيى بن زكرويه القرمطي الرقّة في جمع كثير. فخرجت إليه العساكر السلطانية، فقتل منهم جماعة وانهزم الباقون. فبعث طغج جيشاً مع خادمه بشير لمناجزة القرامطة. فتقدموا إليهم ولم يلبثوا أن قتل بشير وانهزم الجيش. فجهز المكتفي[16] أبا الأغرّ وأخرجه في 10000 مقاتل لقتال القرامطة. فسار هؤلاء إلى دمشق وحاصروها وكان عليها يومئذ طغج بن جف فعجز عن مقاومتهم، بعد أن جندل منهم خلقاً كثيراً، منهم قائدهم يحيى بن زكرويه. فأقاموا عليهم أخاه الحسين. ولما بلغ المكتفي ذلك بعث إلى عساكره يستحثهم للقائهم. فتوجه إليهم أبو الأغرّ فانهزم أمامهم في الصدمة الأولى وقتل غالب جنده. وتبعهم القرامطة، فقاتله الحلبيّون قتالاً مشهوداً. وفي سنة 291 [904] قتل الحسين بن زكرويه في موقعة عظيمة مع الجنود السلطانية وكان يعرف بصاحب الشامة. وفي سنة 292[905] وصل بدر الحمامي إلى بغداد مع عساكره الذين جهزتهم مصر لقتال القرامطة. فتلقاه أكابر

(16) تولّى المكتفي الخلافة سنة 289 هـ. خلفاً للمعتضد وذلك إلى سنة 295 (902-908 م).

الدولة بالحفل وخلع عليه الخليفة خلعاً سنيّة تقديراً لمكـانته

وفي سنة 293[906] سار القرامطة إلى دمشق وحاربوا أهلها فتغلّبوا عليها ودخلوها وقتلوا عدداً لا يحصى من الرجال والنساء، ثم نهبوها وانصرفوا إلى البادية.

وفي سنة 294[907] خرج زكرويه القرمطي من بلاد القطيف لمنع الطرق عن الحجّاج، فوافى قوافلهم وقاتلهم حتى ظفر بهم وأوقـع في الحجـاج وأخـذ جميـع مـا كـان معهم وكـانت قيمتـة 6000.000 دينـار. وبـلغ عـدد الـذين قـتلوا مـن الحجّاج 20.000. وجاء الخبر بذلك إلى بغداد فعظم الأمر على المكتفي وعلى جميع المسلمين. ووقع النوح والبكاء في كلّ مكان. وانتدب الخليفة جيشاً لملاحقة القرامطة. ولما بلغ زكرويه خبر خروج الجيش مال إلى زبالة فعسكر بها. وكانت القافلة الثالثة من الحجّاج قد تأخرت وفيها معظم الحجاج. فسار زكرويه للقائها وكان فيها أكابر السلطنة ومعهم الأموال والخزائن وشمسية الخلافة. فوصلوا إلى فيد وبلغهم ما كان من أمر القرامطة. فأقاموا ينتظرون عساكر الخليفة ولما أعياهم الانتظار، ساروا فالتقوا بالأعداء على الهبير فقاتلوهم يوماً كاملاً إلى الليل، ثم عاودوهم في اليوم الثاني، وقد أجهـدهم العطش فـاستسلموا للأعداء، فوضعوا فيهم السيف ولم يفلت منهم إلا اليسير وأخذوا الحريم والأموال. فسيّر المكتفي لقتالهم القـائد وصيفـاً ومعه الجيوش، وكتب إلى شيبان أن يوافيه بجنوده على الطريق، فوافاه في 22000 فارس. ثم ساروا جميعاً لمناجزة البغاة حتى التقوا بهم يوم السبت رابع شهر ربيع الأوّل. فاقتتلوا اقتتالاً عنيفاً إلى أن

حجز بينهم الليل وأصبحوا في اليوم الثاني على القتال. فنصر الله وصيفاً وقتل عامة القرامطة وخلص من كان معهم من النساء والأموال. وخلص بعض الجند إلى زكرويه وهو مُوَلٍّ، فضربه على قفاه ثم أسره كما أسر خليفته وخواصّه وابنه وكاتبه وأقاربه. فعاش زكرويه خمسة أيام ومات من الضربة، فشقّوا بطنه وأخرجوا أمعاءه وحمل إلى بغداد وقتل بقية الأسرى وأحرقت جثثهم وبقي من نجا منهم تائهاً في البرّية وماتوا عطشاً.

وفي سنة 301[914] قتل الحسن بن بهرام الصقلي الخادم أبا سعيد الجنابي القرمطي، بعد أن استغوى خلقاً من غلف[17] الأعراب، وغلب على القطيف وهجر وشغل بال الخلفاء وقتل آلافاً من الحجيج. فقتله الخادم المذكور في الحمّام لما أراده على الفاحشة، خنقاً إلى أن مات، فأراح البلاد والعباد من شره وفسقه.

وفي سنة 303 [916] كاتب الوزير علي بن عيسى القرامطة يصالحهم، وأطلق لهم ما أرادوا من البيع والشراء. قصد بذلك أن يتألفهم بعد مقتل كبيرهم لردّ غائلتهم عن الحجّاج. فأمسكوا مدّة. وفي سنة 307[920] هجموا على مدينة البصرة وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً.

وفي سنة 313[926] خرج أبو طاهر في ألف فارس وألف راجل يتعرض للحجاج وكان من جملة الحجاج أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وأحمد بن بدر عمّ السيدة أم المقتدر بالله[18]

---

(17) غُلْف، مفرده أغلف وهو الذي لم يعِ الرشد كأن على قلبه غلافاً.

(18) مدة خلافة المقتدر: 295-319 هـ/ 908-932 م.

ومعهما جماعة من الأعيان، فأسرهم وانتهب جميع أموالهم وأموال الحجّاج. وسار بهم إلى هجر. وبعد أشهر أطلق أبا الهيجاء وطلب من المقتدر أن يتنازل له عن البصرة والأهواز. وذكر ابن حمدان في هذه الواقعة أن القرمطي قتل فيها من الرجال 2200 ومن النساء 300، وبقي عنده بهجر 2200 رجل و 500 امرأة.

وفي سنة 313[926] خرج الحجّاج من بغداد إلى مكة ومعهم جعفر بن وفاء في 1000 فارس، فلقيهم القرامطة، فناشبوهم القتال. ورجع الناس إلى بغداد ونزل القرامطة على الكوفة فقاتلوا أهلها إلى أن تغلبوا عليهم ودخلوا المدينة ونهبوا منها ما لا يحصى من الأموال والمتاع.

ولما اشتدّ خطب القرامطة على البلاد العربية نزح أهل مكة عنها سنة 314[927] اتقاء شرهم ولم يخرج الركب العراقي في هذين العامين إلى الحجّ. وارتدّ حجّاج خراسان خوفاً من غائلتهم.

وفي سنة 315[928] جاء أبو طاهر القرمطي في 1500 فارس و 5000 راجل فأوفد المقتدر لحربهم يوسف بن أبي الساج في 20000 بين فارس وراجل. فلما التقى الجيشان احتقر يوسف القرامطة، ثم تقدم لقتالهم، فكان بينهم مقاتل عظيمة لم يقع مثلها في المقاتلات السابقة، أسر فيها يوسف بن أبي الساج المذكور بعد أن جُرِح ثم قتله القرمطي في جماعة من قوّاده. وبلغ المقتدر خبر هذه الكسرة، فانزعج وعزم على النقلة إلى

شرقي بغداد خوفاً على حياته. وخرج مؤنس الخادم بالعساكر إلى الأنبار وكانوا في 40000، بعد أن جهزهم المقتدر بألف ألف دينار. وانضم إليه وهو راكب الطريق أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وإخوته وأبو الوليد وأبو العلاء وأبو السرايا في جنودهم وأعوانهم. وتقدمهم نصر الحاجب. فأشار أبو الهيجاء على مؤنس بقطع القنطرة، فتثاقل عن إجابته. فقال له أبو الهيجاء: أيها الأستاذ عجّل بقطعها واقطع لحيتي معها قبل أن يداهمك ما لا قبل لك به. فقطعها مؤنس، ثم صبحهم القرمطي سلخ اثني عشر ذي القعدة. فأقام بإزائهم يومين ثم تحوّل إلى الأنبار فلم يتجاسر أحد أن يتبعه، ويقول المؤرخون لولا قطع القنطرة لعبرها القرمطي وهزم عسكر الخليفة وملك بغداد ولقضى نهائيّاً على الدولة العباسية.

وأوقع القرمطي في هذه السنة بالأقاليم المجاورة لهم في بلاد العرب وحكموا فيهم القتل والسبي والنهب وأخذوا منها كل ما أرادوا مما لم يستطع الناس أن يدافعوا عنه. ومما زاد في مضاعفة هذه الكوارث، شغب الجند على المقتدر. وفي المحرم سنة 316[929] دخل أبو طاهر القرمطي رحبة مالك بن طوق (وهي على شاطىء الفرات بين الرقة وبغداد)، بعد حروب طاحنة ووضع في أهلها السيف. فبعث إليه أهل قرقيسية يطلبون الأمان فأمنهم. وبعث سراياه في الأعراب فقتلوا ونهبوا وسبوا ثم دخل قرقيسية ونادى مناديه أن لا يظهر أحد من أهلها نهاراً فاختفوا في بيوتهم. ثم انصرف إلى الرقة فدخلها غصباً. ولما رأى الوزير علي ابن عيسى أن القرامطة استولوا على البلاد استعفى من الوزارة.

ولما رجع أبو طاهر القرمطي من غزواته هذه بنى له مكاناً سمّاه دار الهجرة. ثم أظهر الدعوة إلى من سمّاه المهدي إمام الباطنية. وعقب ذلك تفاقم أمرهم وكثر أتباعهم. فتحمس المقتدر وندب هارون بن غريب وسيّر معه جيشاً إلى واسط لمناجزة من كان بها من القرامطة، وبعث صافياً لنفس المهمة، فأوقع هارون بمن لقيه منهم، وبعث أسرى إلى بغداد على الجمال ومعهم 170 رأساً من رؤوس أعيانهم. وبعد هذا الانتصار المعدود اختلف هارون ونازوك على غلام تعشقه سوّاس خيلهما. فوقعت بينهما معارك مات فيها خلق كثير. فركب الوزير ابن مقلة برسالة من الخليفة يأمرهما بالكف عن بعضهم. فكفّوا واصطلحوا.

ولما علم ملك الروم بما نزل بالدولة العباسية من خطوب، تجهّز في جند كثيف بلغ عدده 300 000 مقاتل لإنزال الضربة القاضية على الدولة. فقصد ناحية خلاط. فقتل وسبى ونكل بمن لقيه من المسلمين، ثم صالحه أهل خلاط على عشرة آلاف دينار، وأمرهم بإخراج المنبر من جامعها وجعل مكانه الصليب واتخذه كنيسة.

وبينا كانت هذه الكوارث المحزنة تقطع نياط الدولة إذ بقوّاد الأتراك من الغلمان أمثال، مؤنس الخادم ونازوك، يجتمعون على خلع المقتدر وإحضار أخيه محمد بن الخليفة المعتضد ومبايعته بالخلافة وتلقيبه بالقاهر بالله، وذلك في اليوم الخامس عشر من المحرم سنة 317[930]. وبعد أن تم لهم ما أرادوا وقع النهب في دار الخلافة، وصودرت أموال أم المقتدر التي في

الرصافة واختفى عند أمه. وبعد ثلاثة أيام حضر الجنود وأخرجوا المقتدر وحملوه على رقابهم وهم يهتفون له هتافاً حارّاً: يا مقتدر يا منصور. وذهبوا به إلى قصر الخلافة وبايعوه ثانياً بعد وقائع مريعة دارت بين القواد والجند مات فيها نازوك. وخلع محمد القاهر وأمنه أخوه المقتدر.

وفي هذه السنة سيّرالمقتدر ركب الحجاج مع منصور الديلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين، وفي يوم التروية وافتهم جموع القرامطة بقيادة زعيمهم أبي طاهر فقتلوا الحجيج قتلاً ذريعاً في فجاج مكة وداخل الحرم، وكان بين القتلى ابن محارب أمير مكة، وغزوا البيت، ورفعوا باب الكعبة، وطرحوا القتلى في بئر زمزم. وجلس أبو طاهر على باب الكعبة والرجال تصرع بين يديه والدماء تجري كالسيل وهو ينشد فخوراً:

أنا للّه وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ودخل أحد القرامطة إلى المطاف وهو سكران راكباً فرسه، فبال الفرس عند البيت، ثم ضرب الحجر الأسود بدبّوس فكسره ثم اقتلعه. وكانت إقامتهم بمكة أحد عشر يوماً ثم ارتدوا إلى بلادهم ومعهم الحجر الأسود، ودام عندهم إلى خلافة المطيع. ولخوف الناس من القرامطة تعطلت فريضة الحج حوالى عشر سنين أي من سنة 318[931] إلى سنة 326[938] بدخول الغاية.

وفي سنة 325[937] وافى أبو طاهر القرمطي الكوفة فدخلها في ربيع الآخر فخرج ابن رائق لدفعه في جمادى الأولى وعسكر بظاهر بغداد وبعث برسالة إلى أبي طاهر يحذره عاقبة ما أقدم

عليه. فلم يغن عنه شيئاً وهرب أهل الكوفة إلى بغداد وحضروا يوم النحر للتظاهر بالمسجد الجامع ومنعوا الخطيب من الخطبة والصلاة ومعهم الفارّون من الديلم وهم يستصرخون ويستغيثون ويسبّون الخليفة. وغلقت يومئذ الأسـواق والدكـاكين وتجمهر الناس في المساجد خوفاً من مباغتة القرامطة واستمرّوا على ذلك أياماً إلى أن سكنت الثائرة ورجع الناس إلى معتادهم.

وفي سنة 327[939] كتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي إلى أبي طاهر القرمطي وكان يألفه أن يطلق طريق الحجيج ويعطيه لقاء ذلك عن كل جمل خمسة دنانير فأذن له بذلك وحجّ الناس آمنين. وهي أوّل مرة أُخِذَ فيها المكس على الحجّاج.

وفي ربيع الأول من السنة اشتدّت على الراضي علّته وقاء في يومين أرطالاً من الدم. فأرسل الوزير إلى بجكم[19] وكان بواسط يسأله تقليد ابنه الأصغر فضل ولاية العهد. ثم توفّي الراضي بعلته تلك وهو آخر خليفة عبّاسي انفرد بتدبير شؤون الدولة والجند.

وبويع بعده بالخلافة أخوه إبراهيم ولقب بالمتّقي. وبعد ولايته اجتمعت العامة في شوّال في تظاهرات وهم يتظلّمون من نزول الديلم معهم في دورهم. فلم يقع لذلك إنكار وغضبت العامة ومنعت الإمام من الصلاة وكسرت المنبر فخرج الديلم لتفريقهم، فحصلت مقتلة بين الفريقين قتل فيها بشر كثير.

---

(19) وهو تركي يفهم العربية ولا يتكلّم بها وكان أمير الأمراء (قائد عام للجند) وله ولايـة المظالم (المؤلف).

وفي سنة 330[942] استوزر المتّقي أبا عبد الله البريدي، بإشارة من ابن رائق حين رأى انضمام الأتراك إليه واحتاج إلى مداراته. وكان في بغداد غلاء عظيم حتى بيع كرّ[20] القمح بـ210 دنانير وأكل الناس الجيف. وخرج الحرم المصون من قصر الرصافة في ربيع الآخر إلى الطرقات وهنّ يصرخن: الجوع! الجوع! وخرج الأتراك وتوزون إلى البريدي وكان بواسط يسعى في تلافي ما حلّ بالبلاد من خطوب، فكان خطيباً عليها وأعلن ثورته على الخليفة.

وفي جمادى الأولى من السنة ركب المتّقي ومعه ابنه أبو منصور ومحمد بن رائق والوزير القراريطي والجيش وبين أيديهم القرآن في المصاحف لقتال البريدي. واجتمعت الخلائق كيوم المحشر على الجسر، فشغل بهم وانخسف، فغرق خلق منهم. وأمر ابن رائق بلعن البريدي على المنابر. ثم أقبل أبو الحسن علي أخو البريدي إلى بغداد لحرب الخليفة ومعه الترك والقرامطة والديلم، فهزمه ودخل المتحالفون بغداد وأكثروا فيها النهب والسلب وتحصّن منهم ابن رائق في داره، فزحف إليه أبو الحسن البريدي، وبالرغم من جموعه، فقد تعذر عليه دخولها، إلى أن خرج منها. ودخل آخرون قصر الخلافة وعبثوا فيه بحرمات النساء وقتلوا حماتهنّ. وخرج الخليفة المتّقي وابنه هاربين إلى الموصل ورافقهما ابن رائق، واستتر الوزير القراريطي. ونزل أبو الحسن علي دار ابن رائق. وقلد الشرطة في الجانب الشرقي لتوزون وفي

(20) الكُرّ: مكيال لأهل العراق.

الجانب الغربي لأبي منصور أنوشتكين. واشتدّ الغلاء في البلاد حتى ارتفع سعر كرّ الحنطة إلى 316دينار. ثم حصل خلاف بين المتفقين ونشبت حرب بينهم وانصرف توزون إلى الموصل وانضم إلى ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان. وخلع المتّقي على الأخير وعلى أخيه الملقب بسيف الدولة خلعاً سنيّة. وعاد إلى بغداد بعد مقتل علي بن رائق. وحدثت في تلك الأثناء حرب شعواء بين الأتراك والقرامطة انهزم فيها القرامطة شرّ هزيمة.

وبعد أن استراح المسلمون من هجومات الروم وانتعشت الخلافة، اشتدّت وطأة ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، فجعل يضيّق على الخليفة المتّقي في نفقاته، واغتصب ضياعه، وصادر الدواوين وأخذ الأموال. فكرهه الناس وهاج الأمراء على سيف الدولة بن حمدان، وكان بواسط، فهرب منهم إلى البرّيّة وقصد بغداد. ثم سار ناصر الدولة إلى الموصل خائفاً لهروب أخيه فذهبت داره. واستوزر المتّقي علي بن مقلة. وقدم أحمد بن بويه لقتال البريدي، فاستأمن إليه جماعة من الديلم. وخلع الخليفة المتقي على توزون ولقبه بأمير الأمراء. ثم حصلت بينهما وحشة، فعاد توزون إلى واسط، فخاف أهل بغداد على أنفسهم، فخرج خلق منهم مع الحجّاج وعبروا إلى الشام ومصر ابتعاداً عن الفتنة.

وفي تلك الأثناء ولد لأبي طاهر القرمطي، فأهدى إليه أبو عبد الله البريدي هدايا عظيمة فيها مهد من ذهب مجوهر. وبلغ من وهن دولة بني العباس وهوانها على المسلمين أن حجّ بهم في

سنة 331[943] القرمطي على مال أخذه منهم. ولما مات في سنة 332[944] لم يحجّ أحد. وفي هذه السنة سيّر توزون من واسط أبا جعفر شيرزاد إلى بغداد فاستولى عليها. فخرج المتّقي بأولاده وعائلته إلى تكريت ومعه الوزير، فقدم عليه سيف الدولة ابن حمدان وأشار إليه بأن يصعد إلى الموصل ليتفقوا على رأي في أمر الخلافة. فقال المتّقي: ما على هذا عاهدتموني. فاستحى سيف الدولة وأشار على أخيه ناصر الدولة بن حمدان بالخروج لقتال توزون، ثم لحق به فقاتلوه أياماً حتى هزمهم. فكتب المتّقي إلى الأخشيدي صاحب مصر يستنجده ويستمدّه، ثم تحوّل إلى الرقّة. وبلغ من انحطاط الأخلاق في ذلك العصر المظلم أن ضمن شيرزاد في جملة ما ضمنه لصوصية بغداد لما تغلب عليها حمدي اللّص (وكان فاتكاً جريئاً) في الشهر بـ 25.000 دينار. وكان يكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع ويأخذ الأموال. ولما تقلد سكورج الديلمي شرطة بغداد قبض عليه فقتله (وهو المعروف في كتب الأدب بلصّ بغداد أحمد الدنف). ودخل أحمد بن بويه مدينة واسط وهرب أصحاب البريدي إلى البصرة.

وبعد موت القرمطي أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي، تولّى مكانه ابن أخيه سعيد بن الحسن بن سعيد. وكان أمر الباطنية يومئذ ظاهراً في كلّ مكان. وأمرهم في المغرب للقائم[21] وهو شرّ من أبيه. ذكر عنه القاضي عبد الجبار أنه أظهر

---

(21) هو القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي، تولى الخلافة الفاطمية في إفريقية من سنة 322 هـ/ 934 م إلى سنة 334 هـ/ 946 م.

سبّ الأنبياء وكان مناديه ينادي: «العنوا الغار وما حوى». وأمر بقتل خلق من العلماء وكانت له مراسلة مع أبي طاهرالقرمطي وبينهما وفاق تام ولا يتهيّبان إحراق المساجد والمصاحف.

وفي سنة 336[948] تحرّك القرامطة ولم يحجّ من العراق في هذه السنة أحد. وفي سنة 339[951] سعى المطيع العباسي لدى مقدم القرامطة في استرجاع الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة، فأعاده مع أبي محمد سنبر. وكان الأخشيدي صاحب مصر قد دفع فيه 50000 دينار. وما أجيب إلى ذلك، فأمر المطيع بردّه إلى مكانه بعد أن فارقه 22 سنة. قدم به إلى مكة سنبر المذكور فوضعه بيده وشدّه الصانع بالجصّ. فأعطى المطيع مالاً وافراً للقرامطة لقاء ذلك. وكان الاحتفال بردّه عظيماً حضره المنصور العبيدي صاحب إفريقية[22].

وفي سنة 340[952] قصد صاحب عمان البصرة لمساعدة أبي يعقوب القرمطي فداهمهم الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي بحشود من الديلم إلى أن هزمهم واستباح عسكرهم وعاد إلى بغداد بالأسرى والغنائم. وفي السنة، بعدما ظفر الوزير المهلبي بقوم من أنصار التناسخية، فيهم شاب يزعم أن روح علي بن أبي طالب انتقلت فيه، وامرأة تزعم أنّ روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يزعم أنه جبريل. ولما علم بخبرهم

(22) تولّى المنصور بالله الخلافة بعد أبيه القائم بأمر الله من 334 هـ/946 م إلى 341 هـ/953 م. ولم يشر أيّ مصدر إلى أن المنصور قد حضربمكة حفل إرجاع الحجر الأسود.

معزّ الدولة بن بويه أمر بإطلاقهم لتشيّع كان فيه وميل شديد للرفض.

وفي سنة 349[960] جرت وقائع هائلة في بغداد بين أهل السنّة والشيعة تعطلت بسببها الصلوات في المساجد ولم يبق سوى جامع براثة الذي كان يجتمع فيه الرافضة. وكان مثار هذه الفتنة من بني هاشم على الملك. فاعتقلهم معزّ الدولة بن بويه فسكنت الثائرة، ثم عاد الشيعة في سنة 351[962] لإثارة الخواطر في بغداد. فكتبوا على أبواب المساجد لعن معاوية، ولعن من غصب حقّ فاطمة ولعن من منع الحسين أن يدفن مع جده. ثم محيت هذه الكتابة بالليل، فأراد معزّ الدولة إعادتها. فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محي: لعن الظالمين لآل الرسول، والتصريح بلعن معاوية فقط، ففعلوا. وألزم معز الدولة ابن بويه أهل المدن بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ يوم عاشوراء، ونصب القبب في الأسواق وعلق المسوح عليها وأمر بإخراج النساء منثورات الشعور يقمن المآتم على الحسين، إثارةً للفتنة بين المسلمين وتحريكاً للحزازات. فوقعت بسبب ذلك وقائع عظيمة بين أهل السنّة والرافضة سنة 353[964] وجُرِح خلق من الفريقين.

وفي سنة 355[966]، وهي السنة التي تقلد فيها كافور إمارة مصر بالأصالة، خرج بنو سليم على ركب الحجاج وكان فيه خلق من أهل المغرب ومصر والشام يشتمل على نحو 20 000 جمل، معهم الأمتعة والذهب. وأخذ من الخواتيمي، قاضي طرسوس، وحده 120.000 دينار. ومما زاد في ارتباك أحوال المسلمين أن

متولّي إنطاكية محمد بن موسى الصليحي أخذ الأموال المودوعة في الخزائن وخرج بها كأنه يقصد التوجه إلى سيف الدولة بن حمدان، وكان عازماً على تسليم أنطاكية إلى الروم. فلم يمكنه ذلك لاجتماع أهل البلد على ضبطها. فخشي أن يرفع خبره إلى سيف الدولة فيقضي عليه، فهرب بالأموال ودخل بلاد الروم مرتدّاً.

لا ريب أن هذه الوقائع الأسيفة تدلّ بجملتها على منتهى الانحطاط الاجتماعي والسياسي الذي وصل إليه المسلمون في ذلك العصر المظلم.

4 ـ آثار الفرق الباطنية في العصر الحديث

هل انقرضت الفرق الهدامة في غضون الانقلابات التي تلتها؟

لم تنقرض تلك الفرق من بلاد المسلمين. وإنما تغيرت صورها في جهات دون أخرى. وكيف تنقرض وهي التي داهمت البلاد الإسلامية بكلّ ما لابسها من نزاع وانشقاق؟ وقد تألفت منها حكومات لا عداد لها، وانبثقت عنها عقائد وآداب لم تنقطع رواسبها إلى يومنا الحاضر. وليس من السهل زوالها بغير الترميم الاجتماعي ونقض الماضي الكريه بما فيه، وتجديد البناء القومي بالأجهزة العلمية المعدّة للنهوض بالقوميات على الطريقة الفنّيّة الحديثة، وإصلاح نظام التعليم بجميع فروعه ودرجاته من الابتدائي إلى العالي، بصورة تكفل تغذية شباب الأجيال القادمة بالإسلام الصحيح، على ضوء التاريخ، ونقد المذاهب الدينية والسياسية التي ظهرت على حواشيه، نقداً سليماً نزيهاً من

الغرض لا مدخل فيه لـلأهواء، يكشف عن هـويّتها ويجلي غوامضها وأسرارها. يومئذ، ويومئذ فقط، يعلم المسلمون يقيناً بأن الباطنية في جميع صورها وأشكالها الخادعة، من سبائية وشيعة وزنادقة وملاحدة وقرامطة، هي شرّ ما مني به الإسلام في حياته، بل هي اللّقاح لجميع العلل التي داهمت المسلمين في المشرق والمغرب وأسرعت بزوال الملك من أيديهم وأقصت عنه العرب.

ولا ريب في أن ما يجده المسلمون اليوم في أنفسهم من أدواء الرخاوة والاستسلام والإعراض عن الأخذ بكلّ جديد نافع ليس إلاّ من ذلك الأثر الفتّاك. وحسبنا أن تكون من عوارضه تلك الطرق الصوفية[23] النابية عن روح الإسلام الناشبة في كل مكان، لبثّ بذور الفشل والضعف في عـزائم المسلمين ومداركهم، وحملهم على الكسل والجمود والتواكل والاستسلام، والتماس المدد من غير مصادره المعلومة، والاعتماد على رفات الأموات الذين لا يعرفهم التاريخ ولم يحمل لهم ذكراً.

وكذا القول بالجبر المحض، والشفاعات، واتخاذ الوسطاء بين الخالق والمخلوق، والالتجاء إليهم، إلى غيـر ذلك من التعاليم الباطلة التي لا تتّفق في قليل ولا كثير وطبيعة الإسلام القائمة على النشاط في البناء والتجديد لا الهـدم والتخريب والاستسلام.

---

23) انظر موقف المؤلف من الطرق الصوفية بمزيد من التفصيل في كتابه «روح التحرّر في القرآن»، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.

وممّا لا شكّ فيه أن هذه الطرق عبارة عن منظمات آلية اخترعها دعاة الباطنية الشعوبية الحاقدون الحانقون على الإسلام، لتكون أداة مسخّرة لكل هادم يريد النكاية بالمسلمين. وقد ألفاها المستعمرون كما هي من عهد تأسيسها آلة فعّالة لتوهين المجتمعات التي يريدون الاستيلاء عليها ومطيّة ذلولاً يركبونها لأغراضهم. فإن استيلاء إنجلترا على السودان المصري بعد سحق المهدوية، إنما كان بإعانة المرغنية. وكذا استيلاء فرنسا على السودان الغربي، لم يكن بمضاء أسلحتها بل بكرامات التيجانية! وسياق أمثال هذه الشواهد - وهي قليل من كثير - يكفينا تفسير معنى قيام هذه الطرق بالدعاوة إلى الله، وهم إنما يدعون لعبادة القوة الغاشمة المعدّة لمحو الإسلام على طيلة القرون.

وعلاوة على وجود هذه الطرق الباطنية الملتصقة بالدين التصاق الطفيليّات بالأجسام الغضة اللطيفة، فإن بقايا تلك الفرق والملل التي ذكرنا لمامة منها، لم تزل ظاهرة في بلاد فارس والعراق والهند، وعلى سواحل نهر السند وعُمَان والبحرين وبقاع من اليمن، وجبل النصيرية وجبلة من ناحية اللاذقية، وسليمية ونصياف وبعلبك وحوران ودمشق في سوريا وعكّة وحيفا في فلسطين. غير أن هؤلاء لا يتظاهرون بأحوالهم السريّة ولا بمعتقداتهم الباطنية، إنما يطلقون على أنفسهم أسماء مختلفة بين اثني عشرية وأصولية وشيخية وعلوية ودرزية إلى غيرذلك. وهؤلاء جميعاً يعتقدون وجود عنصر الألوهية في علي بن أبي طالب. ويمكن أن يستثنى منهم الذين في دمشق، كما قال ياقوت عنهم

في معجمه: فإنهم يتظاهرون بأنهم من أهل السنة والجماعة، وإنما يبدون ميلاً خفيفاً إلى مذهب الشيعة الاثني عشرية في تعظيم آل البيت وأيمّتهم. وينقلون كلامهم للتعمية والتضليل وينتسبون إلى المذهب الشافعي، وإذا وجدوا بين المسلمين فإنهم يصلّون معهم تقيّة.

وبالجملة فإن فرق الباطنية كلّها إذا وجد أتباعها في أيّ مكان تحت حكم المسلمين، فإنهم يتظاهرون بالإسلام ويخفون ما في أنفسهم، عكس الذين يوجدون منهم في بلاد تحت حكم الأجانب. وواقع الأمر أنهم ليسوا مسلمين، وهم يدينون بالطاعة العمياء لرؤساء روحيّين عديدين. ولكلّ طائفة منهم رئيس معروف. وكثيرون منهم يخضعون لآغة خان الفارسي المتهنّد. وله عليهم عوائد مقرّرة ونذور يوفون له بها كلّ سنة، وهو يرسل لهم لقاء ذلك موادّ تبركية «الخميرة» يدخلونها في مآكلهم ومشاربهم كما يفعل ذلك زملاؤهم أصحاب الطرق الصوفية. والأصل فيها كما لا يخفى واحد، وهو العشاء الربّاني الذي استحال في بعض جسد الآلهة «الجعليّين» خبزاً وبعضه خمراً، ويتخذون منه خميرة البركة.

5 ـ انتشار الدعوة الشيعية في المغرب وسقوط الدولة الأغلبيّة

دخول دعاة الباطنية إلى إفريقية:

مررنا مرّاً خفيفاً بالأدوار السيّئة التي تعاقبت على الإسلام في مجرى حياته والتي قامت بها الفرق الهدامة في أقطار إسلامية كثيرة، في خراسان وفارس والأهواز والبحرين والعراق والشام

ومصر، لكي ندع منها ولو صورة مجملة في ذهن القارىء، يدرك بها جسامة الخطر الذي سينزل بإفريقية من دخول هؤلاء الدعاة فيها وتغلغلهم بين لبّاتها على ما هي عليه من سذاجة وقلّة بصر بالعواقب، ولا بمكائد الدساسين التي ينصبونها للأمم لإيقاع الهزيمة في صفوفها أثناء المعارك الدينية والسياسية العظيمة، إلى غير ذلك مما يدبّرون وراء عين الناس لتقويض الأسس المحكمة التي قام عليها ملك العرب وهو لن يقوم بدونها. فلا غرابة إذن إذا شاهدنا معاول الهدم والتخريب منتشرة في كلّ بقعة وجد فيها الإسلام وساد فيها حكم العرب من كشغر إلى الأندلس طولاً ومن خوارزم إلى شواطىء إفريقيا عرضاً. ورأينا دعاة جبابرة يندسّون بين الأقوام هنا وهناك ويعملون جادّين بلا فتور ولا وناء لقلب أوضاع تلك البلاد وتخليصها من حكم العرب.

فقد رأينا الفتنة الملعونة تدبّ من مكان إلى مكان منذ أن ظهر عبد الله بن سبأ اليهودي في بلاد الإسلام وهي تنتقل معه أنّى سار، في اليمن والعراق والحجاز ومصر. وشاهدنا السبائية تقذف سمومها في الخوارج والشيعة، وهي تبدو مع كل ثورة تتّقد ضدّ الحكم العربي في عهدي الأمويّين والعباسيّين. ولما لقيت من صولة العرب ما يلقاه الباطل المهزوم من الحق القائم استترت عن الأنظار ثم بدت تحت طاقية الإخفاء في صور الشياطين تعمل في السرائر والقلوب. ولها دعاة جوّابون في الأقطار ينفثون مكائدهم حتى وصلوا إلى إفريقية، فجرت فيها تلك المعارك الطاحنة بين الحكم العربي وثوّار البربر. واصطبغ أديمها بالنجيع[24]

(24) النجيع هو ما كان مائلاً إلى السواد من الدم.

الأحمرالبريء من الأندلس إلى طرابلس. ثم يتلو ذلك الانقلاب الذي أرادوه، وتنفصل إفريقية عن حكم الأمويين ثم تظهر أديان بربرية جديدة، وهذا كان بيت قصيدهم، والهدف الذي يريشون سهامهم إليه. ثم يرتفع الستار عن هذه المأساة، فنرى عبد الرحمن بن رستم الفارسي منغمساً في زمرة الأباضيّين، وهو لا يلبث غير قليل حتى يصير قائد الجنود ثم المتوثبة على العرب باسم الدين. ثم لا يطول الأمر حتى نراه يتسلّق عرش الإمارة الأباضية في تاهرت ويؤسس نظاماً أرستقراطياً للأباضية في عائلته. وأبصرنا في أثره على ضوء الحوادث آخرين من فارس ينحشرون في جنود العباسيّين، بحيث ما كادوا يطأون بلاد إفريقية حتى انقلبوا إلى عصاة مغيرين ينزعون إلى الثورة وشقّ عصا الطاعة في وجوه الأمراء الذين جاؤوا بهم لتأييدهم وإقرارهم في مساند الحكم. وهم لا يكلّون ولا يملّون في تحقيق تلك الأمنية الفظيعة التي انتدبوا إليها.

أبو عبد الله الصنعاني:

ولما تمهّدت الأمور لنزول الفاجعة الكبرى رأينا رجلاً داهية ذا علم وفصاحة يأتي من مكان بعيد لتسيير هذا الانقلاب وهو أبو عبد الله الصنعاني[25] رأس دعاة الباطنيّة، يوفده المركز الأعلى للمؤامرات بمال جزيل لابتياع الذمم وشراء الضمائر التي لها بقيّة

---

(25) اسمه الحقيقي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الصنعاني المولد الكوفي النشأة والمربى. تلقى مذهبه وطرائقه السياسية عن أستاذه ابن حوشب وتخرج على يديه ثم ألحقه بخدمة الباطنية، فنبغ فيها وبرع بروعاً لا يدانيه فيه أحد (المؤلف).

من طهر وآثار من دين. ولإخفاء مهمته رأى من الحكمة قبل قدومه إلى إفريقية أن يذهب إلى بلاد الحجاز ليبدو فيها في مسوح الناسك المتبتّل من أهل التقى والدين بين الحجّاج الأفارقة. ثم يتصل بهم ويطلع على آرائهم ومذاهبهم. فيشهد الموسم. وعندما تقع عينه على سراة من أهل إفريقية، يحتال على مخالطتهم والتقرّب إليهم. وما أيسر اتصال الغريب بالغريب في بلد المناسك والعبادة. وكان هناك عشرة رجال من بطن كتامة ملتفّين على شيخ كبير منهم. فيتجاهلهم ويأخذ في التساؤل عن بلادهم وهم يجيبونه على كل سؤال بسذاجة الرجل البدائي السليم. ولما سألهم عن مذهبهم ـ وهو هدفه ـ صدقوه. وكانوا من الخوارج الأباضية، فدخل عليهم من هذه الناحية. وما زال يغريهم ويستدرجهم بما أوتي من فضل اللسان وحلاوة البيان والعلم بالجدل، إلى أن سحرهم وخلب عقولهم.

ولما حان رحيلهم سألوه عن شأنه وأين يريد، فأوهمهم ضلة أنه من أهل العراق وأنه كان يخدم السلطان. ثم رأى أن هذه الخدمة ليست في شيء من البرّ والتقوى؟! فتركها. وصار يطلب عيش الكفاف من طريق الحلال. ولم ير لذلك وجهاً غير الانقطاع لتعليم الصبيان. وأنه راحل إلى مصر يبحث لنفسه على عمل. فقالوا له: ونحن ذاهبون إليها ورغبوا إليه أن يكون في صحبتهم. فسار معهم في الطريق وهو يحدثهم ويغمز إليهم بالكلام عن العدل والظلم، وفساد أحوال ولاة المسلمين، جرياً على طريقة الخوارج، إلى أن أشربت قلوبهم محبّته. فرغبوا إليه المسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم. فاعتذر لهم ببعد الشقّة،

ووعدهم أنه إذا لم يظفر بعمل في مصر ربّما صاحبهم إلى القيروان[26].

فلما وصلوا إلى مصر غاب عنهم أبو عبد الله الصنعاني كأنه يطلب حاجته، غير أن عينه كانت عليهم ترقبهم. ثم أنه رجع إليهم وقال لهم: لم أجد بهذه البلاد بغيتي. فرغبوا إليه أن يصحبهم، فأنعم لهم بذلك وصاحبهم إلى القيروان. فراودوه على أن يذهب معهم إلى بلادهم وضمنوا له ما أراد من تعليم صبيانهم. فقال لهم لا بدّ لي من الإقامة بالقيروان، لعلّي أظفر بحاجتي، فإن اتفقت لي وإلاّ نهضت إليكم. وكان شيخهم أحرص الناس عليه، وأكرمهم له. فوصف له منزله وموضعه من كتامة. ثم فارقوه وكأنهم فارقوا أرواحهم، وغادروه مقيماً بالقيروان.

أقام هذا الداعية بالقيروان مدّة يتسقّط أخبارها ويتعرّف أحوال القبائل وقوّات الدولة، وميول الناس، حتى صحّ عنده أنه ليس يومئذ في قبائل إفريقية أكثر عدداً وأصلب شوكة، وأصعب منالاً على الحكومة من كتامة. عند ذلك أسرع إلى صاحبه الشيخ الكتامي.

دخول أبي عبد الله الصنعاني إلى بلاد كتامة[27]:

فركب الطريق حتى إذا بلغ إيكجان[28] قصد المسجد وفيه

(26) ابن الأثير، الكامل، ج 7 ص 23-24 وابن عذاري، البيان ج 1 ص 166-167.

(27) ابن الأثير، نفس المرجع، ج 7 ص 25.

(28) هي قرية قريبة من سطيف كان يسميها أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة (المؤلف).

معلّم بربري يعلم الصبيان. فتلقاه المعلم بالترحاب، وجعل يطيل النظر إليه فاسترابه أبو عبد الله الصنعاني. فسأل المعلم عمّا رابه من أمره. فذكر له أن بعض كهنة كتامة كان يقول: ترون الحرب إذا جاءكم الرجل الشرقي صاحب البغلة الشهباء. فلما رأيتك تذكرت قوله. فأثلجت هذه الكلمات صدر أبي عبد الله، وضاعفت عزمه على أمره. ولما دنا وقت الظهر أذّن المعلم. فخرج الشيخ إلى المسجد، فرأى أبا عبد الله فعانقه وسلّم عليه.

ولما همّ المعلم بالدخول إلى المحراب، منعه الشيخ وقدّم أبا عبد الله. فلما قضيت الصلاة أدخله منزله وبالغ في تكريمه، وخلا إلى أن حانت صلاة العصر. فخرج معه إلى المسجد وقدمه إلى الصلاة، فاستراب من فعله المعلم وترك المسجد والتعليم فصار أبو عبد الله إماماً للقرية ومعلماً للصبيان. وأجهد نفسه في تعليمهم حتى أثمرت نتائجه في مدة قصيرة. فجمع له آباؤهم أربعين ديناراً. وزاد عليها الشيخ شيئاً من عنده وأتى بها إلى الداعية. فرَدّها إليه وبالغ في الاعتذار، ومدّ يده إلى كيس كان إلى جنبه وصبّ منه 500 دينار وقال لصاحبه: الآن حصحص الحق. أنا غنيّ عن الأجرة ولا حاجة لي بمالكم، جئتكم لتأسيس دولة، لا لتعليم الصبيان! والأمر ما أظهرك عليه.

فنحن أنصار البيت جاءتنا الرواية عنكم يا أهل كتامة أنكم أنتم أصحاب دعوتنا والمدلّون بحجّتنا والمقيمون لدولتنا. وعلى يديكم سيظهر الإمام العادل، ويفتتح بكم الدنيا. فيجمع لكم خيرها ونعيم الآخرة.

ولما سمع الشيخ هذه الكلمات الخلّابة من فم داعية

الباطنية قال: إني راغب فيما رغبتني فيه وتدعوني إليه وسأبذل فيما تأمرني به مهجتي ومالي ومن تبعني، وستجدنا إن شاء الله أطوع لك من يدك، فمر بما شئت إني لك ممتثل.

فقال له أبو عبد الله: ادع لي الخاصة من بني عمومتك الأقرب فالأقرب. فدعا الشيخ قرابته وخلصاءه من خاصّته فأفضى إليهم برسالته، وحرضهم على إجابة دعوته. فامتثلوا إليه جميعاً [29].

ولما دنا رمضان، قال الداعية للشيخ: إن رمضان قد أقبل ومذهب آل البيت الذي أخذتموه عنّي لا يجيز صلاة التراويح، لأنها ليست من سنن الرسول وإنما هي من أثر عمر بن الخطاب. وسأتركها وأطيل القراءة في صلاة العشاء الأخيرة وأقرأ بالطوال المفصّل، فيكون ذلك عوضاً عن القيام للتراويح. فساعفه الشيخ على ذلك وقال له: أنا طيّع لك فافعل ما تريد. فبلغ ذلك مشائخ كتامة فحدثوا به فيما بينهم وأنكروه. فأقبل عليه أخوه في طائفة منهم، وقال: ما لك يا أخي ولهذا الشرقي الذي أفسد عليك دينك، وغيّر عقيدتك وأبدل مذهبك؟ فقال له الشيخ: ما لك ولهذا! أنا أدعوك للأمر الذي دخلت فيه فإما أن تقلّدني وإما أن لا تلقاني بإنكار وذم لمن بلوته وخبرت فضله ودينه. فانصرف عنه أخوه مغضباً. وتخلّف لديه الآخرون، فأخذ يصف لهم أبا عبد الله بصفات مكنت محبّته من قلوبهم وأوقرها بتعظيمه. ثم أخرجه إليهم وقال له: كلّمهم. فجعل يحدثهم ويطيبهم إلى أن سحر

(29) ابن عذاري، ج 1، ص 170.

عقولهم وخلب نفوسهم. ولم يبرحوا مكانهم حتى دخلوا في دعوته. ثم عاد أخوه الشيخ وذكر من فضل معلّم أولاد (وكان خارجيّاً متورعاً) وما تحلّى به من سمات الدين والتقوى والفضل ما أربى به على ذكر أبي عبد الله، وطلب تناظرهما. وقال: أيهما غلب صاحبه تبعه الناس. فتواعد الأخوان على ذلك. ولكن كان الشيخ يضمر في نفسه شرّاً لأخيه.

ولما حان الموعد وبلغ الشيخ مجيء أخيه، كمن له جماعة ممّن واطنوه على تأييد الباطنية وقال لهم: إذا نحن اجتمعنا انقسموا إلى فريقين، فريق منكم يضرب على خيمة أخي، وفريق آخر يعلونه بالسيوف عند خروجه. فأجابوه إلى ذلك. ولما خرج خبطوه بأشفار سيوفهم وتركوه عقيراً[30]. فأظهر الشيخ جزعاً على أخيه كأنه لا علم له بتدبير هذه المؤامرة الأثيمة، ثم سكت وقبل عزاء الناس في أخيه. وانتهز فرصة إقبال المعزّين لأخذ العهود والمواثيق عليهم بالبيعة، وذبح الذبائح وصنع الطعام. فأكل الناس هنيئاً مريئاً وبايعوا. وحسب أمثالهم أن يفعلوا ذلك ويقبلوا على طاعة رجل مجهول لقاء أكلة دسمة، يهدر فيها دم بريء. فاجتمع للصنعاني بهذه الحيلة خلق كثير. ولكن شيخ كتامة أقام في حرب مع قومه وبني عمه مدة سبع سنين إلى أن طوّع القبائل كلها وحملها على مذهب التشريق[31].

ولما دنا أجل شيخ كتامة جمع قرابته وبني عمّه وقال لهم:

(30) العقير هو الذي يباغته الخوف فلا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر.
(31) كذا أسماه البربر نظراً لنسبته لرجل شرقي (المؤلف).

أوصيكم بهذا الرجل أن لا تختلفوا عليه واسمعوا له وأطيعوه، فإنه سيملككم رقاب الدنيا. وأوصاه بأولاده ثم قضى نحبه.

فالتزمت كتامة بهذه الوصية طاعة أبي عبد الله الصنعاني. ودخلت منها أفخاذ كثيرة في دعوته. فاتخذ لهم ديواناً نظم به أشتاتهم ثم ألزمهم التجنيد. وقال: ما أدعوكم لنفسي ولكنني أدعوكم للإمام المعصوم من آل البيت الذي من صفته ونعته كيت وكيت، وذكر لهم من خوارقه وكراماته ما أذهلهم واسترق ألبابهم. وما أيسر استرقاق ألباب البسطاء والسذّج، حين يتكلّم لهم الدجّالون على هُرى الكرامات والخوارق!.

الرأي القاطع في الداعية الصنعاني:

يقول ابن عذاري المراكشي إن الداعية أبا عبد الله الصنعاني كان يعتقد بصدق ما يقول في عبيد الله المهدي اعتقاداً جازماً لا مرية فيه، إذ لم يره قبل ذلك، وإنما كان يتلقّى أخباره من شيوخ الشيعة، وللخبر مع حسن الاعتقاد تأثير في النفس. ولا مانع من ذلك لو كان الداعية من غلاة الشيعة الإمامية، ولم يكن باطنيّاً يدعو لإمام من آل البيت. ويجوز أن يكون غير ذلك، لأن من المستبعد على رجل داهية خبير بالأمور أن يجهل سرّ الدعوة التي يقوم بها وحال الشخص الذي يدعو إليه. وإنما كان داعيته والداعي لأي أمر من الأمور يستبيح لنفسه كل شيء، حتى الكذب واختلاق الأسانيد. وهذا معروف من أصول الديانة عند الشيعة، وذلك للبرهنة على صدق ما يدعون إليه. ولذلك أشباه ونظائر في مذاهبهم.

وكيفما كان الأمر، فقد أمكن لهذا الرجل القدير أن يقتاد البربر من أنوفهم ويستصفيهم لدعوته وهو ليس منهم، وغريب عن ديارهم، وعلى غير مذهبهم في الدين والسياسة. ثم ينازل بهم أقوى الممالك الإسلامية في عهده ويقتلع ملوكها الشمّ من عروشهم كما يقتلع المزارع تلك النباتات الطفيلية من مزارعه. وهي جرأة خارقة تدلّ على قوّة حيوية الرجل، ويقظته وبصره بالأمور، وأنه سيسوس عصره بحقّ وحقيق.

إعداد الجيوش الكتامية للحرب:

لما وثق أبو عبد الله الصنعاني بكتامة أخذ يدعوها إلى الاحتشاد. وكان حشده إياها كما حكاه ابن عذاري المراكشي، أن يكتب إلى رؤساء القبائل وهم يحشدون من يليهم طاعةً له ورغبةً فيه. وكان لا يزيد في كتابه إليهم عن أن يقول: إن الموعد يوم كذا في موضع كذا ويصرخ صارخ بين يديه: حرام على من تخلّف، فلا يتخلّف عنه أحد من كتامة. فاجتمع إليه بهذه الطريقة ما لا يحصى كثرة، ثم خرج بهم لقتال جيش الأغالبة على كبونة[32]. وكان على قيادتهم كما قلنا إبراهيم بن حبشي التميمي. فوقعت بينهم ملحمة عظيمة، ذكر عنها المؤرخون: أنهم تطاعنوا فيها بالرماح حتى تقصفت، وتجالدوا بالسيوف حتى تكسّرت، ودامت المعركة حامية من أوّل النهار إلى الليل. ثم انهزم إبراهيم واستحر القتال أصحابه. ولولا شدّة الغسق، واشتغال كتامة بالغنائم والتقاط الأموال وإحراز العدد من الأسلحة والسروج

---

(32) وفي رواية أخرى «كيونة». ويحتمل أن تكون المعركة قد جرت في رجب 292/ ماي - جوان 905. (انظر محمد الطالبي، المرجع السابق - ص 711).

واللجم والخيل وأنواع الأمتعة لما نجا من عساكر الأغالبة أحد[33].

سقوط الأغالبة:

[وبعد هذا الانتصار أخذ أبو عبد الله الصنعاني في فتح إفريقية، فاستولى على مدنها الواحدة تلو الأخرى. وعند ذلك وجّه إليه زيادة الله مع عمّه إبراهيم بن الأغلب جيشاً عدّته أربعون ألف مقاتل، فهزمهم أبو عبد الله في أحواز الأربس سنة 296 هـ/ 909 م. ولما بلغ زيادة الله خبر هذه الهزيمة تحقّق من زوال دولته، فجمع ماله وآل بيته وخرج من رقادة ليلة الإثنين 26 جمادى الثانية من السنة (18 مارس 909 م) وقصد المشرق.

فأقبل أبو عبد الله الصنعاني على القيروان ودخلها بجنوده. وبعد أن وطّد الأمور توجّه إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، فأنقذ عبيد الله المهدي الذي كان معتقلاً هناك وسلّم إليه مقاليد الحكم].

(33) هنا ينتهي المخطوط. ولكي لا يبقى النصّ مبتوراً، رأينا من الفائدة أن نضيف إليه ملخّصاً للأحداث التي أفضت إلى سقوط الدولة الأغلبية وقيام الدولة العبيدة في سنة 296 هـ/909 م.

ملــحــق

صفحات من تاريخ
الدولة العبيدية

1 ـ عبيد الله المهدي

يقال إنّه أبو محمد عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد ابن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب. وكان مولده بسلميّة[1]، وقيل ببغداد سنة 260 [874] واستقلّ بالملك سنة 297 [910]. وكان جميلاً مهيباً عالماً بكلّ فنّ عارفاً بالسياسة وتدبير المملكة.

قدم المهدي إلى القيروان في جيش يبلغ مائتي ألف بين فارس وراجل ربيع سنة 297 [910]. فبايعه أهل القيروان البيعة العامة واستلم زمام الدولة وتلقب بأمير المؤمنين.

وبظهور الدولة العبيدية[2] انقرضت إمارة بني مدرار من

(1) تذكر المصادر الشيعية أن عبيد الله المهدي قد ولد بمدينة عسكر كرم من خوزستان «ثم إن والده انتقل به إلى سلميّة، وفيها كان منشؤه» (انظر الداعي إدريس، كتاب عيون الأخبار، القسم المغربي، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي 1985 ـ ص 143).

(2) فرق المؤرخون بين «العبيديين» و«الفاطميين»، وإن كانت الدولة واحدة فأطلقوا =

سجلماسة، بعد أن استقامت مائتين وستين سنة. وانقرضت أيضاً إمارة بني رستم من تاهرت بعد أن دامت 130 سنة وسقطت دولة بني الأغلب بعد أن حكمت 112 سنة ودولة الأدارسة بالمغرب سنة 305 [918].

2 ـ ترجمة أبي يزيد مَخْلَد بن كِيدَاد

أصله من قبيلة زناتة وكان مقام أبيه بمدينة توزر، ثم انتقل إلى السودان فولد له هناك أبو يزيد ولما شبّ قدم به إلى المغرب فتعلم به القرآن العظيم وخالط جماعة من طائفة النكّارية وأخذ عنهم مذهبهم المتمثل في تكفير أهل السنة واستباحة أموالهم ودمائهم. وأوّل ظهوره كان يعلّم أولاد المسلمين بمدينة تقيوس [توزر] وكان يلبس جبّة صوف وعلى رأسه قلنسوة صوف وفي عنقه سبحة وكان يدعو الناس إلى الخروج على الطاعة سرّاً في أيام المهدي إلى أن صارت له جماعة يعظمونه ويجلّونه ويعملون برأيه. ولم يزل على ذلك إلى أن اشتدت شكيمته وقويت شوكته فنشر غاراته في بلاد البربر. وفي أيام القائم[3] عظم أمره وأفسد البلاد وحاصر باغاية وقسطيلية وفتح مرماجنّة وأهدى له أهلها حماراً أشهب[4] كان يركبه وبه دخل إفريقية ونهب مدينة الأربس[5]، ففرّ الناس إلى جامعها فقتلهم فيه صبراً وافتض فيه

= الاسم الأول على أمراء هذه الأسرة المتولّين بإفريقية وخصصوا التعريف الثاني بمن تولى منهم الخلافة بمصر. (ح.ح. عبد الوهاب).

(3) مدة خلافة القائم: من سنة 322هـ/934م إلى سنة 334هـ/946م.

(4) ولذلك عرف أبو يزيد باسم «صاحب الحمار».

(5) وذلك في سنة 332هـ/944م.

أصحابه الأبكار وفعل بهم ما لم يفعله إنسان له ذمّة ووجدان. فأرسل القائم جيشاً مع مولاه بشر الفتى[6] لحراسة بلاد باجه، فبلغ ذلك إلى أبي يزيد، فرحل إليه وجعل كلما مرّ على مكان أفسده وسبى حريمه والتقى مع بشر فهزمه بشر أوّلاً ثم عاوده أبو يزيد القتال ثانياً، فانهزم بشر وفرّ إلى مدينة تونس. ودخل أبو يزيد باجه بالسيف وأباحها لجموعه ثلاثاً وحرق ديارها وسبى حريمها وعبث بالأطفال الرضّع وفعل بأهلها الأفاعيل. فخافته جميع القبائل وأتوه طوعاً وكرهاً. وساق جيشاً على بشر وهو بتونس فخرج إليه بشر بالتونسيّين وهزمه. ووقعت فتنة بتونس فكاتب أهلها أبا يزيد، فأقدم وولّى عليهم رجلاً منهم ونزل أبو يزيد بالفحص واقتتل مع الفتى بشر على هرقلة فانهزم عسكر أبي يزيد وقتل منهم أربعة آلاف وأسر خمسمائة. فأنفذهم إلى المهديّة. ورجع أبو يزيد فجمع جموعاً أخرى وانصرف إلى القيروان وعسكر بالموضع المعروف منهابالحريوية. فاقتتل مع طلائع الكتاميّين فهزمهم إلى رقادة ونزل أبو يزيد على أربعة أميال من القيروان[7].

ومن الغد تحوّل إلى شرقي رقادة في مائة ألف بين فارس وراجل وزحف إلى القيروان فاقتتل مع أهلها فهزمهم. ودخل البربر إلى المدينة فنهبوا وأفسدوا. ونزل بعد ذلك في رقادة وخرج شيوخ القيروان وطلبوا منه الأمان فقال: هلا طلبتم قبل اليوم، فاعتذروا له بمطلهم، وعسكره مع ذلك يشتغلون بالنهب والسلب

(6) يسميه الداعي إدريس «بشرى الخادم»، المرجع السابق ص 276.
(7) نفس المرجع ص 283.

والقتل. فسألوه ثانياً وقالوا له: قد خربت القيروان وأنت تدّعي القيام بالإصلاح. فقال لهم وما عسى أن يكون من شأن مدينتكم وقد خرّبت مكة وبيت المقدس مرّتين؟ ثم أمّنهم.

وبعد ذلك أتاه الخبر أن عسكراً قادم عليه من نحو القائم، فنادى في القيروان من تخلّف عن الجهاد معي حلّ دمه وماله، فنفر معه خلق كثير والتقى مع عسكر القائم، فكادت الهزيمة أن تقع على أبي يزيد، ثم انتصر وهزم عسكر القائم حتى بلغ المهدية[8] فوجلت قلوب الناس وانتقلوا من الربض إلى المدينة. وأقام أبو يزيد في خيمته ثمانية وستين يوماً وهو يبعث سراياه إلى جميع بلاد إفريقية والحصون التي بها على البحر. فأخذ جميع ما فيها من أقوات وسلاح.

وبعث جيشاً إلى بلد سوسة فدخله بالسيف وحرق المنازل وسبى النساء ومثل بالناس بقطع الأعضاء وشق الفروج وبقر البطون. وفعل بأهل سوسة ما لا تفعله الأعداء ولم يبق بإفريقية منزل عامر، وفرّ الناس إلى القيروان حفاة عراة ومات خلق لا يحصى جوعاً وعطشاً.

ونهب أرزاقاً وأموالاً لا تحصى. فقد سلب من مدينة تونس اثني عشر ألف خابية زيتاً غير الأموال والعبيد ونهب من غيرها من بقيّة المدن ما لا يحصى وحمل ذلك البربر إلى بلادهم.

وكتب بعد هذه الوقائع المخزية إلى قبائل البربر يحثهم على جهاد المهدية. فأمر القائم سنة 333 [944] بحفر خندق على

(8) نفس المرجع، ص 298.

أرباض المهدية وأنفذ الكتب إلى صنهاجة وكتامة يستفزّهم إلى الدفاع عن المهدية ويحرضهم على قتال أبي يزيد. ورحل أبو يزيد ونزل قريباً من المهديّة ونهب ما حولها وخرج إليه جيش القائم واقتتلوا معه فهزمهم وسار أبو يزيد إلى الخندق المحدق بخاصّته واقتتل مع الحرّاس الذين حوله، فهزمهم واقتحم أبو يزيد ومن معه البحر إلى أن وصل الماء صدور الدواب وجاوز السور وبلغ إلى المصلّى ولم يبق بينه وبين المهدية غير رمية سهم، وأصحابه في زويلة[9] ينهبون ويقتلون، ثم قويت نفوس أهل المهدية وتحاموا واقتتلوا قتالاً شديداً فأزالوا أبا يزيد وأصحابه عن البلد ورجع أبو يزيد إلى خيمته وأمر بحفر خندق على عسكره وأتته جميع القبائل من طرابلس وقابس ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب. وحاصر المهدية أشدّ حصار ومنع عنها الداخل والخارج وزحف إليها مرة أخرى وكان بينهما حرب شديد مات فيه وجوه عسكر القائم وانهزم أبو يزيد وقتل من أصحابه خلق كثير. ثم زحف مرة ثالثة فكان بينهما الفناء الأعظم وانتصر فيه عسكر القائم وانهزم أبو يزيد مغلولاً. ثم زحف إليها في المرة الرابعة[10] فكان بين الفريقين أشد ما يعلم من القتال، واشتدّ الغلاء في المهدية، ففتح القائم خزائن الطعام المدّخرة من عهد أبيه، ففرّقها في الجند والعبيد. وعظم البلاء على الرعيّة حتى أكلوا الميتة والدواب والكلاب. وفرّ غالب أهل البلد ولم يبق بها مع القائم سوى الجند.

(9) من ضواحي المهدية.

(10) حصل الهجوم الرابع في شوال 333هـ/ جوان 945م.

وكان البربر إذا كبسوا أحداً في الطريق مسكوه وشقّوا بطنه لئلا يكون فيها ذهب وفعلوا بهم من المناكر ما لا يفعل.

وكتب القائم إلى كتامة يستنفرهم وفي أثناء ذلك تفرّقت جموع أبي يزيدواشتغلوا بالنهب والسلب ولم يبقَ معه إلا اليسير منهم. فعلم القائم بذلك فتأهب للخروج إلى أبي يزيد، فخرج في عسكره والتقى مع أبي يزيد فتصاولوا ساعة من نهار ورجع كلّ منهما إلى موضعه واتصلت بينهما عدة وقائع، كانوا يتعاورون فيها النصر إلى سنة 334 [949]. فوقع فيها اختلاف بين عساكر أبي يزيد. فتفرقت جموعه ولم يبق معه إلا ثلاثون رجلاً. فرجع إلى القيروان وأسلم ما كان معه. فخرج الناس من المهدية ونهبوا معسكر أبي يزيد، فصلحت حالهم بعد الجهد وأخذوا ما خلّف من طعام وأمتعة وأدوات، فرخصت أسعارهم وارتفعت الضائقة عنهم.

ولما وصل أبو يزيد القيروان نزل بالقصر ولم يخرج للقائه أحد من أهل البلد. وكان الصبيان يتعرضون له ويضحكون منه. وبلغ القائم خبره، فبعث عمّاله إلى البلاد وأخرجوا عمّال أبي يزيد. وتسامع الناس بانهزامه، فعمّت الأفراح. ولم يلبث أن تقوّى عزمه مرة أخرى وأتته البربر من كل فجّ، فبعث عسكراً إلى تونس، فدخلها بالسيف يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة 334[سبتمبر 945][11] وانتهبوها وسبوا النساء والأطفال وقتلوا الرجال وهدموا المساجد. ولجأ كثير من الناس إلى البحر، فماتوا

(11) الداعي إدريس، ص 326.

غرقاً ودخل غيرهم قناة قرطاجنة فماتوا جوعاً.

ولما اتصل ذلك بالقائم بعث عسكراً إلى تونس، فالتقى بجموع أبي يزيد عند وادي مليان، فاقتتلوا عليه فانهزم عسكر القائم ولجأ إلى جبل الرصاص. ثم عادوا للقتال ثانياً، فانهزمت جموع أبي يزيد ورجع عسكر القائم إلى تونس فقتل من ظفر بها من النكارة وأخذ لهم ثلاثة آلاف جمل من الأقوات، وذلك يوم الإثنين لخمس خلون من ربيع الأول سنة 334 [اكتوبر 945][12] ورجع إلى المهدية.

ولما سمع أبو يزيد برجوعه جمع جموعاً عظيمة وزحف بها إلى تونس، فقتل من عاد إليها من أهلها وأحرق ما بقي منها وتوجّه إلى باجة ففعل بها كذلك وأحدث في سائر أنحاء البلاد من السبي والهرج ما لا يوصف.

ولما وصل سبي تونس إلى القيروان وثب الناس فانتزعوا السبي من أيدي البربر وأعادوه إلى أهله بتونس.

ثم عاد أبو يزيد واستألف جموعاً أخرى فاجتمع له عدّة أقوام ورحل إلى سوسة وحاصرها في جمادى الآخرة سنة 334 [جانفي 946].

خلافة المنصور[13]:

وفي شوال من السنة المذكورة [ماي 946] توفّي القائم وتولّى بعده ابنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور باللّه. فكتم وفاة

(12) نفس المرجع، ص 327.

(13) خلافة المنصور: من سنة 334 هـ/946م إلى سنة 341 هـ/953 م.

أبيه وكان شجاعاً فصيحاً كثير ركوب المنابر والخيل. ولما استوفى له الأمر جدّ في قتال أبي يزيد وخرج في طلبه فأجلاه عن مدينة سوسة. وانهزم أبو يزيد إلى القيروان، فمنعه أهلها من الدخول وقتلوا من دخل إليهم من أصحابه والتحق به المنصور إلى القيروان وكانت بينهما عدة وقائع يتساجلان فيها الفوز، ختمت بانتصار المنصور بالله وانهزم أبو يزيد إلى المغرب، فتبعه المنصور وجرت بينهما وقائع كثيرة.

ولم يظهر المنصور وفاة أبيه إلا بعد ظفره بأبي يزيد[13]. ولما عاد من حربه تسمّى بأمير المؤمنين.

3 ـ أبو تميم معد المعزّ لدين الله العبيدي

بويع بعد وفاة أبيه المنصور بالله بداء الأرق سنة 341[953][14]. وكان فتى عالماً فاضلاً نبيلاً واسع الرأي حسن التدبير. جلس على سرير الخلافة يوم الأحد السابع من ذي الحجة من تلك السنة [25 افريل 953] وله من العمر إثنان وعشرون سنة. فدبّر الأمور وساس الجمهور وأحكم النظام ومهّد السياسة وذلّل الصعاب وركب الذلول وأحسن السيرة وأنصف الرعية.

وفي سنة 342[954] رحل المعزّ إلى المغرب وصعد إلى جبل أوراس وأجال فيه خيله وقاتل من بقي به من العصاة، حتى

---

(13) خلافة المنصور: من سنة 334 هـ / 946 م إلى سنة 341 هـ / 953 م.

(14) خلافة المعزّ: من سنة 341 هـ/953 م إلى سنة 365 هـ/975 م.

أطاعوه وعقد لمولاه قيصر الرومي ولاية المغرب كله. وعقد لزيري بن مناد الصنهاجي على ولاية أشير. ولجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي على ولاية المسيلة. ولمولاه نصير الصقلي على ولاية باغاية. ولأحمد بن بكر على ولاية فاس ولمحمد بن واسول على ولاية سجلماسة. ولعطاء الله الكتامي على ولاية قابس. ولمولاه باسيلي الصقلي على ولاية سرت. ولأفلح الناشب على ولاية برقة. وقلد صولة الكتامي ولاية خراج إفريقية.

وفي سنة 345[957] رفع مولاه جوهر الكاتب إلى رتبة الوزارة وحصل مولاه مظفر الصقلي على أعنّة الخيل وأوكل إليه تدبير شؤون الولايات من رقادة إلى نهاية أعمال مصر.

وفي سنة 347[959] بعث عسكراً ضخماً أمر عليه الوزير جوهر وأمره أن يأخذ من كل بلدة عدداً معيناً يضمهم إلى جنده. فخرج جوهر بأمم لا تحصى، فدخل مدينة إفكان ظاهراً وسار إلى فاس وحاصرها، فلم يفتحها وتحوّل عنها إلى سجلماسة وأسر صاحبها محمد بن واسول وكان قد أعلن استقلاله وتلقب بالشاكر لله. ثم مضى لا يدافعه أحد إلى أن بلغ إلى المحيط وأمر بصيد السمك وجعله في قمائم بالماء وأرسله إلى مولاه المعزّ. وكتب إليه ورجع إلى فاس فنزل عليها وحاصرها وفتحها عنوة وأخذ صاحبها وقرنه بابن واسول وقفل بهما إلى إفريقية بعدما دوّخ المغرب وطوّعه لمولاه، ما عدا مدينة سبتة فإنها بقيت تابعة للأمويّين وكانت غيبته ثلاثين شهراً.

وفي سنة 354[965] خرج المعزّ مستشرفاً على البلاد فبلغ إلى تونس وقرطاجنة ثم ارتحل إلى غيرهما من المدن وقضى في هذه الرحلة ثمانين يوماً ثم عاد إلى مدينة المنصورية. وأمر في السنة التالية بحفر الآبار على طريق مصر وأن يبنى له على رأس كل مرحلة قصر، إحكاماً للعمارة وحفظاً للأمن. ثم وجه الوزير جوهر إلى المغرب للإشراف على الولاة وتمهيد البلاد وتحشيد الجنود. فمهّد الأمور وحشد الأجناد وجنّد قبائل كتامة وجبى ما على البربر من الأموال ورجع إلى مولاه سنة 358[969]. فسار المعزّ بنفسه إلى المهدية وأخرج من خزائن أسلافه خمسمائة حمل من الدنانير وعاد بها إلى قصره. وفي يوم السبت لأربع عشرة خلون من ربيع الأول من السنة [6مارس969][15] سيّر الوزير جوهر في جيش عظيم من الجند والبربر وكتامة والزوليّين إلى مصر وأعطى القواد والأجناد أموالاً عظيمة من ألف دينار إلى عشرين ديناراً. وأمر الوزير بألف حمل من المال. وأما أحمال الأسلحة والذخائر والمهمّات، فإنها لا تحصى لكثرتها. وسار الوزير في جيش لا يبلغ مداه. ودخل مصر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقين من شعبان السنة [6جويلية969][16]. وفي ليلة النصف من رمضان وصلت النجب إلى المعزّ تحمل شارة الفتح، فعمّ السرور وانتشرت الأفراح في كل مكان.

وتوالت بعد ذلك كتب جوهر بحثّ المعزّ على الانتقال إلى مصر، وبدخول الشام والحجاز في طاعة الدولة العبيدية.

(15) الداعي إدريس، ص 668.
(16) نفس المرجع.

وأوفد جوهر ابنه جعفر إلى المعز سنة 360[971] بهدية فيها ذخائر من سلف من الملوك على مصر، فيها أواني الذهب والفضة والعماريات والسروج المحلاة وأحمال الأمتعة وصنوف الثياب وظرائف المشرق ما لا يوصف. ومعه القواد والأمراء الذين استولى عليهم جوهر وأدال منهم. فأقبل عليهم المعز ومنّ عليهم بالعفو وجلس لهم في حفل عظيم وزيّ عجيب. وقد وضع تاج سردانية على رأسه وأقام الوزراء والقواد من حوله وصف الأجناد ورفعت الأعلام ودخلوا عليه في هيبة وجلال وسلّم عليهم ولاطفهم وبالغ في إكرامهم والعناية بهم.

رحيل المعزّ إلى مصر:

وفي شوال السنة[17] وطد العزم على الرحيل إلى مصر فانتقل من المنصورية إلى قصور سردانية ولحقه قواده وبطانته وجمع بها نفائس ما كان في قصور الملك ومكث بقصور سردانية أربعة أشهر. وفي أوائل صفر رحل منها في يوم مشهود. ولما جاذى المنصورية التفت إليها وسلم عليها سلام الوداع الأخير فقال: «سلام عليكم من مودع لا يعود أبدا». ثم سار تخفق عليه القلوب وتحفّ به المهج والأبصار إلى أن بلغ الإسكندرية[18]. ثم رحل منها إلى القاهرة التي بناها له قائده ووزيره جوهر يوم

(17) كان خروج المعزّ من المنصورية «يوم الإثنين لثمان بقين من شوال من سنة إحدى وستين وثلاثمائة» (المقريزي، اتعاظ الحنفاء. القاهرة 1948، ص 186).

(18) دخل الإسكندرية «لست بقين من شعبان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة» [26ماي973]. الداعي إدريس، ص 725.

السبت ثاني شهر رمضان وأقام حول الفسطاط ـ مصر العتيقة ـ ثلاثة أيام.

ويوم الثلاثاء لخمس خلون من رمضان سنة 362 [9 جوان 973] عبر المعز النيل ودخل القاهرة المعزية وتلقاه الوزير جوهر عند الجسر الثاني في عامة قواده وجنده وولاته وذوات المصريّين. فترجّلوا عند لقائه وقبّلوا الأرض بين يديه. وسار إلى القصر الذي كان معدوداً إليه. وبمجرد وصوله خرّ ساجداً ثم صلّى ركعتين شكراً لله على ما أنعم به عليه.

ومن الدلائل القاطعة على مطامع المعزّ ومطامحه وأنه يريد أن يحلّ محلّ الخلافة العباسية، ما حكاه عنه سفير الروم وكان ورد عليه مراراً وكاشفه بأسراره ونواياه.

قال السفير نيكولا أوفدني إليه مولاي بعد وصوله إلى القاهرة مهنئاً، فخلوت به في بعض الأيام، فقال لي المعز: أتذكر إذ أتيتني وأنا بالمهدية؟ فقلت لتدخلنّ عليّ بمصر وأنا ملك عليها؟ قلت نعم. فقال لي: وأنا أقول لك الآن لتدخلنّ عليّ ببغداد وأنا خليفة..

ويحكى أن السفير قال له إن أمّنتني على نفسي ولم تغضب أقول لك ما عندي. فقال له قل ما عندك وأنت آمن. قال بعثني إليك الملك ذلك العام، فوصلت إلى صقلية فلقيني غلامك بجيشه فرأيت منه العجب. ثم جئت إلى سوسة فرأيت بها من جندك وضخامته ما أذهل عقلي. ثم سرت إلى المهدية، فما كدت أصل إليك من كثرة أجنادك وخدمك ووزرائك وأمرائك،

فكدت أموت. ووصلت إلى قصرك فاعترتني هيبة وجلال غطّيا بصري. ثم دخلت عليك وأنت على سرير ملكك، ورأيت عظمتك فظننتك خالقاً لا مخلوقاً. فلو قلت لي يومئذ أنك تعرج إلى السماء لتحقّقت ذلك. ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئاً. ولما أشرفت على مدينتك هذه كانت في عينيّ سوداء مظلمة. ثم دخلت عليك في قصرك، فما وجدت عليه مهابة مثل ذلك العام. فقلت إن ذلك كان مقبلاً وإنه الآن بضدّ ما كان. فسكت المعزّ وخرج السفير. ولم تطل أيام المعزّ بمصر، بل مكث بها سنتين وتسعة أشهر وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة، قضى منها بإفريقية عشرين سنة وأشهراً وكانت وفاته بالقاهرة في سابع عشر ربيع الأول سنة 365 [ديسمبر 975] وعمره خمس وأربعون سنة.

4 ـ سياسة الدولة العبيدية تجاه الولايات الأروبية

استمرّ نجم الإسلام صاعداً في أروبا في عهد الدولة العباسية، وأمراء الأغالبة لا ينفكّون عن تعزيز المسلمين في ولاياتهم الأروبية ومراقبة حركات الصليبيّين مراقبة عنيفة تحبط كلّ سعي في الانتكاث، حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالإسلام وتذوّقوا حلاوة تحريره إيّاهم من ظلم الأمراء الإقطاعيّين، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمرّ ذلك إلى أن ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط، وقدّر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية، فتعطّل

الفتح في أروبا وانقلبت جيوش إفريقية مغيرة على العالم الإسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العبّاسية القائمة في المشرق. وبسبب ذلك تحوّلت السياسة الإسلامية تجاه أروبا من الهجوم والتوثّب إلى الدفاع والتسليم.

ولم يجن أحد على الإسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديّون أو الفاطميّون. وإليك البيان:

لما تغلّب عبيد الله المهدي على إفريقية وزال عنها حكم بني الأغلب، كرهت الولايات الإسلامية في أروبا أن تقدم طاعتها للمتغلّبين، فأجمع أصحاب الشأن فيها على إعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أروبا إلى إفريقية، فبايعوا بالإمارة القائد أحمد بن زيادة الله بن قرهب، وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير إلى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة، فأنفذ إليه المقتدر بالتقليد والخلع والألوية وطوق من الذهب. ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بثّ الدسائس والفتن بين المسلمين في أروبا، وما زال بهم حتى اختلّت الأمور على ابن قرهب [916] وقتل بعد أن وصل إلى المهدية. وعقب ذلك اجتمع أولو الحلّ والعقد من المسلمين في دار الإمارة ببليرم، فكتبوا إلى المهدي، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهّز جيشاً لغزو المشرق بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف، يلتمسون منه تعيين الولاة والقضاة، وأنْ يبقي لهم الجيش يدرأون به الأخطار أمام الأعداء، إلى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق. فأبى أن يجيبهم إلى هذه الطلبات العادلة، وأخرج إليهم الجيوش

والأساطيل وعيّن عليهم سعيد بن المضيف، فحاصرهم شهوراً، وكانت البلاد ممتنعة عنه، فتنحّى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطىء المفتوحة للنهب والسلب، ففعلوا الأفاعيل التي أفزعت النساء والذرية، حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمّنهم بلا قيد ولا شرط.

وعلى إثر ذلك احتلّ البلاد وهدم أسوار المدن وجرّد حاميتها من السلاح والخيل وفرض المغارم الكثيرة، ونصب سالم ابن أبي راشد أميراً عليها وعزّزه بجيش من كتامة، فكان دأبهم الإفحاش في الظلم وسلب الأموال، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسّع حتى طمع فيهم رعاياهم الإيطاليون والفرنسيّون.

وفي عهد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي، عيّن لولاية أروبا خليل بن إسحاق الطاغية، فقضى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور ما لم يسمع بمثله، وجعل المسلمين يفرّون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصّرون. ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة 329[941] إلى شمال إفريقيا كان يفتخر بمظالمه، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية في قصر الإمارة وكانوا يتباحثون في شؤون الدولة، فقال: إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة، فردّ عليه أبو عبد الله المؤدب، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية: «لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك».

وفي أيّام تميم الملقّب بالمعزّ لدين الله، وجه القائد جوهراً

في الغزوة الثانية على مصر سنة 358[969]، بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدي، فاستولى عليها وبنى له مدينة القاهرة.

وفي سنة 361[972] رحل المعزّ إلى المشرق واتخذ القاهرة عاصمة لملكه واستخلف على إفريقية أبا الفتوح يوسف بلكّين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية. فكان همّه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربريّة. فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أروبا بسريـان هذا الضعف والانحلال في قوّة التمسك بالوحدة الإسلامية، فأخذوا يواثبون المسلمين في كلّ مكان، وما زالوا يجمعون ويؤلّبون عليهم إلى أن وافتهم سنة 372[983]، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسا. ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله في جنوب أروبا أن ينهض لقتالهم، فتحرك إليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك، ارتدّت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً. فما كان من الملك روجار النرماندي قائد هذه الحملات الصليبيّة الأولى إلاّ أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الإسلام في أروبا وإفريقية.

وكان النرمنديّون نزلوا من شمال فرنسا إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقّبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن، مدينة إثر مدينة، حتى ملكوا جميع البلاد الإسلامية في جنوب أروبا. ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعزّ بن باديس، إثر الزحفة الهلالية التي سيّرها إليهم العبيديّون سنة 441[1049] من مصر لتقويض معالم شمال إفريقيا.

الفهـــرس




دار الغرب الإسلامي